الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر (I) كلّية العلوم الإسلامية

قسم اللّغة والحضارة العربية الإسلامية

صلاح الدين الأيوبي في الكتابة التاريخية العربية في القرنين (7/6هـ – 13/12م)

مذكرة مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية
تخصّص: تاريخ وحضارة

إعداد الطالب

* *عوّاد المنوّر*

إشراف

* أ.د: علاوة عمارة

السنة الجامعية
1433/1432
2012/2011

الجمهـــــوريــــــة الجزائــــريــــــــة

الديمقـــــراطيـــــــــة الشعبيــــــــــة

وزارة التعليـــــــــــــم العالـــــــــــي والبحــــــــث

العلمــــــــــــي

جـامعـة الجـزائـر (I) كليّـة العلـوم الإسـلاميـة

قـسـم اللّغـة والحضـارة العـربية الإسـلاميـة

صـــلاح الديـــن الأيوبـــي
فـــي
الكتابـــة التاريخيـــة العربيـــة
فـــي القرنيـــن
(6/7هـــ – 12/13م)

مـذكـرة مقدَّمـة لنيـل شهـادة الماجستير فـي العلـوم الإسلاميـة
تخصّص: تـاريـخ وحضـارة

اللجنـة المناقشـة

1- أ/د. محمد الأمين بلغيث.....................رئيسـا

2- أ/د. عـلاوة عمارة ....مقـررا

3- أ/د. بشار قويدر................................عضـوا

4- أ/د. توفيق مزاري عبد الصمد............عضـوا

إعـداد الطالب

** عـوّاد المنـوّر*

إشـراف

* أ.د: علاوة عمارة

السنة الجامعية1432/1433

2011/2012

إهـــــــــــــــــــــــــــداء

إلى من ربياني صغيرا، وأتعبتهم كبيرا، مع ذلك حرصا على راحتي وسعادتي

إلى أمّي وأميّ وأميّ وأبي.

إلى إخوتي:

نصيرة الفاضلة صاحبة القول الجميل، والرأي الأصيل.....فاطمــة البارة المطيعة الخلوقة ...مــراد المــؤنس بحديثــه و الحكيم بتفكيره.....مصطفى الطيب كلمــا احتجتــه وجدته... إلى عبــد الحق البــار المطيع بحق، البشوش الذي لا تفارق البسمة محّياه...عبد الحليــم الحنون اللّين، والمدلل المقدم ... اللؤلؤة نال، صــلاح الدين ابن أخــتي صــاحــب الشخصــية القوية،

لا يعدل عن رأيه إلا بقناعة ودليل... أمحمد الوسيم المتهد .

إلى أستاذي الدكتور علاوة عمارة الذي تعلمت منه كيف أثق في قدراتي وأجتهد في فهم ما أشكل من أفكار ونصوص.

إلى مرشدي ودليلي الدكتور بلقاسم قوادري الذي قدّم لي من النصح ما ساعدني في مسيرتي الحياتية والعلمية.

إلى أعز صديقين غيثري زين العابدين، وزيان الهواري...

...أهدي هذا العمل المتوضع

مقـدّمـــــــــــة:

شهدت الكتابة التاريخية تطورات مهمة في ظل الحضارة العربية الإسلامية، تميزت أساسـا باستمرار نمط التاريخ-الرواية التي عرفتها الثقافات القديمة الإغريقية والشرق-أوسطية، وبظهـور أنماط معرفية جديدة اهتمت بالماضي كالحوليات والتراجم والسير الذاتية. ولعـل القـرنين (6-7هـ/12-13م)، من الفترات الخصبة لهذا التحول المعرفي بعدما شهدا ازدهارا ونشاطا واسـعين، وسارت في مجموعة من الاتجاهات، وبمظاهر جديدة عُد فيها القرن (6هـ/12م) عصر الكتابـات التاريخية الكبرى في المشرق والمغرب، ومثّل مرحلة التحولات التي حدثت في العـالم الإسـلامي، والتي أدت إلى إحداث خلخلة مهمّة على جميع المستويات[1]، أبرزها ما شهده المشرق الإسـلامي من غزو إفرنجي تناولته مؤلفات تاريخية بالدراسة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، في الشام ومصر والعراق والجزيرة وغيرها، تحت تسمية (الحروب الصليبية) وأسهمت عوامل عدّة في جعل الفتـرة الأكثر خصوبة في إنتاج مؤلفات تاريخية زودتنا بأحداث الفترة وملابساتها.

ولعلّ في مقدمتها حركة الجهاد هذه الكلمة التي تواترت في أدبيات المـؤرخين المسـلمين لكنّها استعملت خصوصا للحديث عن بطولات صلاح الدين[2]، الذي ارتبط اسمه بفترة الصراع الإسلامي المسيحي، ما دفع عددا من المؤرخين إلى تدوين سيرته التي تعددت نماذج الكتابة حولها، وتعددت معها اتجاهات المؤرخين وطريقة تناولهم للأحداث، والفترات التي أرخوا لها مـن حيـاة صلاح الدين، من حيث الكمّ، ونوعية الكتابة.

إلاّ أنّ زوايا كثيرة من حياة صلاح الدين بقيت غامضة، أو مبالغاً فيها شابتها الكثير مـن التساؤلات حول كيفية التأريخ لحياته، كون الكتابة التاريخية تماشت مع ظروف خاصة فرضتها أو قيدتها، أو خالفت السياق العام وانفردت عن غيرها في الإساءة والتجريح، أو الدعاية والانحيـاز، وهو ما دفعني إلى تناول الكتابات التاريخية التي أرخت لصلاح الدين عبر قرنين من الـزمن (6-7هـ/12-13م)، لأنّ سيرته كتبت بكلّ حيثياتها في هذه المرحلة، وما تلاها عُد نقلا، وحتى أقدم

---

(1): علاوة عمارة، "الكتابة التاريخية في المغرب الإسلامي الوسيط"، **مجلة التاريخ العربي**، 32، (2004)، ص 329.

(2): للاطلاع أكثر على تداول كلمة جهاد عند المؤرخين العرب يمكن الرجوع إلى مقال للمؤرخة فرنسواز ميشو:

Françoise Micheau, « Les croisades vues par les historiens arabes d'hier et d'aujourd'hui », rééd. *Les relations des pays d'Islam avec le monde latin du milieu du X^e^ siècle au milieu du XIII^e^ siècle*, Paris, E. J. Marseille, p. 52.

تفسيرات ووجهات نظر تشرح خلفيات الكتابة التاريخية وتقييمها، خاصة تلك التي تعلقت بالمصادر الأولى التي عاصر مؤلفوها الأحداث وكانوا شهودا عليها.

إن موضوع دراسة تشكل وتبلور الكتابة التاريخية العربية التي رسمت صورة صلاح الدين الأيوبي التراثية ما زالت تحتاج إلى المزيد من التنقيب، سواء ما تعلق منها بكتابة المرافقين للسلطان أو المعاصرين له، أو الذين عاشوا في كنف خلفائه وعاصروهم، والذي يجتمع أغلبهم في القرنين (6-7هـ/12-13م).

لقد تزايد عدد المؤرخين في هذين القرنين خاصة مع ظهور السلالتين الزنكية والأيوبية، وكان حافزا على تأليف عدد من كتب التاريخ، وتعبيرا عن التحدي في مقابل العدوان، والرغبة في الإحساس بالذات نظرا للشعور العارم بترابط الكيان الإسلامي زمانا ومكانا، وتولد الميل إلى محاولة تذكر الماضي المجيد والتذكير به بشكل شامل، وتميزت كتاباتهم التاريخية بصورة عامة بمحدودية المدى الزمني والمكاني، فهي إما سيرة رجل أو دولة، أو ذكر فضيلة لموقع، أو تاريخ لمدينة أو أسرة، في حين يجب الاعتراف بأن كتابات تاريخية كبرى مدونة وصلتنا من فترة الدراسة، مثل ابن عساكر (ت 572- 1176) في كتابه تاريخ دمشق، في حين وصلتنا روايات ابن أبي طيء (ت 1232/630) ومؤلفاته التاريخية عن طريق كتب أخرى[3]، فجاءت كتب التاريخ على اختلافها تحمل فترات من التاريخ الإسلامي حتى تصل إلى اللحظة المعاصرة[4].

وقد شهد الفكر التاريخي في هذه المرحلة تطورا بفعل الصراعات والاختلاف المذهبي الذي أضاف إلى التعصب الإقليمي مصاعب أخرى، فضلا عن الاتجاه السلطوي الغلاّب الذي ضمن ولاء عدد لا يستهان به من المؤرخين أحرز السيادة خصوصا وأن السلطات السياسية تبنت تيارات هذا الاتجاه، وأغدقت عليه وحرضته على تيار المعارضة من أجل البقاء[5]، وهذا لا يجعل الكتابة التاريخية الرسمية تخلو من القيمة ولكن مثل هذه التواريخ تبنت في الغالب إيديولوجية السلطة السياسية، إذ تقتصر على ما يرغب الحاكم في تدوينه، ونجد أن معظم هؤلاء المؤرخين ألفوا

---

[3]: لؤي إبراهيم براعنة، **يحي بن أبي طيء مؤرخاً**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج03، العدد 2 (2009)، ص 40.

[4]: جمال فوزي محمد عمار، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام** في **عصر الحروب الصليبية** (521-1126/660-1261)، القاهرة، مكتبة القاهرة للكتاب، 2001، ص 18.

[5]: محمود اسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، (الفكر التاريخي- طور الازدهار)، مصر، مؤسسة الانتشار العربي، ص 14- 15.

تواريخهم لا بصفتهم مؤرخين في البلاط، وإنما بصفتهم أشخاصا قادتم ميولهم إلى متابعة هذا الصنف من الدراسات، وإذا نظرنا ما بين أواسط القرن السادس و أواسط القرن السابع الهجريين (12-13م) سنلتقي بالمشاريع التاريخية الكبرى[6] التي تعددت في نماذجها نظرا لما شهده الال من علائق وتفاعلات خصوصا لمّا انتقل مركز التدوين التاريخي بالعربية إلى الشام حيث كان ظهور سلالتي آل زنكي وآل أيوب حافزا على تأليف عدد من كتب التاريخ، ونظرا لترامي أراضي الدولة الإسلامية مما ألح على تتبع أخبار هذه الأطراف، وكذا عالمية الإسلام، والرغبة في المعرفة في حد ذاتا، كانت من دواعي ظهور هذا الاتجاه [7].

تمكن الأتراك السلاجقة من التحكم في القرار السياسي ببغداد ثم انقسموا إلى أطراف متنازعة على السلطة وقرب أفول الخلافة الفاطمية في مصر بعد حلول الخلافة العباسية محلها مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، لتزول بذلك المنافسة بين الخليفة الفاطمي والعباسي، الذي أصبح يخطب له في مصر، مما أسهم في كتابة تاريخية موجهة، وسيزداد هذا الوضع أكثر اتساعا في صالح الجبهة الإسلامية، والطموح السياسي لصلاح الدين الذي حقق وحدة الشام ومصر بعدما كانت مشتتة سياسيا وروحيا، وهو ما نتج عنه تحول في قلب العالم الإسلامي من حيث الوحدة في الخطبة دون القرار السياسي، الذي ضعف آنذاك بسبب الانقسامات الداخلية، ويبدو أن الظروف السياسية التي شهدتا منطقة الشام على وجه التحديد نتيجة تعرضها للعدوان الصليبي أضحت مجال اهتمام المؤرخين، والدافع الرئيسي لوجود هذا الكم الكبير من التراث التاريخي غطى تقريبا جميع اتجاهات الكتابة التاريخية [8].

في الحقيقة لا يوجد تاريخ منهجي للحروب الصليبية عند العرب، حسب رأي المؤرخة فرانسواز ميشو (Françoise Micheau) بل كتابات مبعثرة في إطار عام، وقد كان أغلب مؤرخي الحروب الصليبية من البلدان التي كانت مسرحا لها (سوريا فلسطين مصر) خلال القرنين اللذين استغرقهما احتلال الإفرنج، ولم يخصص كُتّاب العراق لأحداث سوريا إلا بعض التلميحات

---

(6): حسن عاصي، **مؤرخي العرب والإسلام** (المؤرخ أبوشامة، وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية)، بيروت، دار الكتب العلمية، 1991، ص 48.

(7): المنصور محمد، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، (ت) حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ص 32.

(8): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 18.

في حين تجاهلها كتاب إيران والمغرب، حتى ابن خلدون لم يكتب الكثير عن أحـداث الحـروب الصليبية إذ لم يتطرق لها إلا مرتين، وهو ما يفسر ندرة المصادر التي كتبت عن صـلاح الـدين لمؤرخي هذه الجهات [9].

وبشكل عام لم يهتم المؤرخون العرب بالإفرنج والحروب الصليبية[10] بقـدر اهتمـامهم بتعديد مناقب صلاح الدين، الذي طغت شخصيته على أحداث الفترة بشكل شامل لما حققه من إنجازات بوأته مكانا مرموقا في سجل القادة المسلمين، وقد اعتمد أغلب هؤلاء المـؤرخين علـى معاصرتهم له لخط سيرته، فيما لجأ آخرون إلى اعتماد المصادر المعاصرة له جمعا وتنقيحا، وتحلـيلا ونقدا.

لا يمكنني مطلقا أن أزعم أني أول من تناول موضوع الكتابة التاريخية ذات الصلة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، وإنما لم يتمّ تناول الكتابة التاريخية حول صلاح الدين بالإحصاء والحصـر، وتحديد المؤلفات التي رسمت صورته التراثية ككل، فلم ينجز حوله دراسة أكاديميـة مكتملـة – حسب علمي- وكلّ ما كتب عنه تعلق في الغالب الأعم بنقد نظرة بعض المؤرخين الذين أرخـوا له في دراسة خاصة، أو ضمن التأريخ للأيوبيين بوجه عام. ومن بين هذه الدراسات أشير خصوصا إلى كتاب "**المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**"، لنظير حسان سعداوي[11]، وهي دراسة صدرت عام 1962 تناول فيها المؤلف نقد خمس كتابات للمؤرخين العرب الذين أرخوا لصلاح الدين وهم ابن أبي طيئ، وابن الأثير، وبهاء الدين بن شداد، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضـل، وثلاثة من المؤرخين اللاتينيين، غير أنه سلط الضوء على توجهاتهم دون دراسة عميقة لمؤلفـاتهم، فضلا عن كون الدراسة مختصرة للغاية لم تكشف بالتفصيل ملابسات وأهداف الكتابة التاريخية.

---

(9) Françoise Micheau, *op. cit*., p. 52.

(10): لا يتحدث المؤرخون العرب عن الحروب الصليبية لأن لا كلمة لا تيني ولا كلمة حروب صليبية موجودة في قواميسهم هم يسمون الصليبيين بالإفرنج (في أشكالها المتعددة) وهذه الكلمة تشـير في أدبيـات العـرب إلى سـكان الامبراطوريـة الكارولنجية ذات الحدود الغير واضحة . ثم بعد الحرب الصليبية الأولى تم استعمال هذه الكلمة (الإفرنج) للدلالة على كافـة الصليبيين دون مرعاة للجغرافيا أو اللغة. وهكذا يتحدث ابن الأثير عن الافرنجة الألمان لتسمية جيوش الحرب الصليبية *Ibid*., p. 54.

(11): طُبع في مصر، مطبعة لجنة البيان العربي، 1962.

الدراسة الأخرى التي لامست الموضوع "**التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشـام** في **عصـر الحروب الصليبية** (521-1126/660-1261)" لجمال فوزي محمد عمار، وهي دراسة قيّمـة تعرض فيها المؤلف لنقد بعض المصادر التي أرخت لصلاح الدين، إلاّ أن اهتمامه لم يكن منصـبا على سيرة السلطان بقدر تعلقها بالأخبار الواردة في كامل المؤلف، كما ألف السير جب هاملتون ، مؤلفا "**حول تاريخ صلاح الدين الأيوبي**"[12]، ركّز فيه بشكل خاص على مؤلفـات العمـاد الأصفهاني، وابن الأثير التي نقلت سيرة صلاح الدين، وأشار إلى مصادر أخرى كالروضـتين لأبي شامة، وكـ الموحدين في سيرة صلاح الدين لابن أبي طيئ، وهي دراسة قيّمة قارن فيهـا بـين روايات العماد وابن الأثير.

وهناك دراسة أخرى أيضا وهي رسالة دكتوراه " **أدب الرسائل** في **العصـر الأيـوبي- القاضي الفاضل نموذجا-"**، لسلطان عبد الرؤوف الحريري[13]، نقد فيها رسائل القاضي الفاضل التي تناولت المكاتبات الرسمية لسلطنة صلاح الدين الأيوبي.

ومن هنا لا يمكن للمؤرخين والمثقفين والدارسين اليوم الذين يهتمـون بدراسـة ظـاهرة الحروب الصليبية، وسيرة صلاح الدين الأيوبي بشكل خاص التوقف أمام الوقائع، ولكـن يجـب عليهم التساؤل حول الصور التي تم فبركتها عبر القرون، لأن هذه الصور لها وزن أكبر من الوقائع نفسها، وتأثير على المصير السياسي الثقافي العقائدي لدول الحوض المتوسط، فالشيء الأكيد هو أن الدعاية المغرضة كان لها نصيب كبير إبان تلك الفترة[14].

من الإشكاليات المطروحة التي حاولت الوقوف عليها في هذه المذكرة بالنظر للمؤلفـات التاريخية التي أرخت لصلاح الدين الأيوبي ما يأتي: كيف تمّ التأريخ لحياة صـلاح الـدين مـن المؤرخين المحصورين في القرنين (6-7هـ/12-13م)؟ وكيف كانت نظرتم له؟ وما هي خلفياتم عند الكتابة؟ ما هي نماذج الكتابة التاريخية التي تناولت حياة صلاح الدين الأيوبي؟ ومـا موقـع المؤرخين داخل مجتمعاتم؟ وما هي العوامل التي تحكمت في تقرير نظرتم؟ وما حـدود الكتابـة التاريخية الزمني والمكاني؟

---

(12): طُبع في بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 1996.

(13): رسالة دكتوراه في الأدب، جامعة دمشق، 2001.

(14) *Ibid*., p. 52.

وللإجابة على هذه الأسئلة عملت على تتبع مجمل الكتابات التي اهتمت بالسلطان صلاح الدين من خلال استعمال مجموعة من المقاربات المتصلة بالكم وبالمناهج الابستمية في محاولة لتفكيك الخطاب التاريخي لدى المؤلفين وربط كتاباتهم بسياق التبلور المتميز بتنامي خطابات إيديولوجية وسياسية. إن توزيع الأحداث عبر مفاصل زمنية وتتبع علاقات المؤلفين بدواليب السلطان كان من بين الأمور التي ركزت عليها في قراءتي للنصوص.

عند بحثنا عن المصادر التي أرخت لصلاح الدين في القرنين (6-7هـ/12-13م) اصطدمنا بجملة من الصعوبات منها طول المرحلة الزمنية واتساع المجال الجغرافي للدراسة، مما جعلني أقلب في المصادر التي تناولت حياة صلاح الدين، ولا أدع أنني قمت بإحصاء كامل المؤلفات التي كتبت عنه. وفي بحثي هذا لم أعثر إلا على مؤرخين مشارقة، أمّا المغاربة فلم نجد من اختص بالتأريخ لصلاح الدين. كما أن هناك مصادر لم أستطع الوصول إليها **كمرآة الزمان**، لسبط ابن الجوزي (الجزء الثامن) الذي يتحدث فيه عن صلاح الدين، وكتاب ابن العديم" **بغية الطلب** في **تاريخ حلب**" وقد قمت بدراسة ملخصه" **زبدة الحلب من تاريخ حلب**" ورسائل القاضي الفاضل التي درستها من خلال منتخبات أبي شامة في الروضتين، وبعض الدراسات الخاصة.

إن موضوع "صلاح الدين في الكتابة التاريخية العربية" اعتمد إذن على عدد كبير من النصوص التاريخية المباشرة التي هي إنتاج فترة الدراسة. ولهذا فإني ارتأيت عدم ذكرها هنا في المقدمة تفاديا للتكرار بما أن موضوع بحثي هو تقديم وتحليل لهذه المصادر.

يطمح هذا العمل إلى أن يكون مساهمة في إثارة النقاش وإعادة النظر في الكتابات التي شكلت صورة صلاح الدين المرتسمة في أذهان الناس، وكذا الكتابة التاريخية بشكل عام حول الكثير من الشخصيات والقضايا، والمواضيع التي قُررت كمقدس وثابت بفعل الكتابة التراثية، إلاّ أنها قد لا تبدو كذلك حين دراستها وتحليل مضامينها.

وأود أن أشير إلى أنّ هذا العمل لم يكن ليكتمل لولا توجيهات المشرف الأستاذ الدكتور الفاضل علاوة عمارة، الذي قدّم لي الكثير من الملاحظات والرؤى المنهجية التي ساعدتني في عملية نقد المصادر، وإليه يعزى كل ما في الموضوع من عمل متقن وجاد، وإليّ وحدي يعود كل ما فيه من نقص وخلل فجزاه الله عنّا كل خير، كما أشكر كل الأساتذة الذين لم يدّخروا جهدا، ولم يبخلوا عليّ بتوجيهاتهم وتزويدي بالمصادر والدراسات التي احتجت إليها، وأخص بالذكر الأستاذ

الدكتور محمد الأمين بلغيث، والدكتورة دلال لواتي، والدكتور مولود عويمر، وشكري موصـول أيضا لأعضاء اللجنة الموقرة الذين قبلوا قراءة وتفحص هذا العمل المتواضع، لأستفيد من تصويباتهم وملاحظاتهم، وقد بذلت جهدا ليكون هذا البحث كما أرجوه فإن كتب لي التوفيق فذلك بغـيتي وحسبي، وإلا فما قصدت إلاّ العمل الخيّر والله ولي التوفيق.

الفصل الأوّل:

مؤرخو القرن السادس الهجري والإشارات الأولى لصلاح الدين الأيّوبي

ويشتمل على أربعة عناصر:

1- ابن القلانسي وأحداث ما قبل صلاح الدين

2- صاحب البستان الجامع يؤرخ لصلاح الدين

3- المنصور محمد: ملك أيّوبي يروي سيرة صلاح الدين

4- ابن جبير في وصف بعض مواقف صلاح الدين

I- ابـن القلانسي، وأحـداث مـا قبـل عصر صـلاح الديـن

يعتبر الكتاب الذي تركه ابن القلانسي " تاريخ دمشق "، مصدر لعدد مـن الكتابـات التاريخية العربية بخصوص الحملتين الصليبية الأولى والثانية، والذي دوّن فيه بداية أحداث الهجمات الصليبية على بلاد الشام، وعاصر نور الدين محمود الذي تربى صلاح الـدين في كنفـه ونشـأ، فخصص حيزا في مؤلفه للحديث عن إنجازات وحياة السلطان الزنكي، فاعتبر مؤلفه من المصـادر العربية الأولى في هذا الشأن.

لم يتعرض ابن القلانسي لحياة صلاح الدين الشاب، ولم يتحدث عن نشأته وطفولته مع أنه عاصرها، واكتفى بالحديث عن سّيده نور الدين محمود، ويبدو أن أهمية المؤلَف في التعرض للفترة التي سبقت سلطنة صلاح الدين بقليل هي التي دعتنا لإدراج هذا الكتاب ضمن الكتابات التاريخية العربية التي أرخت لصلاح الدين نظرا لخصوصية المرحلة، وتناول الكتاب للمجال المكاني الـذي تحرك فيه صلاح الدين وأسس عليه دولته.

1- ابـن القلانسي: بيـن العمـل الحكـومـي، ورئـاسـة الديـوان الدمشقي

ينحدر أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت 555/1159) من ابن أسرة دمشقية موسرة ظلت واضحة الوجود في المدينة منذ القرن الرابع حتى القرن التاسع تقريبا، كانت رئاسة دمشق لبعض رجالها ومنهم المؤرخ ابن القلانسي بحيث تولاها مرتين في بعض الفترات قرب أواسط القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[15].

نشأ ابن القلانسي على ثقافة فقهية أدبية فقد سمع شيئا من الحديث كما درس بعضا مـن الأدب لا ليصبح محدثا أو أديبا ولكن كاتبا في الديوان، ويبدو أنه لهذا السبب درس الحساب وتعلم قليلا من الفارسية أيضا إذ كانت تقاليد العمل الحكومي في بلاط دمشق تقتضي العلم بها ولأن ابن القلانسي هو ابن العهد السلجوقي كله في دمشق. ولد تقريبا عند دخول السلاجقة دمشق حوالي سنة (470/1077) ومات بعد إخراج آخر ممثل لذلك الحكم منها سـنة (549/1154)، وإذا كنّا لا ندري لم خدم ابن القلانسي في العمل الحكومي بدمشق فإنا نعلم على الأقل أنه كان أبرز

---

[15]: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**- دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام-، بيروت، دار العلم للملايين، 1987، ج2، ص 236.

الكتاب في الدولة الأتابكية (دولة طغتكين وأولاده)، وقد جمع بين كتابة الإنشاء (ديوان الرسائل) وكتابة الحساب (ديوان الخراج)، وبذا الشكل أتيح لابن القلانسي أن يطلع على محفوظات الدولة في دمشق، وأن يعرف أسرار السياسة خلال تلك الفترات الحرجة من تاريخ الشام التي عرفت دخول الصليبيين إلى هذه البلاد وحروبهم العدوانية ضدها، وهكذا كتب ابن القلانسي ما شاهده وعاينه [16].

ألف ابن القلانسي تاريخ دمشق بدأ فيه بعد سنة (1052/444) وانتهى إلى سنة (1159/555)، وهو أول تاريخ لدمشق رتب على الحوادث، ثم هو المصدر الوحيد عن تاريخ دمشق أيام الفاطميين والسلاجقة. نلمح فيه كثيرا من سيرة الشعب الدمشقي، وحالة المجتمع والحياة العامة، وما وقع في تلك الحقبة من الفتن والنكبات، ويعطينا صورة عامة فيها بعض الأحايين كثير من الدقائق في تلك الحقبة من تاريخ دمشق.

2- ذيل تاريخ دمشق: مصدر الكتابة التاريخية العربية حول أحداث القرنين (5-6هـ/11- 12م)

اشتهر هذا الكتاب باسم " ذيل تاريخ دمشق" تجاوزا وكان الأولى أن يُعرف بـ" المُذيّل في تاريخ دمشق" لأن مؤلفه أكمل به تاريخ هلال الصابي المنتهي إلى سنة (1056/448)، وليس كتاب الصابي تاريخ لدمشق حتى يكون هذا ذيلا له، وإنما هو تاريخ عام أكمله ابن القلانسي بأخبار تخص دمشق، أو أكمله فيما يخص تاريخ دمشق[17].

لم تكن سنة (1056/448) هي البداية الحقيقية للكتاب إذ أن المؤلف وجد فيما يخص السنوات السابقة على تلك السنة حول تاريخ دمشق أشياء تستحق التسجيل فبدأ بها بداية من عام (973/363)، وربما قبل ذلك، ثم تابع المؤلف أخباره في سنوات غير متتالية- وهي في جلها إن لم تكن كلها حول دمشق وما يتصل بتاريخها- بل إنه لا يرتب بينها تصاعديا إذ يذكر مثلا سنة (991/381) قبل سنة (988/378)، ولعل مردّ ذلك إلى أنه يكتب أحداثه في هذه الفترة حسب الموضوعات غالبا، لا حسب السنين، حتى إذا ما وصل إلى سنة (1056/448) التزم الترتيب الحولي وأورد الحوادث على السنين، حيث يتسع مجال تاريخه شيئا ما ليشمل أخبارا عن بقية بلاد

---

(16): شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، ص 237.

(17): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون،** المرجع السابق، ص 203- 204.

الشام ومصر والعراق وإيران، ولكن عينه على محوره الرئيسي وهو تاريخ دمشق[18] حتى يصـل لنهاية الكتاب سنة (1159/555) وهي سنة وفاته، ولذا فلا نستطيع أن نعده تاريخا عاما في هذه الفترة إذ إن ما أورده عن غير دمشق قليل ويرتبط في أكثره بدمشق من قريب أو بعيد، وهو ما لم يقدم لنا تاريخا عاما متوازنا لأقاليم العالم الإسلامي حتى أنه يجمـل تـاريخ المغـرب في ثـلاث صفحات[19].

يبدو أن المؤلف الذي انتهى بكتابه بالفعل إلى سنة (1159/555)، قد نوى أن ينهيه قبل ذلك نهاية مبكرة، ثم استأنف الكتابة مرة أخرى[20]. و" المذّيل في تاريخ دمشق" وهـو المنشـور باسم تاريخ دمشق جعله ابن القلانسي تذييلا على تاريخ هلال الصـابئ الـذي ينتـهي سـنة (1056/448)، ويبدو أنه أعجب به فقرر أن يبني هذا المذّيل على السنة التي انتهى إليها الصابئ، ولكّنه وجد أن هذا المؤرخ لا يعطي أحداث دمشق حقها من الشرح والتسجيل بينما لدى ابـن القلانسي الكثير ممّا يقوله عن تاريخ دمشق ويضيفه إلى تاريخ الصابئ في السنوات التسعين الـتي أرخها ما بين سنة (360-1232/447-1055)، وكان لدى ابن القلانسي كما يبدو مصدران عن هذه الفترة [21].

---

(18): تتفاوت في الكتاب أحجام أخبار السنوات تبعا لوفرة المصادر والمادة. ويضرب المؤلف أحيانا عن إكمـال خـبر أورده كذكر مضمون وثيقة مثلا، يذكر أنه سيثبته ثم يعدل عن ذلك، ربما نسيانا أو عجزا عن الوصول لهذا النص، أو ربمـا سـقط ذلك أيضا من الناسخ، يقول مثلا عن إحدى الشخصيات:" وورد بشرح قصته السجل من سلطان مصر إلى ثغـر عسـقلان وقرئ على منبرها ومضمونه": بسم الله الرحمان الرحيم" ولا يستكمل المؤلف روايته بذكر مضمون السجل بعد البسملة، بـل يبدأ في سرد خبر جديد. **انظر**: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، دمشق، دار حسّان، 1983، ص 461.

(19): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 204-205.

(20)**:** نجد في الكتاب نص يقول: " قال الرئيس الأجل مجد الرؤساء أبو يعلى حمزة بن أسد علي بن محمد التميمي:" قد انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ ورتبته وتحفظت من الخطأ والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، ونقلته وأكدت الحال فيـه بالاستقصاء والبحث إلى أن صححته إلى هذه السنة المباركة وهي (1145/540) وكنت قد منيت منذ سنة (1140/535) إلى هذه الغاية بما شغل الخاطر عن الاستقصاء عما يجب إثباته في هذا الكتاب من الحوادث المتجددة من الأعمال والبحث عن الصحيح منها وجميع الأحوال، فتركت بين كل سنتين من السنين بياضا في الأوراق ليثبت فيه ما يعرف صحته من الأخبـار وتعلم حقيقته من الحوادث والآثار" **انظر**: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص 441- 442.

(21): شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، ص 237.

3- محفوظات الديوان والسماع: أهمُّ مصادر ابن القلانسي

من بين مصادر المؤلف تعليقات تاريخية مكتوبة لبعض المؤلفين المجهولين، وينكشف ذلك في التفاوت الواضح بين أقسام الكتاب فهو أحيانا عزيز المادة واسع التفاصيل جدا كما في حـوادث سنة (362-367/972-977)، وأحيانا مقتضب جدا لا يكاد يزيد في أخبار السنة عن سطرين، فيتابع الكلام على أساس السنين ثم تغالبه المصادر فنجده في مواضع أخرى يسوق الكـلام علـى أساس الموضوع، ويسجل ولايات الأمراء أميرا بعد أمير حتى انتهى إلى سنة (448/1056) انتظم كتابه على الأساس الحولي والسنوات. شكلت محفوظات الديوان بدمشق مصدر ابن القلانسـي الأول، وقد استخرج منها العديد من الوثائق ونقلها في كتابه، كما نقل أحيانا بعـض قصـائد المديح[22]، وأتاحت للمؤلف مكانته في الدولة وتمكنه في دواوينها يسر الإطلاع على محفوظاتا مما أمدّه بكثير من المنشورات والرسائل التي دعم با مؤلفه، ويظهر ذلك جليا في إيـراده لنصـوص وثائقية طويلة تمتد لصفحات أحيانا، ونجده يسجل في كتابه بعض الوثائق النادرة [23]، واعتمد في رواية الحوادث البعيدة عنه مكانا المعاصرة له زمانا على المصادر المكتوبة كالرسائل [24].

استمد ابن القلانسي معلوماته من الكتب السابقة للواقعة بقلـة، وبخصـوص المصـادر السماعية فقد اعتمد عليها بكثرة وهي مجهولة غالبا لديه لا يذكرها لنا أو يذكرها بشكل معمم، وما تعلق بالمشاهدة فقد اعتمد عليها المؤلف كذلك فيما عاصره من أحـداث. لا يقتصـر ابـن القلانسي في حديثه كغيره من المؤرخين – غالبا- على مظاهر الحياة السياسية إنما يفسـح الـال للحديث عن الظواهر الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها في حياة التمـع الـذي يـؤرخ له[25].

تبدو المعلومات لدى ابن القلانسي فيهـا بـين سـنتين (448-485/1056-1092) شحيحة قليلة حتى إذا وصل إلى السنوات التي وعاها بنفسه ووعاها معه أهله وأساتذته، وصار فيها موظفا في الديوان أخذ التاريخ شيئا كثيرا من التوازن وكثرت معلوماته، ودقـت واسـتندت إلى

---

[22]: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، ص 238.

[23]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 207- 208.

[24]: يقول مثلا " وردت الأخبار إلى بغداد بأن السلطان لما كثف جمعه وقصد المذورين وقصدوه...وحكى الحاكي المشـاهد لهذه الواقعة في كتابه.." وكان ذلك ضمن رواية أحداث سنة (542/1147) **انظر**: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص 458.

[25]: جمال فوزي، المرجع السابق، ص 210.

الوثائق واستمرت كذلك حتى النهاية سنة وفاة المؤرخ نفسه، ويبدو أنه كان يسجل الأمور سنة بعد سنة في أوقاتها، فلما شغل مرّة بمشاغل الرئاسة بدمشق أهمل التسجيل فترة امتدت أربع سنوات واعتذر عنها (435-1043/438-1046)، كما قرر مرّة أن يختم كتابه سنة (1145/540)، وفعل ثم بدا له فتابع التسجيل[26].

لا يفرد المؤلف جانبا خاصا للوفيات – وهي لديه شحيحة متناثرة – والحوادث الصغيرة كما عند ابن الأثير في الكامل مثلا. وإنما ترد لديه أخبار الحوادث والوفيات مختلطة ببعضها كما عند ابن شداد في " النوادر" وابن العديم في " زبدة الحلب" [27].

لم يترجم المؤلف لنفسه ولا لأحد من أسرته إلا مرة واحدة على غير عادته حين يترجم لأخيه بمناسبة وفاته [28].

في أحيان قليلة تحدو المؤلف الرغبة في عدم تقطيع الحادثة الواحدة بين السنين، وهو ما نجده بكثرة واتساق لدى ابن الأثير في الكامل - كما سبق- وقد رصد المؤلف إرهاصات العدوان الصليبي على جبهات مختلفة من العالم الإسلامي، وإن لم يربط بينها كابن الأثير[29].

إذا ترجح لدى المؤلف رأي ما من عدة أراء واردة في رواية تاريخية، فإنه يؤكد على هذا الرأي وينفي ما عداه، يظهر ذلك بوضوح في تعليقه على ما أصاب بلاد الشام من زلازل وكوارث ومحن، ومن سمات الكتاب دقة المؤلف في النص على تواريخ وأزمان الأحداث، ويستخدم أحيانا بعض المصطلحات الفلكية، ويشير كثيرا إلى معلومات وأخبار فلكية، وإن ثبت خطؤها علميا بعد ذلك الزمن كاعتبار الشمس كوكبا والقمر كذلك [30].

لم يمنع المؤلف نفسه من نقد إساءات أحد أفراد الأسرة الحاكمة في دمشق - والتي عاش في ظلها- في بعض الأحيان، ويتحدث ابن القلانسي في كثير من الأحيان حديثا صريحا دون

---

[26]: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، ص 239.

[27]: انظر بعض الأمثلة في، **تاريخ دمشق**، لابن القلانسي، المصدر السابق، ص 152.

[28]: فيقول: " وفي يوم السبت من سنة (1144/539) توفي الأخ الأمين أبو عبد الله محمد بن أسد بن علي بن محمد التميمي عن 84 سنة، ودفن بتربة اقترحها خارج باب الصغير من دمشق، وكان على الطريقة المرضية من حسن الأمانة والديانة. **انظر**: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص435.

[29]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 211- 112.

[30]: نفسه، ص 214- 215.

موارية عن أفاعيل أفراد أسرة الأتابكة التي عاش في ظلها. ويتحدث كذلك عن رأس الأسرة التي يعمل في ظلها أتابك " طغتكين"- في صراحة بالغة [31].

كتابة ابن القلانسي التاريخية نموذج للأدب التاريخي في عصره عبارات واضحة موجزة، وإجمال للأحداث، ومداراة في الأمور التي قد تحرج الأتابك الحاكم مثل هدنته مع الصليبيين أو وقع الإتاوة لهم أو قتل الأمير لأخيه، وبالرغم من أن الكتاب يحمل عنوان تاريخ فإنه لا يقتصر على أمورها إلا في قسمه الأول السابق لسنة (1056/448)، أما بعد ذلك فهو تاريخ للعالم الإسلامي كله منظورا إليه من دمشق، أو إلمام بأحداثه الهامة مع التركيز أو التوقف عند أحداث دمشق، وقد غدا الكتاب المصدر الأول لتاريخ دمشق في فترته لدى كافة المؤرخين من بعده [32].

من نماذج النقد لدى المؤلف حملته على الحكام الظلمة واعتباره ما يحل بهم نقمة من الله جزاء أفعالهم الشنيعة. يجري ابن القلانسي في كتابه على سنن الأسلوب العادي المسترسل الفصيح، غير المتكلف للترصيع، والسجع لا يرد لديه إلا نادرا وعفويا، فأسلوبه بوجه عام أسلوب ديواني أدبي جيد، ولكنه في بعض الفقرات يتألق ليصل إلى درجة رفيعة من الجودة والبلاغة، مثال ذلك حديثه عن ما حدث من الباطنية بدمشق وأعمالها وما آلت إليه أحوالهم من البوار وتعفية الآثار في بقية سنة (1127/522). ومما سبق يبدو أن الحكم المطلق على أسلوب ابن القلانسي بأنه يتميز بكثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارئ حكم غير دقيق [33].

تكثر لدى المؤلف الاستشهادات الشعرية طويلة وقصيرة، ويبرز الجانب الأدبي في شخصية المؤلف من خلال روايته لكثير من الأشعار المناسبة لورود الحوادث لديه، كحديثه عن مقتل عماد الدين زنكي سنة (1146/541) وما أحدثه ذلك من فتن وقلاقل، وباعتبار المؤلف من كبار رجال دولة الأتابكة في دمشق فإنه يداري أحيانا في بعض الأمور التي قد تحرج الحاكم في صراحتها رغم ما سبق إيراده من نقد للأمراء والحكام من الأتابكة وغيرهم، بحيث نلمح هذه الدبلوماسية والموارية وعدم الانتقاد لهدنة حاكم دمشق للصليبيين ضد عماد الدين زنكي حين

---

[31]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 216.

[32]: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، ص 239.

[33]: جمال فوزي، المرجع السابق، ص 220.

قصد الأخير دمشق [34]، بل إن ابن القلانسي لا يحرك قلما بالنقد واللوم، حين يحاصر الدمشقيون بانياس - إحدى مدن الساحل الشامي- ويفتحونا ويسلمونا إلى الإفرنج طعمة سائغة كجزء مما تقرر في الهدنة، ومن ملامح مدراته أيضا عدم ذكره للرأي الذي يتهم طغتكين بالتسبب في مقتـل مودود القائد الذي أنزل الهزيمة بالفرنج، ونظرا لطريقة ابن القلانسي الموجزة وعجلتـه في ذكـر الأحداث في اقتضاب وسرعة أحيانا كثيرة، فإن الغموض يصيب عباراته أحيانا [35].

رغم ذلك فإن مؤرخنا يعتبر مصدرا أصيلا وحجة في الفترة التي عاصرها خاصة، ويقـول عنه أحد الباحثين " وبالرغم من أن روايات ابن القلانسي تتميز بالإيجاز إلا أنا بتفردها وأسبقيتها الزمنية وتركيزها، تعد ذات أهمية كبيرة، خاصة وأن المؤرخ تولى منصبا رسميا في دمشق وعاصـر معظم الأحداث التي دونا في الأقسام الأخيرة من كتابه". ويقول آخر:" أمضى حياته في ديـوان الإنشاء بالبلاط الدمشقي، وارتقى فيه حتى صار رئيسا له، ولذا يعتبر ثبتا وحجة فيما كتـب، إذ حرص على أن يكون دقيقا وموضوعيا في كل ما تناوله إلا إذا تعرضت سمعة سيده للخطر، ومن خلال العرض السابق يبدو أن هذا الكلام يخالفه الصواب كثيرا، وتعظم أهمية الكتاب أيضا لكونه مصدرا أساسيا لتاريخ الحملة الصليبية الأولى [36].

يؤرخ مصنف ابن القلانسي لقرنين من الزمن هما من أهمّ القرون، وبالنسبة لكـثير مـن الأحداث هو المصدر المتفرد في هذين القرنين جرت أحداث الصراع القرمطي الفـاطمي علـى الشام، وأعقب ذلك الحكم الفاطمي للشام، وكان حكما لم يعرف الاستقرار لأسـباب داخليـة فاطمية، ولمقاومة أهل الشام لهذا الحكم، وابن القلانسي يروي لنا سيرة المقاومة الشـامية، وهـي سيرة لشعب دمشق وشعب الشام أجمع، سيرة لمنظمات هذا الشعب وفئاته الاجتماعية وقبائلـه، وسيرة لعمران دمشق وخططها، وهنا يقتضي أن ننوه أن هذه مزية تفرد با ابن القلانسي إلى أبعد الحدود [37].

---

[34]: نفسـه، ص 220.

[35]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المصدر السابق، ص 222.

[36]: نفسـه، ص 224- 225.

[37]: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، مقدمة التحقيق، المصدر السابق، ص ع.

لا يبدو على ابن القلانسي أيّ مشاركة فعلية في القتال، غير أنّ كتابه" ذيل تاريخ دمشق" يستأثر باهتمام استثنائي لكونه يقدّم رواية معاصرة لمصائر الصليبيين، بقدر ما وصلت أخبارهم إلى مسامع دمشق، منذ بداية الحملات الصليبية حتى سنة وفاته. ومع ذلك فإنّ العمل الأصلي لابـن القلانسي ما زال يحوي الكثير من المادّة التي لم يستعن بها المصنفون المتأخرون، كما ينطوي علـى العديد من المزايا الذاتية، ممّا سيجعله مصدرا لا غنى عنه لجميع دارسي الحملات الصليبية الباكرة في المستقبل [38].

الكتاب شهادة تاريخية بكل ما فيها من دلالات، وبقي من الكتب القليلة التي أخذت بعدا عالميا في دلالة التوثيق، ليس من حيث العرض والتصنيف فحسب، بل ومن حيث المنـهج الـذي اختطّه صاحبه، فمن خلال هذا الكتاب الذي كتب بالأصل ليخاطب العرب دون أدنى شك، إلا أنه بهذه الخصوصية التي أراد بها العرب ومخاطبتهم تجلت فيه مظاهر الرقي والوعي الحضاري الذي كان يميز الأمة الإسلامية آنذاك عن بقية الأمم. فاستخدم لغة سامية، تجلت في رسمه ملامح الصراع بدقة متناهية، حدد طبيعة الجغرافيا التي تقوم عليها المعركة، وقام بتقديم صورة القادة الإفرنج مـن خلال المعارك التي احتكوا فيها مع المسلمين، وتحدث عن قادة المسلمين في تلك الحقبـة، وكـان حريصا عند حديثه عن كل حاكم أن يصوّر نتائج حكمه منذ بدء ملكه [39].

وتجده دائما يربط بين أمرين اثنين في كتابته التاريخية، تحقيق العدالة- والنصر على الأعداء. وهي معادلة ثمينة قلما يمكن لرجل معاصر أن يكتب هذه الحقائق، فهو عاصر مجموعة من الأمراء المستبدين، وعاين الهزيمة في عصرهم ثم النهوض على أيدي أمراء آخرين مثل السلطان نور الـدين زنكي، وبدا من موقعه الذي كتب فيه أنه أراد من خلال كتابه، أن يكون رسالة للأجيال القادمة، فحواها أن النصر والعزة إنما تأتي بوجود العدالة.

---

[38]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي - دراسات في التاريخ الإسلامي**- بيروت، بيسان للنشر والتوزيـع والإعـلام، 1996، ص 42- 43.

[39]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام**، المصدر السابق، ص227.

4- السلطـان نـور الديـن زنكي، والتمهيـد لبـروز صـلاح الديـن

توفي ابن القلانسي عن عمر يناهز 84 عاما، لينهي في تلك السنة كتابه بالحديث عن رجل ظهر في الشرق اسمه نور الدين زنكي، صنع قواعد النصر وبدأ بتمزيق الدول اللاتينية الدخيلة. فبدأ الحديث عنه منذ سنة (1146/541) إلى سنة وفاته ونهاية كتابه سنة (1159/555)، وقد وردت أخباره مفصلة تعلقت بحروبه وفتوحاته، وما يجري معه، ملتزما بالدقة وذكر التفاصيل بطريقة تبدو متزنة، وبهذا يعتبر كتاب ابن القلانسي تاريخ دمشق من أوثق وأهم المؤلفات التاريخية عنت بالأحداث الكبيرة التي وقعت في بلاد الشام والأناضول ومصر بخصوص ما اتصل بالحملات الصليبية، وعصر نور الدين محمود، ورسم ابن القلانسي على الأقل نموذجا للكتابة التاريخية التي نقلت أخبار الحرب الصليبية الأولى والثانية ومهدت لكتابات تاريخية تالية أرخت بدورها لبطل مسلم ورث ملك نور الدين، وعاش وتربى في كنفه وهو صلاح الدين الأيوبي.

II- صاحب البستـان الجامـع: يـؤرّخ لصـلاح الديـن

من بين أهمّ المصادر المعاصرة الأولى لصلاح الدين الأيوبي كتاب "البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان"، لمؤلف مجهول مع أنه نسب للعماد الأصفهاني الكاتب، غطى صاحبه كامل حياة صلاح الدين بيد أنّ تناوله للأحداث ورد مختصرا إلى حد إقصاء الكثير من الأخبار التي جرت مع السلطان، واكتفى بإشارات في الغالب مع أهمية الأحداث دون أن يكلف نفسه عناء ذكر التفاصيل والتسلسل على الرغم من كثرة مصادره ومعاصرته للفترة التي أرخ لها.

لقد كان صاحب البستان الجامع ينظر لصلاح الدين على أنّه رجل عادي لذا أغفل الكثير من محطات حياته وإنجازاته، ولم يبد إعجابه ولا اعتراضه على أي عمل قام به صلاح الدين، إلاّ أن معاصرة المؤلف وشهادته على الأحداث تجعل الكتاب ضمن المصادر التي يرجع إليها وإن كانت غير متعمقة ومتخصصة.

1- المـؤلـف المجهــول !

من كُتب التراث المهمّة، التي تنتمي إلى المكتبة التاريخية، مؤلف يحمل عنوان: "البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان"[40]، يُنسب إلى القاضي « عماد الدين أبي حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، المعروف بالكاتب »، هكذا ورد اسم المؤلّف على الورقة الأولى للمخطوط، وفي الورقة الأخيرة منه، وقد وُصِف بـ « القاضي الأجلّ، العالم، العامل »[41].

والذي يتبادر إلى الذهن فوراً أن الكتاب من تأليف العماد الأصـفهاني المـؤرّخ والأديـب المعروف صاحب " البرق الشامي" و"الفتح القُدسي" كاتب السلطان الناصر صلاح الـدين الأيـوبي الأول، ومرافقه في غزواته وفي حله وترحاله[42]. يقوّي هذا الاعتقاد أنّ كتاب " البستان الجـامع" ينتهي بانتهاء حوادث سنة (1196/593)[43]، وقد أشير في أثناء الكتاب إلى أنّـه ألّـف في سـنة (1195/592)[44]، وهذا يدلّ على أن المؤلف كان يعيش قريباً من هذا التاريخ.

ومن يتصفّح الكتاب على عجل يظن لأول وهلة أن العماد الأصفهاني المشهور هو المؤلـف فعـلاً، استناداً إلى وجود اسمه على صفحة الغلاف من نسخة أحمد الثالث بإسطنبول، رقم 2959، وتقارُب تاريخ تأليف الكتاب وانتهائه مع تاريخ وفاة العماد[45].

وهذا ما توقّف عنده المستشرق الفرنسي كلود كاهن (Claude Cahen) عندما نشر القسم الأخير من الكتاب، وهو المتعلق بالحروب الصليبية، من سنة (1196/490) حتى نهاية سـنة (1196/593)[46].

---

[40]: نشر بتحقيق، عبد السلام تدمري، بيروت (1423-2002)، اعتمادا على مخطوطة أحمد الثالث بإستانبول رقم 2959، ومخطوطة بودليان بأكسفورد رقم 172.

[41]: **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان**، لمؤلف مجهول، مقدمة التحقيق، ص 05.

[42]: اسم العماد بالكامل: أبو عبد الله، محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أُلُـه، المعروف قديماً بابن أخي الوزير. وُلد بأصبهان سنة (1125/519)، وتوفي سنة (1200/597) بدمشق. راجع: ابن خلكان، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، بيروت، دار صادر، ج 5، ص 147.

[43]: **البستان**، المصدر السابق، ص 05.

[44]: نفســه، ص 454- 455.

[45]: نفســه، ص 6 و 536.

[46]: Claude Cahen, «Une chronique syrienne du VI/ XIIème siècle», *Bulletin d'études orientales*,. VII-VIII , (1937-38), p. 115-158.

غير أن من يقرأ الكتاب برَوِّيةٍ ويتأمل في أسلوبه ومنهجيته، والمعلومات التي يحتويها، وطريقة عرض المادة التاريخية، ويقوم بتحقيق نصه، سيصل إلى اقتناعٍ مؤكد بأن العماد الأصفهاني الكاتب المعروف لا علاقة له بتأليف كتاب " البستان " من قريب أو بعيد، وأن أحدهم انتحل اسم العماد ووضعه على صفحة الغلاف وَنَسَبه إليه ليَنفُق على الناس، نظراً لشُهرته [47].

في مكتبة بودليان بأكسفورد نسخة أخرى من الكتاب محفوظة، تحت رقم Hunt 172. وهي تحمل عنوان: " كتاب الروض الناضر في أخبار الأوائل والأواخر " كُتب على غلافها: « تأليف القاضي عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني »، وجاء في مقدمته، أنّه وصل إلى سيرة الملك محمد بن قلاوون الصالحي آخر سنة اثنين وسبعمائة [48]، والمعروف أن كتاب " الروض الناضر " هو لأبي الوليد محمد بن محمد بن الشِحنة، المتوفّى سنة (1477/882)، فكيف يُنسب للعماد الأصفهاني؟ وكيف يصل العماد بالكتاب إلى سيرة الناصر محمد بن قلاوون حتى أخر سنة (1302/702)، وهو قد مات سنة (1200/597) ؟ [49].

وفي الواقع أن نسخة أكسفورد هي نسخة ملفّقة، تضم في أولها نسخة أخرى من "البستان" حتى نهاية حوادث سنة (1196/593)، وبها تكملة بعد ذلك تصل إلى حوادث سنة (1403/806) وليس إلى سنة (1302/702) كما جاء في مقدمتها، وهذا يكشف زيف نسبة الكتاب إلى العماد الأصفهاني[50]. لأن الكتاب حافل بالألفاظ السقيمة والركيكة، والأخطاء النحوية واللغوية، وهو ما يتنافى مع أستاذية العماد في اللغة والنحو، ومادة الكتاب مليئة أيضا بالأخطاء التاريخية، وخاصة في

---

[47]: ناقش شاكر مصطفى هذا الأمر وذكر ما نصه... " وكان من الممكن، بسهولة، أن يُضاف هذا المؤلف إلى تراث العماد الواسع

إلا أنّه لا يوجد مصدر من المصادر التاريخية ذكر كتابا للعماد بهذا العنوان، ولا أسلوبه مماثل لأسلوب العماد الذي عرف عنه استعمال السجع خاصة في عنوان الكتاب، إضافة إلى الاختصار الشديد للأحداث، ومخالفة بعضها لروايات العماد المطوّلة خاصة المتعلقة بصلاح الدين الأيوبي. وقد عرف العماد بالكاتب في جل المكاتبات الرسمية ولم يذكر بلقب القاضي إلا في بعضها بخلاف ما ورد في كتاب البستان، وخاتمة الكتاب تكشف تحركات صاحبه الذي عاش في حلب، ثم في مصر، ولا يبدو أنّه يعرف دمشق. فلا يبقى إلا أن يكون المؤرخ مجهولا انتحل الاسم لينال به شهرة العماد الأصفهاني الكاتب انظر: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، 291/2 -292.

[48]: **البستان**، المصدر السابق، ص 07.

[49]: نفسه، ص 07.

[50]: نفسه، ص 08.

تواريخ وفيات الأعلام والمشاهير، بحيث يقدم تواريخ وَفَيات بعضهم، ويؤخر البعض الآخـر لعـدة سنوات عن التأريخ الصحيح، وأحياناً لعشرات السنين، وأحياناً أخرى لأكثر من قرن [51].

إن المؤرخ ابن أيبك الداواداري المتوفّى حوالي سنة (1336/737) ينقل حرفياً عن كتـاب "البستان " في مواضع كثيرة من موسوعته " كـ الدرَر وجامع الغُرر "، وخاصة في الجزء الخـامس: "الدرّة السنية في أخبار الدولة العباسية"[52]، والجزء السادس: " الدرة المضّية في أخبار الدولة الفاطمية "[53]، والجزء السابع: " الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أّيوب "[54]، ولم يذكر أنه ينقـل عـن العماد، بالرغم من أنه ذكر اسم كتاب " البرق الشاميّ " بين مصادره، وهو - حتماً - غير كتاب " البرق الشامي" المعروف للعماد[55]، لاختلاف الأسلوب والمضمون[56]. ويذكر الحافظ الذهبيّ المتوفّى سنة (1347/748)، في " تاريخ الإسلام ووَفيات المشاهير الأعلام " [57]، خبراً عن إرجاف المنجّمين بخراب العالم. وهو يصرّح بأنه ينقل عن العماد الكاتب الأصفهاني، والنص الذي أورده يختلف - لفظاً ومضموناً - عن النص المذكور في " البستان "[58]. وهذا يؤكد أن كتاب " البستان " ليس للعمـاد الأصفهانيّ الكاتب المعروف.

---

[51]: انظر على سبيل المثال لا الحصر، فقد جاءت وفاة مجاهد بن جبر المقرئ في سنة (762/145) ؛ والصواب أنه تـوفي سـنة (747/130). وجاءت وفاة سيبويه في سنة (1262/161)؛ والصحيح المشهور أنه توفي سنة (796/180). وووردت وفاة عبد الله بن شُبْرُمة القاضي في سنة (779/163)؛ والصحيح وفاته سنة (761/144). و غيرها من الأخطاء الكثيرة. تضمن الكتـاب أيضا عدة أخبار تدرج في خانة "أدب العجائب والغرائب"، مثل خبر زواج الإمام الشافعي من امرأة من اليمن لها رأسان وجسدان وغير ذلك، ولا ُيعقل أن يغلط العماد هذه الأغلاط الفاحشة وهو المؤرخ الثْبت الثقة، **انظر: البستان**، المصدر السابق، ص 140-145-146-151-157.

[52]: ُنشر بتحقيق دوروتيا كرافولسكي، بيروت، (1413/ 1992).

[53]: ُنشر بتحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، (1961/1380).

[54]: ُنشر بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972 م.

[55]: ُنشر منه الجزءان 3 و5 بتحقيق مصطفى الحّياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987 م.

[56]: **البستان**، المصدر السابق، ص 08.

[57]: ُنشر بتحقيق عبد السلام تدمري كاملاً في 52 مجلداً، دار الكتاب العربي، بيروت، (1996/1417) انظر: حـوادث سنة (1186/582) ص 10- 11- 13، وحوادث ووفيات (581 - 1185/590- 1193).

[58]: مال شاكر مصطفى إلى نسبة الكتاب إليه انظر: **التاريخ العربي والمؤرخون**، 291/2- 292.

إذاً، من هو مؤلف الكتاب؟. إنّه سؤال تصعُب الإجابة عليه حتى الآن، وسيظل اسمه لُغزاً، إذ ليس في الكتاب أي إشارة تدل عليه. ولا شيء يدل على أنه شخص آخر يحمل اسم عماد الـدين القاضـي الأصفهاني المتوفّى بعد سنة (1107/593) [59].

عندما صرّح ابن خلّكان بالنقل عن كتاب " البستان "، لم يذكر اسم مؤلفه، وهذا يعني أنـه كان مجهولاً لديه في القرن السابع الهجري، لوفاة ابن خلكان في سنة (1282/681) ، وهو ذكـر "البستان " في ترجمة أبي الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراونـدي، وقـد أرّخ وفاتـه في سـنة (859/245) [60].

وعاد ابن خلكان فاعتمد على " البستان " ثانية، وأشار إلى مؤلفه بقوله: « صاحب كتـاب "البستان"...»، وهو يؤرخ لوفاة أبي علي يحيى بن عيسى بن جَزْلة الطبيب، فقال: « وذكر صاحب "البستان الجامع لتواريخ الزمان " أن ابن جَزْلة مات سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة » [61]. وقد ذُكر ابن جزْلة فعلاً في " البستان " في السنة المذكورة [62].

إن من يطالع الكتاب ويقرأ ما جاء عن مدينة الموصل من أخبار، أكثرها يكاد يكون نـادراً، يظن أن المؤلف عراقيّ من أهل الموصل[63]، ومن يقرأ أخبار حلب يظن أن المؤلف حلبي، ومن يقـرأ أخبار مصر يظن أنه مصري، لتفرده بأخبار عنها لم يذكرها غيره، ولعله تنقّل بين العراق وبلاد الشام ومصر، والأرجح أنه إمّا من الشام أو من العراق، لاعتماده الأسماء السريانية للشهور، مثل حزيـران وتموز وغيره. فلو كان مصرياً، لاعتمد الشهور اليونانية أو القبطية[64]، وليس في الكتاب سوى إشارتين عن لسان المؤلف، دون الإفصاح عن اسمه، الأولى في المقدمة، حيث يقول: « فإنه سألني من يعزّ عليّ أن أنظم له تاريخاً مختصراً ليستريح به إليه في خلوته، وينشرح صدره بمطالعتـه، فأجبتـه إلى ذلـك

(59): **البستان**، المصدر السابق، ص 08.

(60): ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1972، 94/1، وقد توفي أبو حامد الإسفراييني سنة (1015/406).

(61): ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، المصدر السابق، 268/6.

(62): **البستان**، المصدر السابق، ص 455- 456.

(63): انظر، **البستان**، أخبار عن الموصل في سنوات 133 و135 و137 و138 و142 و150 و167 و171 و175 و177 و178 و179 و203 و214 و215 وغيرها.

(64): **البستان**، المصدر السابق، ص 10.

واعتمدت على الإعانة من الله تعالى والقبول له...»[65]. والموضع الثـاني، أثنـاء حـوادث سـنة (1183/579) عند الحديث عن العثور على خبايا مطمورة في ضيعة بوصير السّدْر من أعمال مصر القديمة [66].

كما ُيبدي المؤلف رأيه مرتين في ثنايا الكتاب. فهو يرى « فساد التواريخ لتقادُم زمنها وتغير الألسِنة » [67].

ويبدو أنه كان يميل إلى الأدب، ولكنه لم ينظم الشعر، أو على الأقل لم نر له شعراً في الكتاب، إنما هو يستشهد بأقوال بعضهم، كما في حـوادث سـنة (1183/579) [68]، وحـوادث سـنة (193/590) [69].

اعتمد المؤلف على عدّة مصادر في جمع مادته الخبرية، ومع ذلك فهو لا يصرح إلا بالنقل عن " تاريخ الرسل والملوك " المعروف بـ" تاريخ الطبري" [70]، و" بعض تواريخ أهل التوراة " [71].

ومن المؤكد أنه ينقل عن كتاب " المعارف " لابن قتيبة الديَنَوريّ، و" الطبقات الكبرى" لابـن سـعد، و"فتوح البلدان " للبلاذريّ، و" تاريخ سِنيّ ملوك الأرض والأنبياء " لحمزة الأصبهاني، و" الإنباء بأنباء الأنبياء " للقُضاعيّ [72].

ومن المحتمل أنّه اطلع على مصادر أخرى، ونقل عنها، إذ جاءت رواياتـه لـبعض الأحـداث والأخبار مطابقة لما جاء فيها، مثل: " تاريخ اليعقوبي" و" البدء والتاريخ " لابن طاهر المقدسي، وكتـاب "العنوان" المعروف بـ" تاريخ المنبجي"[73]، و" مروج الذهب " للمسعودي، و" صلة تـاريخ الطـبري" لسعيد بن البطريق، و" تكملة تاريخ الطبري " للهمذاني، و" أخبار مصر" لابن ميسّر، و" العيون والحدائق

---

(65): نفسـه، ص 51.

(66): نفسـه، ص 421.

(67): نفسـه، ص 54.

(68): **البستان**، المصدر السابق، ص 421.

(69): نفسـه، ص 454- 455.

(70): نفسـه، ص 67.

(71): نفسـه، ص 71.

(72): نفسـه، ص 11.

(73): نفسـه، ص 11.

في أخبار الحقائق " لمؤرخ مجهول، و" أنساب الأشراف " للبلاذُري، و" السير والمغازي " لابـن إسـحاق، و"السيرة النبوية " لابن هشام، و" الأوائل " للعسكري، و" تاريخ حلب " للعظيمي، و" تـاريخ الموصـل "للأزدي، وغيرهم[74].

في حوادث سنة (1192/589)، يذكر أنه « حُكي عن ابن العميد، عمّن سمعه، أنه ورد من ملك الحبشة كتاب إلى سيف الإسلام صاحب اليمن »[75]، ولم يوضح من هو ابن العميد. وهو غير المكين أبي المكارم جرجس ابن العميد (ت 1273/672). وفي سنة (1192/589) أيضاً يُثبت نص كتاب القاضي الفاضل إلى الملك الظاهر الأيوبي صاحب حلب بالتعزية بوفاة الناصر صلاح الدين[76]، ما يعني أنه كان على إطلاع بالمكاتبات الديوانية.

يتضح مما بين أيدينا من مادة تاريخية أن المؤلف واسع الاطلاع، دلّت عليه الشمولية في تناوله للأحداث في المشرق والمغرب على السواء. فهو يتناول أخباراً عن الهند وبـلاد خُراسـان والبلغـار والقُسطنطينية وبلاد الروم والعراق والحجاز وحضرموت واليمن، وبلاد الشام وقـبرص وأقـريطش وصقلّية ومصر والنّوبة و الغرب الإسلامي. وهذا التنوّع المكاني لمجريات الأحداث بمداه الأوسـع في آسيا وأفريقيا وأوروبا، يمثل التأريخ « العالميّ أو الجامع » في عصره[77].

كما يظهر جلياً انعتاق المؤلف من أسلوب الإخباريين الحديثيين الذين يعتمدون على الأسانيد، كما هو الحال عند الطبري وغيره، بل هو لا يجد غضاضة في تضـمين الكتـاب مـن "الغرائـب والعجائب، والطرائف والنوادر"، وهو يُضْفي من حين لآخر لمسة مُسلية على الكتاب، ليخفّف على قارئه من الالتزام الصارم بسرد الحوادث والوفيات. ويهتم كثيراً بأخبار الظواهر الطبيعيـة، وأخبـار الكوارث من غلاء ووباء وطوفان وسيول وزلازل وأمطار وكسوف وخسوف وسـقوط شـهاب وقحط وزيادة مياه النيل وانخفاض منسوبه، وتغير لونه وانخساف الأرض، وغير ذلك، فضـلاً عـن اهتمامه بالأبراج الفلكّية[78].

---

(74): نفســه، ص 10.

(75): نفســه، ص 446.

(76): **البستان**، المصدر السابق، ص 444.

(77): نفســه، ص 12.

(78): نفســه، ص 12.

2- مـادة الكتـاب ومنـهجيتـه

تتناول مادة الكتاب تاريخ البشرية منذ البداية حتى سنة (1196/593). واسُتهلّ الكتـاب بمقدمة قصيرة لخص فيها المؤلف مضمونه، فابتدأ بتاريخ الأنبياء من آدم ـ عليه السلام ـ إلى مولـد النبي وصفته، ثم هجرته، وسيرته سنة بعد سنة، وما جرى في كل سنة من حوادث وأمور[79]، ويذكر الوفيات في سياق الحوادث دون توسع في الترجمة، وغالباً ما يكتفي باسم صاحب الوفاة، وهو يؤرخ للحوادث والوفيات سنة بعد سنة، على طريقة الحولّيات التي تعتمد على السرد دون ربط الحـوادث ببعضها وتعليلها، وتقتصر بعض السنوات على ذكر الوفيات فقط[80]، ولا تزيد الترجمة على سـطر واحد إلاّ فيما ندر. وعندما يذكر وفاة أحد الخلفاء أو السلاطين، يكتفي بذكر مدة حكمه فقط، ثم يذكر الذي خَلَفَه؛ وكثيراً ما يخطئ في تواريخ الوفيات، وكذلك في التأريخ لبعض الحوادث [81]

---

[79]: كعهد الخلفاء الراشدين وما جرى في أيامهم من فتوحات، ومن توفي من الصحابة، سنة بعد سنة. ومثل ذلك في عهد الخلفاء الأمويين، ثم العباسيين من بعدهم، ويغلب ذكر الوفيات على الحوادث في المرحلة الأولى من العصر العباسي، كل ذلك باختصـار وإيجاز شديدين، ولا يخلو الكتاب من ذكر لبطارقة الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية، وحملات الروم إلى بلاد الشام ومصر، برّاً وبحراً، وقيام الدولة الفاطمية في مصر وأخبار خلفائها، وزوال الدولة السامانية، وأخبار السلاجقة والترك، وأخبار الزّنج، والمصامدة، وبني مرداس، الجماعات العلوية، والإسماعيلية، والدروز، واستيلاء الفرنجة على بيت المقدس وسواحل الشام، وجهاد الناصر صـلاح الدين الأيوبي، وإسقاطه للإمامة الفاطمية في مصر، وفتوحاته، مع الإحاطة بأخبار متفرّقة عن بلاد النّوبة، الغرب الإسلامي، وغـير ذلك من أخبار الهند وبلاد الروم، وجُزُر البحر المتوسط حتى اليمن وحضرموت. **انظر**: **البسـتان**، ص 94، 100، 159، 230، 252، 413، 445.

[80]: انظر على سبيل المثال: **البستان**، المصدر السابق، ص 196، سنة (884/271)، وص 200 سنة (891/278).

[81]: ولقد أراد المؤلف أن يكون الكتاب مختصراً قدر الإمكان، كما ألمح إلى ذلك في أكثر من موضع. ولهذا ترك ما مجموعه 45 سنة خالية من الحوادث والوفيات، هي سنوات 17 و47 و89 و111 و115 و118 و122 و128 و147 و149 و151 و165 و166 و172 و185 و191 و195 و198 و227 و234 و235 و238 و243 و244 و248 و274 و282 و295 و308 و341 و352 و371 و400 و410 و436 و447 و484، واقتصرت أخبار بعض السنين على كلمتين فحسب كما جـاء في سـنة (647/27) فقد ذكر هذه الجملة فقط غزوة أفريقية ؛ أو ثلاث كلمات كما في سنة (662/42) مولد الحجّاج الثقفي وسنة (663/43)، وفاة عمرو بن العاص؛ أو أربع كلمات،كما في سنة (71و 79و 109و 257 و 690 و 698، 727، 870)، أو خمس كلمـات كما في سنة (903/291). وفي بعض السنوات سطر واحد أو اثنان أو بضعة أسطر، وهذه الضحالة في المادة التاريخية في النصف الأول من الكتاب تصبح موفورة وغزيرة في القسم الثاني منه، وخاصة في السنوات المتأخرة منه، وهي التي عاصرها المؤلف، بحيث بلغـت في سنة (1191/588) ، أقصى حدودها 76سطراً. **البستان**، ص 99، 107، 119، 123، 135، 189...إلخ.

3- أحداث موجزة تحكي سيرة صلاح الدين

ابتدأ صاحب البستان كتابة تاريخه على طريقة الموضوعات قبل بداية التاريخ الهجري، الـذي اعتمده في باقي مؤلفه على الطريقة الحولية فأرخ للسلطان صلاح الدين في معرض حديثه عن الأيوبيين مع بداية سنة (1168/564) "مبدأ ملك بني أيـوب"[82]. غـير أن أول ذكـر لـه كـان سـنة (1166/562) لمـاّ ولي الإسكندرية من طرف عمّه شيركوه، وعقده الصلح مع الملك عموري الأول (Amaury 1er)[83] في السنة ذاتها.

حديث صاحب البستان عن وزارة صلاح الدين ورد مقتضبا للغاية، فقد اكتفى بعنوان صـغير دون تفاصيل انتقال الوزارة إليه من عمه المتوفى، وهو النهج نفسه الذي اتبعه أيضا عند حديثه عن قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد سنة (1171/567)، الذي استولى صلاح الدين على قصوره والذخائر التي تحويها على حدّ قوله[84]، في حين لم يتعرض لتفاصيل المؤامرة التي حيكت من طرف المصريين ضد صلاح الدين نتيجة محاولتهم إعادة الخطبة للفاطميين[85]، وعمد صاحب البستان في هذه السنة كما في سابقاتها وما تلاها إلى استعمال لفظ وفيها (أي السنة) ثم يذكر الخبر في شكل عنـوان ولا يزيـد في الغالب.

لم يسلّط صاحب " البستان " في حديثه عن جهاد صلاح الدين الضوء على حملاته العسـكرية واكتفى بذكر عناوين فقط حول فتحه للحصون والبلاد، وخوضه الوقائع والمعارك، خلت جُلها مـن تفاصيل ما جرى من أحداث على الأرض، ما جعل المؤلف لا يبتعد عن المؤرخ الجامع الذي لمُ يـدل بدلوه فيما دوّنه من أحداث[86]، والمتأمل في السنوات السابقة لسنة (1181/577) يجد نوعـاً مـن الأحداث الموجزة تفتقر للشرح والتفصيل، أمّا بخصوص سنوات ما بعد (1181/577) يبدأ صـاحب

---

[82]: **البستان**، المصدر السابق، ص 397، من المؤرخين الذين انفردوا برواية أحداث خاصة عن نشأة صلاح الدين وإخوته، "ابن أيبك الدّواداري (ت 1313/713) صاحب كتاب" **كـ الدرر وجامع الغرر**" ج7، الذي عنونه بـ:"**الدرّ المطلـوب في أخبار ملوك** بني **أيّوب**"، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ص 6- 7.

[83]: انفرد صاحب البستان في ذكر طلب شاور من ملك بيت المقدس عموري تسليمه صلاح الدين بعد الصلح أثناء دفاعـه عن الاسكندرية. انظر: **البستان**، ص 393.

[84]: **البستان**، ص 397، 401.

[85]: نفســه، ص 402، 403.

[86]: نفســه، ص 403، 404، 405، 406، 407، 408....إلخ.

"البستان" التوسع في رواية أحداث الوقائع، وهذا دال على شهادته على الأحداث التي جرت مع صلاح الدين، وقربه من مكان وقوعها [87].

لا تكاد تخلو سنة في كتاب "البستان" من ذكر بعض الوفيات في آخرها [88]، دون الخوض في التفاصيل. يذكر الشخصية والسنة ولا يزيد على ذلك إلا إذا كانت شخصية مهمة فإنه يخصص لها بعض الأسطر القليلة [89]، وكان صاحب "البستان" بين الحين والآخر يخرج عن سياق الأحداث التي تخص صلاح الدين ليحدثنا عن ما أصاب حلب من زلازل وكسوف للشمس، وبعض الأخبار الغريبة [90]، والمتفحص الحصيف لكتاب" البستان " يجد أن المؤلف قد ألزم نفسه في كامل كتابه الاختصار الشديد للأحداث ما جعلها تبدو غير متصلة ببعضها؛ خاصة الأحداث التي تدور في فلك ما جرى مع صلاح الدين الأيوبي.

شكلت أخبار صلاح الدين في كتاب" البستان" جزءا مهمّا في حلقة الأحداث التي عاصرها المؤلف، غير أنّه لم يذكر مصادره التي نقل عنها فيما يتعلق بذه الأحداث، لكن المتأمل في روايته لأخبار اجتماع عساكر الموصل وماردين وشاه أرمن ضد صلاح الدين يجد أنّها تتوافق ورواية عز الدين بن الأثير، كما تتماثل أخبار هزيمة عساكر الموصل في مقابلة السلطان الناصر مع رواية العماد الكاتب من حيث مضمونا [91]، أمّا من حيث الشكل فلا يختلف أسلوب هذه الرواية عن باقي الروايات الأخرى في الكتاب ككل، والذي يمكن وصفه بالأسلوب السهل المباشر الخالي من التعقيد؛ بل يُعتقد في بعض الأحيان أن صاحب "البستان" لا يبتعد عن مبتدئ في مجال الكتابة التاريخية.

من بين الأخبار التي نلحظ فيها غيابا تاما للمحطات الكبرى والتفاصيل على أهميتها في ملامح العصر، فتح صلاح الدين لبيت المقدس، الذي لم يخصص له صاحب" البستان" غير سطر كعنوان

---

[87]: **البستان**، المصدر السابق، ص 416، إلى 453.

[88]: ممّا تفرد به هنا ذكره الشخص المتوفى أحيانا وكتاب من الكتب التي ألفها في حياته. انظر: **البستان**، ص 441.

[89]: مثلا حديثه عن وفاة ابن المقدم وهو من كبار قادة نور الدين زنكي، ووفاة السلطان صلاح الدين.انظر: **البستان**، ص 432، 444.

[90]: من بين الأخبار الغريبة التي رواها أن امرأة ولدت غرابا.انظر: **البستان**، ص 399، 402، 416.

[91]: قال ابن الأثير أن اجتماع هذه العساكر ضد صلاح الدين أخافته، وفي الرواية الثانية هزيمة عساكر الموصل في مقابلة صلاح الدين قال العماد أن جيش المواصلة بلغ (21000) فارس، وهي الرواية التي فندها ابن الأثير برجوعه إلى وثيقة في ديوان الجيش الذي كان يتولاه أخوه مجد الدين بن الأثير. انظر: **البستان**، ص 409، 418.

للحادثة، يضاف إليه أخبار فتوحات صلاح الدين في بلاد المغرب حين أورد إشارات ضئيلة لا تفسر حملات بذل فيها أتباع السلطان الناصر الجهد لبسط النفوذ باتجاه مجال جغرافي جديد.

وردت أخبار الفتوحات التي تلت فتح بيت المقدس مختصرة للغاية خاصة ذكر المناطق وتفاصيل الأحداث، وهذا ما غيّب كثيرا بيان توجهات المؤلف، الذي يبدو ملمّا بالأحداث على اختلافها خصوصا التي عاصرها، على الرغم من ذلك فقد أخلّ الاختصار الشديد الذي انتهجه المؤلف بالربط بين الأحداث السياسية والعسكرية منها (92).

إن مجمل الأخبار المتعلقة بصلاح الدين في كامل كتاب "البستان" رواها المؤلف اعتمادا على مشاهدته للأحداث في أكثر الأحوال، غير أنه انفرد في بعض الأخبار عن باقي المؤرخين (93)، لكنّه لم يضف شيئا مميزا أو خارجا عن النطاق العام للأحداث التي ذكرها غيره من المختصين في الكتابة عن السلطان الناصر، ولا يظهر صاحب" البستان " من مختلف الأحداث التي رواها أنه كانت له رؤية خاصة لصلاح الدين، فقد كان ينظر إليه على أساس أنّه سلطان عادي، ويبدو ذلك من خلال الأحداث السطحية التي لا تجعل من كتاب " البستان " مصدرا رئيسيا يعوّل عليه في مراجعة الكتابة التاريخية حول صلاح الدين الأيوبي.

---

(92): **البستان**، المصدر السابق، ص 379.

(93): من بين هذه الأحداث قضية السودان الذين ثاروا على صلاح الدين فكتب إلى ولاة الحرب بأن يقتلوا كل أسود تقع العين عليه في جميع الجهات، واشتراط صلاح الدين في صلح الرملة أن تكون الأيمان بين الإفرنج وأولاده. **انظر: البستان**، ص 400، 444.

III- المنصـور محمـد: ملك أيـوبـي يـروي سيـرة صـلاح الديـن

يُعتبر كتاب "مضمار الحقائق وسر الخلائق" لصاحبة المنصور محمد والي حماة من بين أكثر المصادر أهمية في التأريخ لحياة صلاح الدين الأيوبي، نظرا لما اشتمل عليه من فترات مهمة من حياته ما بين (575-1179/582-1186) ، ولكون مؤلفه قد شاهد الأحداث عن كثب، واعتمد إلى جانب ذلك على الوثائق الرسمية الصادرة عن الديوان، إذ مكانة صاحبه السياسية بين أبناء البيـت الأيوبي سمحت له بالوصول إلى هذه الوثائق ومن مصادرها الأصلية، ليقدم لنا مادة مهمة أضافت أحداثا وتفسيرات مخالفة لما ذهبت إليه المصادر الأخرى. مع أن كتاب المضمار لم يلق الشهرة التي لقيتها مؤلفات معاصرة له مثل سيرة ابن شداد، وكتاب الفتح والبرق الشامي للعمـاد الكاتـب، وكذا كتاب الكامل لابن الأثير وعدم اعتماد بعض القدماء والمحدثين عليه إلا أن المنصور محمد قد استفرد في مؤلفه بتفاصيل لم ترد في واحد من هذه المؤلفات.

1- المنصـور محمّـد: مـن النيابـة في مصر إلى ولايـة حمــاة

محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب[94]، اشتهر بتقريبه للعلماء[95] سمع الحديث بالإسكندرية من السلفي، وكان في خدمته أثناء ولايته لحماة ما يناهز مائتي من الفقهـاء والأدباء والنحاة والكتاب [96].

سكتت المصادر كلها عن تحديد سنة مولده، كما لم تشر إلى سنوات حياته الأولى، ويبدو أنه ولد عام (1171/567) ومات في ذي القعدة سنة (1220/617) عن (خمسين سنة)، حسب

---

[94]: والد المنصور وهو صاحب حماة المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب وهـو ابـن أخـي السلطان صلاح الدين ولد (1139/534) و له مواقف مشهورة مع الفرنج، ناب عن عمه صلاح الدين بالديار المصرية سنة (1182/578) ثم استدعاه عمه إلى الشام فغضب لذلك فطيب السلطان وجماعة خاطره، ولما وصل الشام أعطاه عمه حمـاة وأعمالها، وكان يحضى بمكانة خاصة عنده، وجعله كفيل ولده الملك المظفر عثمان بوصية سلطانية، توفي وهـو عائـد مـن ميافارقين إلى خلاط في سنة (1191/587)، و كتم صلاح الدين وفاته عن الناس خشية أن يعلم العدو الذي كان يخشـاه، وحزن عليه الناصر حزنا شديدا. **انظر**: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 456/3.

[95]: أبو شامة، **مذيل الروضتين، أو (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)**، نشر محمد زاهد بـن الحسـن الكـوثري، بيروت: دار الجيل، 1974، ص 124.

[96]: الذهبي شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، بشار عوّاد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405، 259/22.

ما أورده بعض من ترجم له، وكان ولوعا بالأدب والشعر بل كان هو نفسه ينظمه [97]، واقتصر من ترجم له في الغالب الأعم على ذكر المشهور من أخباره دون التطرق لحياته السياسية. جمـع تاريخا على السنين عرف بمضمار الحقائق وسر الخلائـق، أشـار إليـه حـاجي خليفـة (ت 1656/1067) في كشف الظنون ووصفه بالنفاسة وقال: (توهم لبعض المؤرخين فأسند تأليفـه إليه وإنما صنفه رجل من علماء عصره كما هو المفهوم من المختصر وصاحبه أعلـم بحالـه) [98]، وانفرد صاحب كشف الظنون بهذا الحكم عن سائر المصنفين، لكن لفـظ والـدي، وإشـارات المنصور لنفسه في مواضع مختلفة تثبت عكس ذلك.

أما أبو شامة المقدسي (ت 1266/665) فقد نسب المضمار لمحمد بن تقي الدين عمـر حيث قال:[99](وصنف كتابا سماه المضمار جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه وأقـام عنده في عشر مجلدات)، وقال: أبو الفداء صاحب المختصر (ت 1331/732) [100](صنف عدة مؤلفات مثل المضمار في التاريخ)، ثم جاء بعده شمس الدين الذهبي (ت 1347/748) [101] الذي نقل قول شهاب الدين القوصي حيث قال: قرأت عليه (يعني الملك المنصور) قطعة مـن كتابـه مضمار الحقائق وسر الخلائق، في حين لم يضف ابن شاكر الكتبي (ت 1362/764) [102] زيادة تذكر على ما أورده الذهبي في سير أعلام النـبلاء، كمـا أشـار ابـن العمـاد الحنبلـي (ت 1678/1089) [103] في الشذرات: إلى أن صاحب حماة الملك المنصور جمع تاريخا على السـنين في مجلدات.

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه أن المقريزي المؤرخ (ت 1441/845) لم يشر قـط إلى مؤلف من مؤلفات المنصور محمد مع أنه اقتبس منه، وربما كان سر هذا الصمت عن كتب المنصور

---

[97]: المنصور محمد، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، مقدمة المحقق (حسن حبشي)، القاهرة، عالم الكتب، ص و.

[98]: حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، 1102/2.

[99]: أبو شامة، **مذيل الروضتين**، المصدر السابق، ص 124.

[100]: أبو الفداء، **المختصر** في **أخبار البشر**، 152/3.

[101]: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، المصدر السابق، ص 142.

[102]: ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، رقم الترجمة 489، 12/4.

[103]: ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب** بيروت، دار الكتب العلمية، 125/3.

عند المقريزي أن أحداث العصر السياسية واضطراباته كانت هي شاغل صاحب السلوك من حيث التدوين حتى لقد طغت على ما سواها، وكان ذلك الصمت حظ وفيات هذه الحقبة عنده [104].

أما كتابه الآخر فهو طبقات الشعراء «واسمه أخبار الملوك ونزهة الممالك والملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية و المخضرمين والإسلاميين والمحدثين وذكر مختصر مـن أخبـارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء إلى هذا الزمان والأوان» في عشر مجلدات [105]، وجمـع من الكتب ما لا مزيد عليه [106]، وحفظ المسلمين في حماة يوم هاجمها الفـرنج (1204/601). توفي الملك المنصور في ذي القعدة من سنة (1220/617) بحماة [107].

لقد وردت سيرة الملك المنصور مقتضبة في كتب السير و التراجم فلم تـزد علـى ذكـر مصنفاته وسنة وفاته وبعض الأخبار حول مشاركاته في الحروب والسياسة [108]. هذا الغمـوض الذي اكتنف حياته على الرغم من المكانة السياسية التي تبوأها بولايته حماة، مرده أساسا لأحداث العصر السياسية والاضطرابات التي شهدها البيت الأيوبي بعد وفـاة الناصـر صـلاح الـدين، والخلافات التي نشبت بين أبنائه وأخوه الملك العادل، وما تلاها من تفكك للوحـدة السياسـية للأيوبيين، وتراجع مركزية الحكم، فانشغل بذلك أغلب المؤلفين بالتأريخ للحروب والصـراعات والأطراف الفاعلة فيها، في حين لم تحظ وفيات الفترة والأحداث الصغيرة بقسط وافر من الكتابة، وبخصوص الكتب التي اختصت بالتأريخ للأيوبيين، فإنا لم تفصل في إيراد حديثها عـن نشـاطه

---

(104): المنصور محمد، **المضمار**، مقدمة التحقيق، ص، و.

(105): توجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة ليدن بولندا تحت رقم 884، **انظر:** كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العـربي**، المرجع السابق، ص 43. أملى مؤلفه هذا في دار المزّة من قلعة حماة في مجالس آخرها سنة (1205/602)، أي قبـل موتـه بخمس عشرة سنة، ويستدل من تصفح المؤلف على أنه معجم للشعراء، وفيه الكثيرون ممن طواهم النسيان لضياع آثارهم لولا ما ذخره كتاب الطبقات في ثناياه، انظر: **المضمار**، مقدمة المحقق، ص ز.

(106): ابن شاكر، **فوات الوفيات**، المصدر السابق، ص 12.

(107): ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم، **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**، تحقيق حسنين محمد الربيع، القـاهرة، دار الكتب العلمية، 1972، 77/4.

(108): من المصادر التي ترجمت له **انظر**: ابن خلكان، **الوفيات**، 457/3، أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص 142، ابن شـاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 12/4، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 260/22، ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** في **أخبار مـن ذهب**، 125/3، وغيرهم.

السياسي، على أنه هو نفسه أشار في مؤلفه إلى مشاركته في بعض الحروب مع صـلاح الـدين ووالده المظفر تقي الدين عمر.

استعمل المنصور محمد في مؤلفه ضمير المتكلم للأخبار عن تواجده وتحركاته في مواضـع مختلفة كانت أغلبها برفقة أبيه الذي أشار إليه كثيرا بلفظ (والدي) وكان يحرص على ذكـره في أغلب الأحداث التي ساقها [109].

بحلول سنة (1184/580) ناب المنصور عن أبيه بمصر، لما توجه للمشاركة في حملة ضـدّ الكرك بسبب طلب صلاح الدين مساندة جيش مصر في حروبه بالشام فيقول « وكنت نائبه بمصر وبلادها إلى أن رجع إليها» [110].

إن جملة النصوص التي أوردها صاحب المضمار في إشارته لنفسه كانت باستعماله ضـمير المتكلم، عدا نصيين صرح فيهما بطريقة مباشرة تواجده رفقة أبيه و السلطان صلاح الدين، ومـا تعلق بولاية المنصور محمد لحماة لا نجد في المضمار نصوصا تخبرنا بذلك، لأن ما في أيدينا اليوم من قطعه تتوقف في سنة (1186/582) وفيها كان ما يزال أبوه المظفر على قيد الحياة، وقد يكـون أرخ لفترة حكمه في الأجزاء المفقودة من مؤلفه.

ملك المنصور محمد حماة بعد وفاة والده الملك المظفر وجرى خلاف بينه وبين السـلطان صلاح الدين انتهى بالصلح وإبقائه على ما كان تحت يد والده[111] وهذه الأحداث هي ما سجلته

---

[109]: أولى هذه الإشارات كانت في ذكر غزوة " دبورية " بلد قرب طبرية من أعمال الأردن، ياقوت الحمـوي، **معجـم البلدان**، 437/2. حيث قال: « لما تحقق للفرنج رحيلنا من مصر بالعساكر» ، وهناك إشارات أخرى تؤكد تواجده في عسكر صلاح الدين كقوله:" وخيمنا بمرج عدوسة أياما، ورحلنا إلى حمص...ثم رحل السلطان منها قاصدا حماة وكانـت لوالـدي الملك المظفر وكنا معه" **انظر: المضمار**، المصدر السابق، ص 94.

[110]: المنصور محمد، **المضمار**، المصدر السابق، مقدمة التحقيق، ص هـ ، و.

[111]: كان ذلك باستيلائه على البلاد الجزرية بغير إذن السلطان وأرسل إليه يطلب تقريرها عليـه، إلا أن السـلطان رأى في هذه الخطوة استهانة بسلطانه وخروجا عليه فعهد إلى ابنه الأفضل أن يزحف على الثائر الصغير وكتب إلى أصـحاب الـبلاد الشرقية كالموصل وسنجار وديار بكر بنجدة ولده، فقرر المنصور إصلاح ذات البين وتوسط له الملك العادل عند صلاح الدين الذي أبقاه على ما كان بيد أبيه في بلاد الشام حماة، والمعرة، سلمية، منبج، وقلعة نجم وهي من أعمال الجزيرة، وأخـذ منـه البلاد الجزرية، وكانت إقامته في حماة حاملة له على بناء جسر بظاهرها خارج باب حمص" **انظر: المضمار**، مقدمة التحقيـق، ص هـ ، و.

الكتابة التاريخية التي وجدناها في الكتب المختصة بالتأريخ للأيوبيين، أو التالية لها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري حول حياة محمد المنصور السياسية.

2- مضمار الحقائق وسرُّ الخلائق: تاريخ حولي في طابع أدبي

يقع كتاب المضمار على حد قول من أشاروا إليه من المؤرخين في عدة مجلدات أوصلها بعضهم إلى عشرة [(112)]، ولكن ما بين أيدينا لا يشمل إلا سنوات قليلة ما بين (575-1179/582-1186) ويستدل من صفحاته الأولى و الصفحتين (41، 115)ونهايته أن هناك أقساما منه سابقة لما وصلنا وفي وسطه وآخره قد ضاعت، فالمنصور الذي عاش خمسين سنة كان معاصرا لأكثر الأحداث التي رواها و ليس هناك ما يؤكد أن سنة (1179/575) هي حقا بداية الكتاب، ولا سنة (1186/582) هي نهايته لانقطاع الكلام وعدم التصريح بنهاية النص، وإن أشار المنصور في مضمون الكتاب إلى فترة نهايته بقوله « خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه...، وأختم به كتابي هذا الموسوم كتاب المضمار» [(113)].

لم يذكر المنصور الزمن الذي بدأ فيه كتابة تاريخه، ولا حدد السنة التي انتهى إليها بل حصرها في فترة خلافة الناصر لدين الله (575-1179/622-1225). إلا أن ورود بعض العبارات[(114)] في ثنايا الكتاب ستعيننا على حصر زمن الكتابة دون الوصول إلى الجزم بتاريخ معين، و تتمثل هذه العبارات في علاقة الترتيب الكرونولوجي لأحداث المضمار، بترحم الملك

[(112)]: انظر على سبيل المثال، أبو شامة، **مذيل الروضتين**، ص 124 .

[(113)]: المنصور محمد، **المضمار**، المصدر السابق، ص 4.

[(114)]: الموضع الأول الذي نسترشد من خلاله معرفة تاريخ الكتابة هو عندما يقدم المنصور على ذكر سبب غيبة أبيه عن وقعة مرج عيون فيقول: « ذكر سبب غيبة والدي الملك المظفر سقى الله عهوده الرضوان» انظر: **المضمار**، ص 18. و هذا النص يؤكد أن هذا الجزء كتب بعد سنة (1193/589)، و يظهر لنا بوضوح في موضع آخر من ترحمه على والده وحنينه إليه عند حديثه عن وفاة الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب: « فكتب إلي والدي الملك المظفر- رضوان الله عليه- رسالة وكنا حينئذ بحماة » **انظر**: **المضمار**، ص 60. إن كتابه هذا ألفه بعد وفاة والده أيضا سنة (1193/589)، ويتأكد هذا الاتجاه بجلاء حين يضيف عبارة ترحم في الصفحة (154) عند تقليد صلاح الدين والده مصر وأعمالها فيقول: « ذكر ولاية والدي الملك المظفر- رضوان الله عليه- مصر وأعمالها » **انظر**: **المضمار**، ص 154.

المنصور على والده، مما يؤكد لنا أن ما حفظ من الكتاب كتب معظمه بعد وفاة الملك المظفر سنة (1193/589) وهي السنة التي أجمع [115] على وفاته فيها.

إن النصوص التي يمكننا الجزم بوقت تدوينها بعد سنة (1193/589) هي ما بين الصفحة (18و154) وما عداها من الأجزاء الضائعة السابقة لما وصلنا ليس في أيدينا ما نستند إليه لتحديد زمن كتابتها وإن كان الراجح أن الأجزاء اللاحقة لسنة (1186/582) كتبها عندما كان ملكـا لحماة لأنه أقرّ على ما كان لأبيه من البلاد بمجرد وفاة والده، وبقي ملكا لحماة حتى تاريخ وفاته في ذي القعدة سنة (1220/617)، ولا نعلم إن كان مكان التدوين مدينة حماة وأعمالها أو بلادا أخرى، وما تعلق بدوافع المنصور لكتابة تاريخه، وحاله أثناء التدوين، والوقت الذي استغرقه في التأليف لا نجد إشارات في المضمار وغيره تخبرنا بذلك.

3- مصـادر الكتـاب: المشاهـدة – الوثـائـق – الروايـة

اتكأ المنصور في تشكيل مادته الخبرية وبنائها على المشاهدة والمشاركة أحيانـا في بعـض الأحداث التي رواها، والنصوص والمراسلات بين الحكام، وكذا مصادر لا يصـرح باستعمالها والأخذ عنها، وقسم كتابه – الذي وصلنا- إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يشتمل علـى أخبـار الخلافة وبغداد، والثاني صلاح الدين وما تجدد له من الغزوات والحروب في مصر والشام، والثالث الذي تفرد في تفصيله عن باقي مؤرخي الفترة ذكر حملة قراقوش المظفري على المغرب ، وبعـض الأخبار عن الموحدين [116]، ولم تكن هذه الأجزاء منفصلة في الكتابة عنها بل بشكل متـداخل على طريقة التأريخ الحولي، وهو المنهج الذي اتبعه غالبية مؤرخي عصره [117]، يذكر السنة ومـا جرى فيها من أحداث لا رابط بين أحداثها سوى عقد الزمن.

---

[115]: أجمعت المصادر التي ترجمت له على السنة التي توفي فيها وهي (1193/589) من بينها مثلا ابن خلكان، **الوفيـات**، 142/4، ابن شداد، **النوادر السطانية والمحاسن اليوسفية**، ص 111.

[116]: يتعلق هذا الخبر بخصوص ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، ولم يرد في كامل المضمار خـبر آخـر مباشر عن الموحدين، **انظر**: **المضمار**، ص 201.

[117]: من بين المؤرخين الذين اعتمدوا هذا المنهج ابن الأثير في **الكامل**، وابن الجوزي في **المنتظم**، وسبط ابن الجوزي، **مـرآة الزمان**، ابن واصل، **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**، المنصور محمد، في **المضمار**، وغيرهم كثير.

تنوعت الوثائق التي اعتمد عليها المنصور بحيث اشتملت على الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء إلى الحواضر والولايات وأقاليم الدولة والمنشورات، والسجلات والأحكـام والفتـاوى، ونصوص المعاهدات، والمخالفات وعقود البيع والشراء، وهي إما وثائق رسمية صادرة عن السلطان أو الأمير، أو شخصية كالمكاتبات والاتفاقات الفردية [118]، وقد أكثر صـاحب المضـمار مـن استعمال هذه الوثائق التي زادت أخباره أكثر قوة وتفصيلا، مما يجعلنا أكثر ثقة بما يرويه، ولنا هنا أن نذكر هذه الوثائق والمراسلات في الجدول التالي:

[118]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام،** المرجع السابق، ص 39.

المرسل	المرسل إليه	موضوع الوثيقة	الكاتب
- الملك المظفر تقي الدين عمر	- السلطان صلاح الدين	- بخصوص بيت الأحزان و هو حصن بناه الفرنج يستشيره في ما يفعل تجاه الصلبيين ينفق لهم المال ليهدموه أم يجبرهم على ذلك.	---
- السلطان صلاح الدين	- للخليفة الناصر ببغداد (الديوان العزيز)	- في ما يتعلق بغارة قام بها عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان على صفد وهي قلعة للداوية.	---
- السلطان صلاح الدين		- شكر الديوان العزيز على التشريفات التي أرسلت له من دار الخلافة.	---
- " " " "	- للخليفة ببغداد	- يأمره بمساعدة ابن أخيه تقي الدين عمر، الذي أمره السلطان بالقدوم من مصر إلى الشام حين علم بوفاة صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل (1181/577)	---
- الخليفة الناصر لدين الله	- الأمير معين الدين عبد الرحمان بن أنر صاحب الراوندان (119)	- مشاورات بخصوص عدم استخدام كتاب من أهل الذمة.	---
- السلطان صلاح الدين	- موظفو الديوان	- اجتماع المواصلة وحلفاؤهم على حرب السلطان سنة (1356/758)	- القاضي الفاضل
- " " " "		- فصول متفرقة للتهنئة بفتح آمد (120).	
- " " " "	- الخلافة (الديوان العزيز)	- البشارة بفتح حلب وملكها سنة (1183/579)	---
- " " " "	- بعض أمراء الأمصار	- نسخة المنشور بتقليد الملك المظفر مصر وأعمالها	- القاضي الفاضل
---	- " " "	- نسخة المنشور بتقليد الملك العادل أخي السلطان حلب وأعمالها	- العماد الكاتب
---	- ملك السلطان سيف الإسلام طغتكين اليمن.	- البشارة بفتح مدينة ميافارقين والرجوع إلى الموصل وما جرى من الصلح	- العماد الكاتب

---

(119): الراوندان قلعة حصينة، من نوحي حلب، **انظر:** ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المصدر السابق، 19/3.

(120): آمد أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها ذكرا، انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المصدر السابق، 56/1.

هذه مجموعة الوثائق التي أوردها صاحب المضمار لتدعيم مادته الخبرية حـول السـلطان صلاح الدين بشكل خاص، وهي ماعدا اثنين موجهة من طرف السلطان صلاح الدين إلى الخليفة في أغلب المراسلات مما يؤكد حرصه على كسب الشرعية بإبداء الولاء، وبخصـوص مضـامين الرسائل فهي البشارة بفتح أو شكر للخليفة والدعوة له والشكوى من المواصلة، ومناشير بتقليـد الولايات، ولم يذكر المنصور محمد كاتب الوثائق إلا في موضع واحد ذكر فيه القاضي الفاضـل والعماد الكاتب، وما عدا هذه الوثائق لا يصرح المنصور بمصادر مكتوبة يكون قد أخذ عنـها أو استند إليها في التأريخ للفترة التي كتب عنها في الجزء الذي بين أيدينا.

المصدر الآخر مشاهدته ومشاركته في بعض الأحداث المتعلقة بأخبار صلاح الدين والبيت الأيوبي عموما، وبخصوص السماع والتحديث لم يعتمد المؤلف على هذا المصدر كثيرا لأن الأخبار التي صرح بسماعها محدودة، وهي لا تمثل إلا النزر اليسير من جملة الأخبار المنقولة عـن مصـادر معلومة كالمشاهدة، أو مجهولة في غالب الأحيان، و منها قوله: « ولقد حدثني من أثق بـه»[121]، ومما يلاحظ من هذه النقول أن الأخبار التي رواها بالسماع- حسب ما صرح- قليلة لاعتمـاده على المعاينة المباشرة لمختلف الوقائع والحوادث.

يبدو أن الأحداث المتعلقة بدار الخلافة وبغداد لم يعاينها المؤلف وقد اعتمد في التأريخ لهـا على مصادر لا يذكرها تلميحا ولا تصريحا، غير أن المنصور محمد قد أبدى اهتماما واضـحا في تفصيل الأحداث ونقل ما يجري داخل البلاط ليعكس الصورة التي أراد من خلالها إظهار ضـعف الخلافة [122].

إضافة إلى تميّز المنصور في عرض حملة قراقوش المظفري وتفرده في نقل بعض أحـداثها لا يـذكر المصادر التي استقى منها مادته الخبرية.

امتاز أسلوب المضمار بالقوة والوضوح بحث طغى عليه الطابع الأدبي، وسـاق المنصـور أخباره بلغة مشرقة لأنه نشأ في بيئة ذات ثقافة أدبية واسعة، إضافة إلى حبه للأدب وتذوقه للشعر ونضمه له، وقد صنف كتاب طبقات الشعراء كما كان أبوه شاعرا وله ديوان شعر [123].

---

(121): المنصور محمد، **المضمار**، المصدر السابق، ص 37.

(122): من بين النصوص التي ساقها المنصور عن قصد أو غير قصد لإظهار ضعف الخلافة انظر على سبيل المثال: **المضمار**، ص 11-12-39-41-58 و85- 182- 177.

(123): **انظر**: **المضمار**، مقدمة المحقق، ص، ع.

هذه النزعة الأدبية جعلت من المنصور يكثر الاستشهاد بالرسائل والنصوص الشعرية الـتي نقـل أكثرها دون اللجوء في الغالب إلى الاقباس أو الحذف، وعمد في مواضع قليلة إلى إيراد ألفاظ عامية كقوله:" وإيش ملبوسة" [124].

4- نزعـة أدبيـة وشعريـة في مـدح السلطـان

في القسم المخصص لصلاح الدين من كتاب المضمار قدم المنصور محمد معلومات تاريخية أوسع بكثير مقارنة بالأحداث الأخرى لأنه كان حاضرا في أكثر هذه الأحداث.

ومن حيث الترتيب ابتدأ المنصور بأخبار بغداد وأحوال الخلافة عدا سـنة (1182/578) فقـد افتتحها بغزوات صلاح الدين كما نجد إشارات للسلطان تحت عناوين لم تخصص للحديث عنه.

كون المنصور من السلالة الأيوبية وواحد من المقررين في رسم السياسة العامة لعصره بتوليه حمـاة بعد والده أهله لأن يكون قريبا من صلاح الدين وعلى اطلاع وعلم بالوثائق والرسائل الرسمية التي تصدر عن ديوان السلطان يؤكد لنا هذه الرؤية النصوص الكثيرة التي استشهد با المنصور محمد في مؤلفه.

تندرج أغلب أحداث المضمار حول السلطان الناصر في نشاطه العسكري والحملات التي قادها المظفر تقي الدين أو اشترك في بعضها رفقة عمه صلاح الدين في بلاد الشام وأعمالهـا لأن نشاط صلاح الدين ما بين (575-1179/582-1186) كان أغلبه في بـلاد الشـام وشمـالي العراق.

اهتم المنصور محمد بذكر أبناء البيت الأيوبي عموما وأولاد السلطان بشكل خاص، وأكثر من الإشارة لوالده الذي لا يتوانى في ذكره كلما سمحت الفرصة بذلك بحيث أفرط في الحديث عن بطولاته ومكانته عند عمه صلاح الدين و أظهره بمنظر الحائز على الدور الرئيسـي في مسـرح الأحداث السياسية والعسكرية في سلطنة صلاح الدين[125].

مما لا شك فيه أن المنصور محمد قدم لنا مادة عن صلاح الدين موثقة ودقيقة حاول فيهـا الإحاطة بالأخبار مع بعض الاختصار، واهتم بذكر المواقع والأماكن التي قصدها صلاح الـدين،

---

(124): نفســه، ص 36.

(125): انظر: **المضمار**، المصدر السابق، ص 36.

ونزل بها أثناء تواجده بالشام أو حلوله بمصر، وما ميز أخبار صلاح الدين في المضـمار عمومـا وحدتها مع بعض الانقطاع الغير مخل بإيراد أخبار قراقوش المظفري[126]، ونجـد أن بـين ولادة المنصور ووفاة السلطان صلاح الدين 22 سنة والأخبار التي أشار فيها إلى تواجده رفقة صـلاح الدين كان حديث السن لم يتجاوز الحادي عشرة من عمره ودّون أغلبها إن لم نقل كلـها أيـام ولايته لحماة، وبهذا لا يمكنه الإحاطة بكامل الأحداث والجزئيات فضلا عن قرابته مـن صـلاح الدين وموقعه السلطوي وما يفرضه ذلك من تحّيز في صناعة الصورة التي قررها في مؤلفه.

يبتدئ المنصور بالحديث عن مكان تواجد السلطان قبل أن يسوق إغاراته وغزواته، ويركز حديثه كما سبق وذكرنا عن والده بحيث عزى لرأيه الاستيلاء على بيت الأحزان المحصن[127].

انقطع النص في كتاب المضمار ولا نعلم حجم المعلومات الناقصة والنصـوص الضـائعة [128]، ثم يبّين المنصور بعدها كرم السلطان وفضله في استقبال سفراء ابن قرا أرسلان.

يعمد المنصور إلى شيء من تفصيل أحداث دخول السلطان إلى بلاد الأرمن ويظهر صلاح الدين حسب أخبار المنصور في مناسبات كثيرة طاعته وولاءه التام للخليفة العباسي ويراسله ليخبره عن ما استجد معه من نصر وظفر، ويستقبل وسيطا بينه وبين صاحب الموصل شيخ الشيوخ خير استقبال[129].

معظم الرسائل التي نقلها المنصور ولم يذكر كاتبها كانت من إنشاء العمـاد الأصـفهاني نظـرا لأسلوبها المغرق بالسجع والتكلف[130].

أجمل المنصور أحداث سنواته خاصة أخبار صلاح الدين ولم يقسمها إلى مواضيع مفصـلة باعتبار عامل المكان أين يتواجد السلطان، ونقل أخباره تحت عناوين رأى أنها محوريـة وخـالف بذلك غيره من المؤرخين الذين أرخوا لصلاح الدين وجعلوا لكل حدث عنوانا، وركز المنصـور على النشاط العسكري لصلاح الدين[131]، وأهمل الحديث عن الحياة المدنية، وهو يقترب في نظرته

---

[126]: نفسـه، ص 34، 53، 67، 164، 229.

[127]: نفسـه، ص 26.

[128]: نفسـه، ص 41.

[129]: انظر: **المضمار**، المصدر السابق، ص 42-51.

[130]: نفسـه، ص 32-147- 215- 226.

[131]: نفسـه، ص 93، 136، 188، 212.

هنا من نظرة العماد الكاتب في مؤلفه الفتح القسي في الفتح القدسي الـذي خصصـه للتـأريخ لحملات صلاح الدين العسكرية.

يوثّق المنصور أخباره بذكر نصوص المراسلات، ويتحدث عن خلاف صلاح الدين مـع المواصلة وكأنه كان حاضرا بلومه للمواصلة ووصفه لهم بالمخادعين والتنكر للاتفاق المبرم بينـهم وبين صلاح الدين وهذا تحيز واضح من المنصور لولي نعمة والده السلطان صلاح الدين (132).

تحكم المنصور وتفوقه اللغوي يسّر عليه مهمة تصوير الأحداث باختصار غير مخل فهنا نجده يتحدث عن صلاح الدين في كم غير كبير فيما احتلت الكتابات الأخرى مساحة أوسع.

وضع صلاح الدين قاعدة عند حملاته على مدن وأطراف بلاد الشام وهي من سلّم سلمت بلاده ويترك على رأس كل بلدة يقصدها من كان عليها إذا سلم واستجاب إلى نـداء الحـرب بإرساله الجيش لمساندة السلطان صلاح الدين، وكان لا يهمّه من يوليه إذا وافق على هذا الشرط ودخل في الطاعة (133).

أكرم صلاح الدين رسل الخلافة ونزل عند رغبة شيخ الشيوخ لمصالحة أهـل الموصـل في الوساطة الأولى، وفي الوساطة الثانية يقول المنصور توهم لشيخ الشيوخ أن السلطان لا يؤثر الصلح ثم تبين له غدر المواصلة، وعند عودته إلى بغداد أرسل معه صلاح الدين كتابا في الموضوع ليكسب رأي صلاح الدين بخصوص ضم الموصل وأعمالها (134).

عند تسليم آمد لنور الدين بن قرا أرسلان أشير على صلاح الدين من طرف بعض الأمراء تسليمها له دون ذخائر فلم يقبل ويقول المنصور هنا:" ليعلم أن الدنيا بأسرها لم يكن لها عنـد السـلطان قدر"(135) وهذا إكبار من المنصور للسلطان على هذا السلوك.

يشير المنصور إلى الصبر الكبير الذي يظهره السلطان عند وفاة أحد أقربائه أو مقربيه، وفي تسلمه حلب زاد على المناطق التي طلبها عماد الدين وهذا حسب رأي المنصور لصلاح البيت ليس لشيء آخر فيبّين لنا رغبة صلاح الدين في التقريب بينه وبين الزنكيين في آخر سنة (1185/581)

---

(132): نفسـه، ص 106، 107- 109.

(133):انظر: **المضمار**، المصدر السابق، ص 103.

(134): نفسـه، ص 114.

(135): نفسـه، ص 108.

يقول المنصور سأذكر ما تجدد من الأمور السلطانية في سنة (1186/582) لكن انقطع الكـلام وانتهت أخبار صلاح الدين إلى هذا الحد [136].

تتلخص الصورة التي قررها المنصور في مؤلفه حول السلطان صـلاح الـدين في كـون السلطان قد بذل جهدا معتبرا في سبيل تقوية الجبهة الإسلامية ضد الإفرنج، ولم يبتعد المنصور في أخباره عن أرض المعركة لا سيما إذا كان والده حاضرا، ولم يشر قط إلى زلة أو خطأ من أخطاء صلاح الدين، وأظهره بمظهر القائد العسكري الذي لا يولي للحياة المدنية اهتمامـا كـبيرا، ولا ندري كيف كان سيكون مؤلفه لو لم تفقد أجزاؤه، أو أن المنصور دون كتابه هذا وأخرجـه في صورته النهائية أيام حياة صلاح الدين.

المقاربة التي قدمها المنصور حول صلاح الدين قررها من موقعه السلطوي بصفته واليا على حماة، ويبدو أنه افتتن بسياسة صلاح الدين العسكرية فأراد التذكير ببطولات الناصـر في ظـل التراجع الذي آلت إليه السلطنة الأيوبية بعده.

لقد سلط المنصور الضوء على زوايا مختلفة من نشاط صلاح الدين العسكري وبّين علـى الأقل بصفته واحدا من الأيوبيين كيف كان ينظر إلى السلطان من طرف بعض من أهـل بيتـه ومقربيه.

---

(136): نفســه، ص 232.

IV- ابـن جبيـر في وصـف بعـض مواقـف صـلاح الديـن

تعرضت رحلة ابن جبير لحياة صلاح الدين في بعض جوانبها دخلت ضـمن مشـاهدات أندلسي حل بالشام ضيفا، وقدم ابن جبير مادة خبرية يشيد فيها بمواقف صلاح الدين تجاه المغاربة وبعض إنجازاته وحروبه ضد الصليبيين، وهي مادة لم تختص بالتأريخ للسلطان غير أنا تدخل ضمن الكتابات التاريخية حول حياته خاصة كونا من وافد على الشام قد تتنوع رؤاها مع رؤية المقـيم الشاهد على الأحداث.

تختلف أخبار ابن جبير عن غيره من المؤرخين كونا من نبع وحـي المشـاهدة والمعاينـة ووصف ما حدث وما رآه مبديا إعجابه، ولا تكتسب من الأهمية ما يدرجها في مصاف المصادر التي أرخت لصلاح الدين لقلة معلوماتا، واكتفاء ابن جبير بالإشارة لبعض جوانب حياة السلطان.

1- أنـدلسي في ضيـافـة الشـام

محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ويكنى بأبي الحسن، ويلقب بالبلنسي وفي بعض الأحيـان يعرف بالشاطبي، لقب ابن جبير بالبلنسي لأنه ولد في مدينة بلنسية، سنة (540- 1145)، أمـا لقبة الشاطبي لأنه تلقى تعليمه الابتدائي في مدينة شاطبة الأندلسية [137]، ينحدر من أسرة عربيـة عريقة سكنت الأندلس في عام (123- 740) قادمة من المشرق مع القائد المشهور بلج بن بشـر بن عياض القشيري. أتمّ ابن جبير دراسته في شاطبة حيث كان يعمل والده موظفا فيهـا، وقـد شغف أول ما شغف بالعلوم الشرعية فسمعها من أبيه، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي يعيش، ولكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية أيضا إذ يسرت له مواهبه الشعرية، ومن ناحية أخرى، نجاحا في الأوساط الرسمية مما جعله يحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد عثمان بـن عبـد المؤمن الموحدي، ولم يلبث أن كسب الشهرة كاتبا وشاعرا تروى له عدّة قصائد متفرقة فضلا عن ديوان شعر، كما ترك رسائل نثرية لها شهرتا في الأدب[138].

أجاز لابن جبير أبو الوليد بن الدباغ وحج فحدث في طريقه، وتقدم في صـناعة الـنظم والنثر[139]، كان ابن جبير أديبا و شاعرا، كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان بن عبـد المـؤمن،

---

(137): علي بن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافية** في **الحضارة العربية الإسلامية**، مكتبة التوبة، ص 171- 172.

(138): عبد الرحمان حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دمشق، دار الفكر، 1984، ص 409.

(139): ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، المصدر السابق، مج 07، ص 110.

وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة، ثمّ نزع عن ذلك وتوجه إلى المشـرق وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته، بكلام مرسل سهل حسن[(140)].

توجه ابن جبير في سن مبكرة إلى الحج فغادر غرناطة رفقة أحد الأطباء وذلـك في سـنة (578-1183)، فقد مرّ بسبتة وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصـقلية حـتى دخـل مينـاء الإسكندرية ومنها ركب النيل إلى القاهرة، ثم غادرها إلى صعيد مصر فوصل إلى مرفأ غيذاب وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر، ونزل بجدّة وأخذ قافلة إلى مكّة حيث أقام هناك حوالي نصف عام، ثم مرّ بالمدينة في طريقه إلى الكوفة وزار بغداد وسامرا فالموصل فحلـب ومنـها إلى دمشق التي أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضي الإسلامية فقد كانت سـواحل الشـام آنذاك في قبضة الصليبيين، ومن ميناء عكا أخذ ابن جبير سفينة مسيحية فـ ل بصقلية وذلك بعـد رحلة طويلة حافلة بالمشاق، لم تخل من كوارث هددت السفينة [(141)].

من حسن طالع ابن جبير أن تعرف على المشرق وهو لا يزال ينعم بالازدهار والأمـن في ظل صلاح الدين فدوّن مشاهداته فيه بأسلوب قويّ ولكنّه خال على كل حـال مـن تصـنع المحترفين، دون أن يتنكر يوما لثقافته الفقهية. في هذه المرّة استطاع ابن جـبير أن يتعـرف علـى الجزيرة عن كثب فصوّر الحضارة الزاهرة التي وجدها في صقلية في عهـد غليـوم النورمانـدي (Guillaume) ، مؤكدا مرّة بعد مرّة في ابتهاج ظاهر أنّها لا تزال إسلامية في المحل الأول وفي سنة (581-1185) وصل غرناطة بطريق قرطاجنة بعد غياب دام أكثر من عامين [(142)]، ومن الجلي أن انطباعاته عن المشرق كانت قويّة جدا وانعكست في قصيدة له طويلة يشيد فيها بصلاح الدين الأيوبي تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين ولم يمض وقت طويل فإذا بابن جبير لدى سماعه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (583-1187) يخرج في رحلة ثانية تسـتغرق عـامين (585-

---

[(140)]: لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة** في **أخبار غرناطة**، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1974، مج 02، ص 232.

[(141)]: كرتشوفسكي اغناطيوس، **تاريخ الأدب الجغرافي**، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ق1، ص 299.

[(142)]: عبد الرحمان حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب**، المرجع السابق، ص 410.

1191-1189/587) ولكن لم تحفظ لنا تفاصيل عنها كذلك نعرف القليل عن الأعوام الأخيرة من حياته [(143)].

أما رحلته الثالثة والأخيرة فقد بدأها من سبتة سنة (601-1204) وكان قد بلغ الثالثـة والسبعين من عمره، وقد أحزنته وفاة زوجته التي نظم فيها ديوانه:" نتيجة وجد الجوانح في تـأبين القرين الصالح" [(144)].

ويبدو أن ابن جبير لم يرجع إلى مسقط رأسه مرّة أخرى بعد هذه الرحلة الثالثة بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلا بين مكّة وبيت المقدس والقاهرة والإسكندرية منشـغلا بالتـدريس والأدب، إلى أن توفي عام (614-1186).

2- معلـومـات تـاريخيـة فـي رحلـة

سرد لنا ابن جبير في مؤلفه (الرحلة) يوما فيوم مختلف طوارئ جولته، والمصـاعب الـتي عاناها، والمخاطر التي تعرض لها، ووصف بإسهاب المدن والأقطار التي مرّ با، أما أسلوبه فلا مثيل له فهو يوجز عند وصف المدن ويجيد في اللمحات العامة عن الأقاليم، ولكّنه على العكس يكثر من الألوان عندما يصف الجماهير المتحركة حيث يظهر بارعا في تقديم التفاصيل المميزة والرائعة، وابن جبير أدقّ من ابن بطوطة في الملاحظات وأكمل في بعض الأوصاف، وأصدق في بعض الروايات، وإنشاء ابن جبير أرفع وأكثر تأنقا غير أن أكثره سجع يظهر فيه التكلف أغلب الأحيان [(145)].

لقد كان ابن جبير يسجل في مذكراته اليومية خلال الرحلة الطويلة كل ما يلفت انتباهه، ولكن بينما كانت الأوصاف التي يضفيها على الأشياء الجامدة تظل باهتة دوما وفاقدة الحياة لشدة إيجازها، كان على العكس يعرف كيف يطرح الأساليب التقليدية جانبا كلّ مرّة يحاول وصـف مشاهد الجمهور المتحرك أو المـوعة الحّية فكان يصف أو يعّبر بصورة شخصية جدا، وناجحـة جدا عمّا تراه عيناه، عينا رجل فطن[(146)].

[(143)]: كرتشوفسكي اغناطيوس، المرجع السابق، ص 299.

[(144)]: نفسـ ـه، ص 299.

[(145)]: عبد الرحمان حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب**، المرجع السابق، ص 410.

[(146)]: عبد الرحمان حميدة، **أعلام الجغرافيين العرب**، المرجع السابق، ص 427.

الحقيقة أن كتابه هذا يدل على اطلاع واسع وتكوين علمي متين لـيس فقـط في الأدب ولكن في التاريخ والجغرافية أيضا، فقد ضمنه معلومات عن المدن والمسالك والمصانع والأحـوال السياسية والاجتماعية والإنتاج الزراعي. رحلة ابن جبير أشبه ما تكـون بمـذكرات شخصـية ويوميات سفر صيغت بأسلوب بارع وبكلام سهل بسيط الأحاسيس، فكانت رحلته ذات صـفة أدبية مع العناية بالرسم والوصف والاهتمام بالمعاهد الثقافية، وبالمدارس الدينية ودراسة الأوضـاع والعلاقات الاجتماعية وهذا كلّه، ينمّ عن موهبة أدبية أصيلة، وكلّ هذا يضفي على الرحلة صفة التنوع والشمول [147].

تميزت رحلة ابن جبير عن غيرها من الرحلات لأصـالتها وسـلامة أسـلوبها، ولقلـة الانطباعات الذاتية التي تحمل بين دفتيها، فهي تحتوي على نمط علمي فريد من نوعه لذا يعتبرهـا الجغرافيون نموذجا يجب أن يحتذى به في الكتابة عن الرحلات، وتحمل هذه الرحلـة معلومـات تاريخية وجغرافية مهمة جدا لكل من الحروب الصليبية وجزيرة صقلية، حيث كان ابن جبير يدوّن ما شاهده وسمعه من العلماء وكذلك المعارف التي استخلصها من المراجع التي اسـتند عليهـا في تشكيل مادته الخبرية [148].

لقد لقيت وجهة ابن جبير إلى الحج أكثر حضا من غيرها من الأخبار التي ساقها، والمشاهد التي وصفها في رحلاته الثلاثة إلى المشرق خاصة زمن فتح صلاح الدين لبيت المقدس. حرص ابن جبير في تدوينه لما رأى على وصف المشاهد بدقة مع اختصار في الوصف صاحبه نقـل مشـهد مكتمل. هذه النظرة الجامعة الملمة بأحداث الطريق بصيغة العموم كان هدفها ربط أحداث كـل المناطق التي مر بها ابن جبير، ولم يكن في وسعه التركيز في الوصف على كل ما رآه وشاهده بـل لقي ما عاناه في طريقه إلى المشرق وركوبه البحر الوصف الأعمق لشدة هول ما رأى وأحس.

إن الوصف الذي اعتمد في تشكيل مادة الرحلة جاء متنوعا بتعدد المناطق التي حل بها فمن نقل الأخبار عن الطريق والحلول بمصر وذكر مآثر صلاح الدين وعدله، ينتقل إلى التركيز علـى مناسك الحج والحرم وصفا خص منه العمران والشعائر أكثر من أي شيء آخر.

---

[147]: علي بن عبد الله الدفاع، **رواد علم الجغرافية**، المرجع السابق، ص 172.

[148]: نفسـه، ص 172.

3- في وصف السلطان الكبير العادل

حديث ابن جبير عن صلاح الدين جاء مقتضبا وموزعا في مؤلفه، وقد خصه بثلاثة عناوين متفرقة في رحلته تمثلت في ذكر مآثره ومفاخره، وعدله وحسن سيرته في شكل أمثلة مختصرة، وأحداث أخرى جرت مع صلاح الدين، نجدها في بعض الإشارات له في ثنايا المؤلف ذكرها ابن جبير لمّا زار مدن الشام ومختلف المناطق الداخلة تحت حكم صلاح الدين.

فأثناء نزول ابن جبير فيمن معه بميناء الإسكندرية عوملوا معاملة مذلّة من طرف أمناء السلطان صلاح الدين غير أنه لم يحمّل السلطان المسؤولية:" وهذا من الأمور الملبّس فيها على السلطان الكبير، ولو علم ذلك على ما يؤثر عليه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك" [(149)]، ويصرح بأنها المشكلة الوحيدة التي لاقاها أثناء حلوله بالبلاد الواقعة تحت حكمه:" وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلمّ به قبيح لبعض الذكرى سوى هذه الأحدوثة التي هي من نتائج عمّال الدواوين" [(150)]، وقد أعجب ابن جبير كل الإعجاب بتصرفات وعدل السلطان لمّا رأى سخاءه في الإسكندرية على المسافرين المغاربة، وتوفير ما يحتاجون إليه، وإلغاء المكوس التي أثقلت كاهلهم أثناء حلولهم بالبلد. هذا الإحساس العاطفي تجاه أبناء الإقليم جعلت من ابن جبير يثني على السلطان وخصاله:" ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذّب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة" [(151)].

لقد أقدم ابن جبير على الثناء على صلاح الدين كلما تحدث عن خصاله ومنجزاته خاصة العمائر والمدارس التي أقامها وقد افتتن عند حديثه عن مشهد الإمام الشافعي (رحمه الله) بالمدرسة التي أقامها صلاح الدين وقال بشأنه:" فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه" [(152)]، كما أقدم هذا السلطان على بناء الجوامع والقناطر غربي مصر، وتكفل بتعليم الأيتام والفقراء، وأزال الضرائب على الحجاج، وأمّن الطريق وسبل النّاس [(153)]، فوصفه قائلا:" السلطان العادل الذي

---

(149): ابن جبير، **الرحلة**، نسخة الكترونية، ص 13.

(150): نفسه، ص 14.

(151): ابن جبير، **الرحلة**، المصدر السابق، ص 15.

(152): نفسه، ص 23.

(153): نفسه، ص 31.

شمل البلاد عدله، وسار في الآفاق ذكره، ولا يسعى فيما يسيء الذكر بمن حسّن الله ذكره ويقّبح المقالة في جانب من أجمل الله المقالة عنه" [154].

زار ابن جبير مدن مصر ومدن العراق وأكثر مدن الشام وتحدث عن مكانـة الموحـدين وعدلهم، ولم يقنعه الحكام في المشرق إلا السلطان صلاح الدين الذي أسهب في ذكر مناقبه [155]، لمكانته العالية عند العامة من المسلمين وقد لاحظ ابن جبير ذلك عند ذكر الخطيب لصلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان، فليت ابن جبير عمل على لقاء صلاح الدين أو أحد رجالات الدولة الأيوبية ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية في مصر، غير أنـه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد بصلاح الدين وأعماله، وحسن سيرته في بـلاد الشـرق الأدنى، وفي المقابل اعتبر غيره من ملوك الأطراف في المشرق كملوك الطوائف في الأندلس، إلا السلطان صلاح الدين الذي افرد ابن جبير له في كل مناسبة بما هو قمين به من التبجيل فقال:" المشـتهر الفضـل والعدل، فهذا اسم وافق مسمّاه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه فزغاريـد ريـح، وشهادات يردها التجريح" [156]، وقد لمس ابن جبير حقيقة سيادة صلاح الدين في كل البلاد التي مرّ با من الموصل إلى سروج، وديار ربيعة ومع ما يلي الجنوب من ديار بكر وغيرها ممّا يطـول ذكره ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين، فهم إلى طاعته، ولو شاء نزع الملك منهم [157].

صور ابن جبير صلاح الدين في عبارة أنيقة فقال:" إنه لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دعـة ولا يزال سرجه مجلسه، واتصف بثلاث مناقب ذكرها أحد الفقهاء عنه، حلمه الذي شبهه بحلـم الأحنف بن قيس، وكرمه الذي شبهه بكرم هارون الرشيد، وعدله الذي شبهه بعدل عمـر بـن الخطاب، وهذه صفات كفى با لهذا السلطان فخرا [158]، غير أن ابن جبير لم يسلط الضوء كثيرا على منجزات السلطان العسكرية واكتفى بنقل أخبار مختصرة غير مباشرة كحديثه عن حصـاره لحصن الكرك، وضم نابلس وأسرى الفرنج.

---

[154]: نفســه، ص 39.

[155]: نفســه، ص 56.

[156]: نفســه، ص 216 .

[157]: نفســه، ص 222.

[158]: ابن جبير، **الرحلـة**، المصدر السابق، ص 271.

إن اهتمام ابن جبير كان منصبا على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية من ذلك حديثه عـن القرافة وما بها من مشاهد القبور والمشهد الحسيني، وتحدث كثيرا عن بعض المنشآت الاجتماعيـة التي أنشأها صلاح الدين إظهارا منه لعظمة صلاح الدين، وقد أعجب كثيرا بهذا السلطان، وتبدو هذه الحقيقة واضحة في تبرئة ابن جبير لصلاح الدين من أعمال جباة المكوس من حجاج بيت الله الحرام، وفي المدح الكثير الذي كاله للسلطان (159).

لقد كان ابن جبير شديد الإعجاب بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، عظيم الإكبار له، فلا تمرّ سانحة إلا بيّن فيها ما كان عليه هذا السلطان العظيم من العدل ونبل الأخلاق وكرم السجايا، وما خص به ابن جبير صلاح الدين في رحلته لا يعدو أن يكون إشارات متفرقة لا تشكل نظرة أو رؤية واضحة سلك فيها ابن جبير منهجا معينا في الكتابة عن السلطان الناصر، بل نقل ما صـادفه وزاره واعترف بجميله وأثنى عليه، لكنّه لم يعمل على لقائه أو لقاء أحد أقاربه أو رجـال دولتـه المقربين. إنه لا يمكن اعتبار ما كتبه ابن جبير في رحلته حول صلاح الدين تأريخ ملـمّ وجـامع لأخبار صلاح الدين، وإنما أعجب به نتيجة أعماله وإجماع الناس عليه فهي إشـارات لم تشـكل نظرة مكتملة الجوانب يمكننا من خلالها تحديد انحيازه للسلطان أو تغاضيه عن ما يسيء له.

---

(159): حامد زيان غانم، **بعض مظاهر الحياة الاجتماعية بمصر زمن صلاح الدين الأيوبي** في **ضوء رحلة ابن جبير**، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة القاهرة، مايو 1969، مج 31، الجزء 1، 2، ص 75.

الفصل الثاني:
المؤرخون المعاصرون، والكتابة المختصّة في التأريخ لصلاح الدين الأيّوبي

ويشتمل على خمسة عناصر:

1- الوزير الفاضل: الأنا الآخر لصلاح الدين

2- العماد الأصفهاني: الموظف المدني المعجب بسيّده

3- ابن الأثير الجزري: الناقم على السلطان الجديد

4- ابن أبي طيء: المؤرخ الشيعـي

5- ابن شداد الموصلي، والسيرة الحنينية للسلطان

I- الوزير الفاضل: الأنا الآخر لصلاح الدين

حل القاضي الفاضل في المرتبة الأولى من حيث مكانته عند صلاح الدين فهو وزيره الأول الذي عرف عليه تاريخيا تأييده للأقوى في الساحة السياسية كما فعل مع صلاح الدين على حساب الفاطميين بالرغم من ولائه الفكري والسياسي لهم. هذا القرب أبداه القاضي الفاضل في رسائله حين أكد أحقّية صلاح الدين بالسلطنة دون غيره، وكان من الذين آمنوا بخياراته إيمانا عميقا، بل إنه كان مع صلاح الدين على قلب رجل واحد في بناء صرح السلطنة وجهاد الصليبيين مغتصبي الأرض.

ما كتبه الفاضل حول حياة صلاح الدين في المتجددات وغيرها من المؤلفات التي لم يحفظ منها إلا القليل في الكتب المتأخرة مهمّ للغاية لشهادة الفاضل على الأحداث ومشاركته فيها أحيانا، وبراعته في البيان حيث كان سيّد زمانه في هذا الفن لذا شغل كاتب صلاح الدين وأمين سرّه، وأصبح الأنا الآخر لصلاح الدين، وإلى جانبه العماد الأصفهاني الكاتب نظير تفوقهما في مجال الكتابة والترسّل وتقريب السلطان لهما لثقته الكبيرة فيهما.

1- القاضي الفاضل: من الولاء للفاطميين إلى خدمة صلاح الدين

أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ولد سنة (1134/529) [(160)]، اشتهر بحبّه للكتابة فقصد مصر ليشتغل بالأدب فاشتغل به وحفظ القرآن، ولمّا تولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر احتاج إلى كاتب فأحضر إليه فأعجبه سمته ودينه، وبانتقال الوزارة لصلاح الدين وظفه كاتبا عنده، ولذلك لم يكن أحد في منزلته، وكان كثير الاشتغال بعلوم الأدب. كتب مراسلات كثيرة، واقتنى الكتب من كل فن من جهات مختلفة واعتمد على نسّاخ ومجلّدين كثر [(161)].

---

(160): ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب**، مج 2، 325/4.

(161): يقول ابن العماد الحنبلي: قال لي من يخدمه في الكتب أن عدد كتبه قد بلغ مائة ألف كتاب وأربعة عشر ألف كتاب هذا قبل أن يموت بعشرين سنة، ولم يزل معظما بعد موت صلاح الدين عند ولده العزيز ثمّ الأفضل، ومات فجأة. ذهبت ابنته لتخبر إليه فوجدته جالسا ساكتا فهابته لأنّه كان مهابا فطال سكونه، حتى ارتابت فتقدمت نحوه فوضعت يدها عليه فخرّ صريعا، وقت رجوع عسكر مصر مهزوما، ودخل الملك الأفضل فصلى عليه ودفن بالقرافة، له مدرسة بالقاهرة هي أول

كانت الحياة الأولى للقاضي الفاضل في عسقلان، ثم في مصر، ويفهم مما سبق أن أستاذه الأول وموجهه بعسقلان هو والده، وأن أستاذه الأول بمصر هو الموفق بن الخلال، كما أخذ الفاضل فن الكتابة عن كاتبين آخرين غير ابن الخلال، وابن قادوس، ولكن عن طريق غير مباشر وهما: ابن عبد كان، وابن الشخباء [162].

تبّين من نشأة الفاضل وتكوينه الأدبي ثلاثة عوامل كان لها أثر واضح في اتباعه طريقة خاصة في الكتابة سار عليها الكتاب من بعده، العامل الأول الجفوة الشديدة التي كانت بينه وبين كتاب ديوان الإنشاء بالقاهرة في عصر الظافر بن الحافظ، حتى أنه صار لا يطيق البقاء في القاهرة بعد وفاة والده فرحل إلى الإسكندرية وعمل بها كاتبا لواليها، أما العامل الثاني فحرصه الشديد على التقرب ممن بيدهم مقاليد الأمور ولو أدى ذلك إلى مدحه اليوم قاتل ممدوحه بالأمس مادام هذا يوصله إلى ما يطمح إليه من المكانة الأدبية والسياسية، ولعل ذلك راجع إلى حداثة سنه أنذاك وتطلعه إلى تبوء أعلى المراتب في الدولة، وأدى ذلك إلى ذيوع طريقته ويؤكد هذا الرأي موقفه من ابن رزيك وشجاع بن شاور قاتل رزيك، ومن أسد الدين شيركوه وصلاح الدين اللذين كان على يديهما نهاية شاور، وكما كان القاضي الفاضل يسعى إلى الشهرة والسلطان بالتقرب إلى الأقوى من الأفراد، سعى إليهما أيضا بالتقرب إلى الأقوى من الدول، ودليل ذلك أنه لمّا ولي صلاح الدين السني أمر مصر وقربه استعان به على إنهاء الإمامة الفاطمية بمصر، وقد فتح القاضي الفاضل أخلد صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين، ففوض إليه الوزارة، وديوان الإنشاء، واتخذه ساعده الأيمن فيما أراد من إصلاحات مالية وحربية، واستبشر به صلاح الدين فلم يرد أن يستكتب سواه [163].

يتبّين أن الصراع الذي قام بين المسلمين والفرنج قد اتخذ شكل صراع ديني كما صوّره القاضي الفاضل فيما وصل إلينا من أدبه النثري [164].

مدرسة بنيت بالقاهرة، وله مائتان وخمسون ألف بيت من الشعر. **انظر: شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب**، مج 2، 325/4.

[162]: سلطان عبد الرؤوف الحريري، **أدب الرسائل** في **العصر الأيوبي (القاضي الفاضل نموذجا)**، (دكتوراه في الأدب)، جامعة دمشق، 2001، ص 72.

[163]: نفسه، ص 83- 84-85.

[164]: نفسه، ص 83.

فوض صلاح الدين الوزارة وديوان الجيش للقاضي الفاضل فور استلامه وزارة العاضد وقرّبه منه فاتخذه كاتبه ووزيره ومستشاره في الحلّ والترحال، ومنحه ثقته حتى أصبح من خاصته المحببة إلى نفسه، لا يقدم على فعل شيء، إلا بمشورته ورأيه، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه، ولا يمضي في الأمور إلا بمضاته. تقدّم عند صلاح الدين كثيرا وركن إليه ركونا تاما، فكان الفاضل هو الدولة الصلاحية، كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها والحامل لكلّها، والحاكم في كلّها. كان صديق صلاح الدين وعضده ووزيره، وصاحب ديوان إنشائه، ومشيره وخليطه، وسميره وأعزّ عليه من أهله وولده" [165].

2- الوزير المقرّب من السلطان

كان القاضي الفاضل أعظم كتاب صلاح الدين شأنا، وأشدّهم إليه قربا استوزره صلاح الدين فكان القاضي الفاضل لسان الدولة الصلاحية ولهذا لا يكاد يقع حدث في هذه الدولة من غير أن يكون لقلم القاضي الفاضل مشاركة فيه، فبهذا القلم كانت تذيع بشائر الفتوح إلى بغداد وأنحاء العالم الإسلامي، وبه يرسل صلاح الدين إلى ملوك الإسلام يخبرهم بأنباء الحرب ويستنجد بم بل به كان يبعث رسائله الشخصية، ويرسل أخبار حكومته وأوامره إلى ولاّته ونوابه، فكان من ذلك محصول ضخم من الرسائل هو سجل دقيق لأنباء الدولة الصلاحية [166].

لقد أخذ الفاضل يتنقل مع صلاح الدين بين القاهرة ودمشق، يحضر مؤتمراته السياسية مع أمراء المسلمين، ويشترك في أغلب حملاته العسكرية ضد الصليبيين، وإذا حالت أعمال الدولة دون اشتراكه تخلف بالقاهرة أو دمشق، حتى يعود صلاح الدين فيجتمع به، يراجعه ويستشيره في أمور السياسة والحرب. ومنها أن صلاح الدين علم وهو على حصار كوكب في نماية (1188/583) بقيام بقايا الفاطميين بمظاهر شيعية ضده لإقصائه عن الحكم، فأمر القاضي الفاضل بالذهاب فورا إلى مصر، ليكون له عينا ولولده العزيز عونا في ضبط أمور مصر وأحوالها [167].

---

[165]: سلطان عبد الرؤوف، **أدب الرسائل في العصر الأيوبي**، المرجع السابق، ص 84.

[166]: أحمد أحمد بدوي، **صلاح الدين بين شعراء عصره وكتّابه**، القاهرة، دار القلم، 1960، ص 144.

[167]: نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، مصر، مطبعة لجنة البيان العربي، 1962، ص 30-31.

وممّا تقدم ندرك أن الفاضل قد نال مكانة مرموقة لدى سلطانه، ولا ريب في أنه كان لهذه الثقة أسباب كثيرة منها: أن القاضي الفاضل كان عونا للسلطان فيما قام به من إصلاحات سياسية ومالية وحربية، وفي جهاده الصليبيين. و تحمله على السلطان أعباء الدولة، في حالة انشغاله بالجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، إذ كان ينوب عنه مع أحد أفراد أسرته، فيخفف عنه حزمه، ويبث فيه روح الثقة والصبر والجلد (168).

كان صلاح الدين متعلقا بالفاضل يتشوق قدومه، وطالت مدّة البين لغيبته عنه سنتين، على أنّ أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبّـة، وكـان السلطان شديد الوثوق بمكانه دائم الاعتماد عليه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهـام، وإن تركه نال وحشة المتفرد بالقضايا والأحكام، وكان يكاتبه بشرح أحوال مصر (169). وقـد كتب إليه رسالة عندما قدم صلاح الدين إلى الشام يريد طرد الصليبيين من الديار الإسلامية (170).

لقد كان السلطان شديد الحرص على الفاضل إذ كان يحرص عليه حرصه علـى نفسـه وأهله، وربما بأكثر من ذلك. وهذا واضح في موافقته التي بعث بها إلى القاضي الفاضـل حينمـا استأذنه في أداء فريضة الحج سنة (570/1174)، ما يؤكد لنا حبّ السلطان العميق للفاضـل، وإصغاءه لنصحه ومشورته؛ لأنه عطل حجّته بناء على رأي الفاضل، لأن الفرنجة كانوا ما يزالون في ديار الإسلام، فوافقه السلطان ولم يحجّ، وكان السلطان يتفاءل به ويرى البركة في وجهـه (171)،

---

(168): سلطان عبد الرؤوف، **أدب الرسائل** في **العصر الأيوبي**، المرجع السابق، ص 85.

(169): نفسـ ـه، ص 85.

(170): نقل أجزاء منها أحمد بدوي، **صلاح الدين** بين **شعراء عصره وكتّابه**، ص145. " وأمّا تأسف المولى على أوقـات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، ويجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّة رشده، أوليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لأنّه غير مقدور له، ولكن عن النّية لأنا محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذا في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المداد فهو في طاعة قد امتنّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أصل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحجّ لأجل جهـده وبعد شقته ولو كان المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيّام، وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام لكانت تكاليف الجهاد قضيت وصحائف البرّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت ".

(171): قال صلاح الدين مخاطبا الفاضل حينما قدّم إليه العماد الأصفهاني:" مالي عليك مندوحه، أنت كاتبي ووزيري، وقـد رأيت في وجهك البركة"، **انظر**: سلطان عبد الرؤوف، **أدب الرسائل** في **العصر الأيوبي**، ص 86.

لذا كان يحرص على أن يصطحبه معه في بعض معاركه التي خاضها في بلاد الشام مع الصليبيين، وإذا تأخر عنه لعذر أو مرض يزوره ليودعه حتى يستأنس برأيه [172]؛ ويكون آخر من يراه قبل خروجه للجهاد [173].

ومن هذا كلّه يتضح لنا أن نفس الفاضل قد هدأت واطمأنت في كنف صلاح الدين الذي منحه ثقته كاملة، ورفعه إلى أعلى المناصب في دولته، إذ كان مستشاره في السلم والحرب، ولسانه المعبر عنه إلى الملوك والأمراء داخل الدولة وخارجها فوجد الفاضل في كنفه نفسه، وحقق على يديه ما كان يصبو إليه من المناصب؛ وما كان يطمح فيه من جمع الشمل الإسلامي وتحرير المقدسات الإسلامية من الصليبيين [174].

لقد أخلص لصلاح الدين ودولته أيما إخلاص، وخدمهما بكل ما لديه من مواهب، بقلمه وفكره، ونصحه ونفسه، وكان كذلك أثر فيما حققه من انتصارات على الصليبيين ويتمثل ذلك جليّا في قول صلاح الدين فيه بعد معركة حطين [175]. شهادة صلاح الدين بفضل الفاضل على حركة الجهاد الإسلامية شهادة لها دلالتها التاريخية، إذ تؤكد التعاون الوثيق بين الشاب والشيخ، وبين المادة والروح، وبين السيف والقلم، وبين العسكرية والدبلوماسية، وأنه لا غنى لأحد الطرفين عن الطرف الآخر [176].

فمهما كانت المبالغة شديدة في هذا القول فإنه يدلنا على مقدار ما كان يشعر به صلاح الدين من اعتزاز برأي القاضي الفاضل؛ وقّنه حتى أصبح الفاضل هذا المدير الأوّل للبلاد وحاكمها الفعلي" [177].

---

[172]: سلطان عبد الرؤوف الحريري، المرجع السابق، ص 85.

[173]: قال أبو شامة:" ثمّ همّ بالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيما بجواسق ابن الفراش بالشرق الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله، وكان لا يأتي أمرا إلاّ من بابه، فأقام عنده إلى الظهر ثمّ ودّعه ورحل"، **الروضتين**، ج2، ص 168.

[174]: سلطان عبد الرؤوف الحريري، المرجع السابق، ص 86.

[175]: " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل"، **راجع**: سلطان عبد الرؤوف، **أدب الرسائل** في **العصر الأيوبي**، المرجع السابق، ص 86.

[176]: نظير حسان سعداوي، المرجع السابق، ص 32.

[177]: سلطان عبد الرؤوف الحريري، المرجع السابق، ص 86.

يخالف موقف صلاح الدين من القاضي الفاضل موقف حكام آخرين من الكتّاب في أغلب الأحيان، لأن الدولة في بدايتها غالبا ما تكون في حاجة إلى أرباب السيوف أكثر من أرباب الأقلام، ويبدو أن صلاح الدين أعطى قلم الفاضل هذه الأهمية الكبيرة لأنه رأى فيه من القدرة على القيام بما يعجز عنه السيف في بعض الأحيان. يتبين مصداق ذلك في رسائل القاضي الفاضل التي كان يبعث بها من مصر، كما أنّ صلاح الدين اعتمد على القاضي الفاضل اعتمادا كبيرا في تسيير أمور البلاد، لأنّه كان يعده وزيرا تنفيذيا وتفويضيا في آن واحد، وقد توفي السلطان بدمشق بجوار صديقه ووزيره الذي كنفه، وأشار بأن يدفن معه سيفه الذي حارب به، فتمنى الفاضل وقتها أن يفديه بنفسه (178).

بعد وفاة السلطان صلاح الدين، ت ه القاضي الفاضل عن ملابسة الدولة، ومخالطة أهلها، واعتزل بداره في القاهرة، لما رأى من اختلال الأحوال وتفرق الكلمة، غير أنها جذبته إليها جذبا، حتى اشتد الخلاف بين خلفاء صلاح الدين، ومجيء العادل والأفضل من دمشق لمحاربة العزيز بالقاهرة (1164/591)، واستدعي القاضي الفاضل لمعالجة الموقف، فأدلى بدلوه، وما زال حتى وقع الصلح بعودة الأفضل إلى الشام، وببقاء العزيز في القاهرة، وبصحبته عمه العادل، ثم تجدد الخلاف سنة (1198/595) بين أمراء الدولة بعد وفاة العزيز صاحب مصر؛ وتقدم نفر إلى القاضي الفاضل ليأخذوا رأية فامتنع من المشورة، وانتهى الأمر بانتصار العادل على الأفضل ابن صلاح الدين، فحزن الفاضل لتلك النتيجة، ودعا على نفسه بالموت، لخلاف بينه وبين العادل، وخوفا من ابن شكر الذي ولاه السلطان العادل الوزارة، وأجلسه في دار السلطنة المصرية في حجرة القاضي الفاضل، ومات الفاضل قبل دخول العادل القاهرة سنة (1199/596)، وقيل إن العادل كان داخلا من باب النصر، وجنازة القاضي الفاضل خارجة من باب زويلة (179).

هذه بعض الرسائل بقلم الفاضل وردت في مؤلفات مختلفة

---

(178): سلطان عبد الرؤوف الحريري، المرجع السابق، ص 86.

(179): نظير سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 33- 34.

المرسل	المرسل إليه	موضوع الوثيقة
- السلطان صلاح الدين	- السلطان نور الدين	- يخبره بغزوة قام بها ضد حصني الكرك والشوبك سنة (1172/568).
- " " " " "	- الشيخ ابن أبي عصرون.	- يوبخه على الاتفاق السابق مع الفرنج.
- " " " " "	- بعض أنصاره	- يخبره بوفاة ملك القدس الصليبي سنة (1173/569).
- " " " " "	- ملك القدس الجديد بردويل.	- معزيا بأبيه ومهنئا له لجلوسه على عرش القدس.
- " " " " "	- الملك العادل الأيوبي	- يخبره بتحالف الحلبيين مع الفرنج ضده خاصة مع قومص طرابلس.
- " " " " "	- بغداد (الخليفة) سنة (1176/572)	- يخبر بقدوم نجدة إلى فرنج الشام، وكيف أنهم نقضوا الهدنة التي كانت معقودة بينه وبينهم.
- السلطان صلاح الدين	- أخوه تورانشاه في دمشق سنة (1177/573)	- يصف فيها معركة الرملة، وكيف أنه اضطر للانسحاب.
		- بعد معركة الرملة فيها فصول عديدة.
- القاضي الفاضل	- السلطان صلاح الدين	- يبشر بدم حصن بين الأحزان.
- السلطان صلاح الدين	- الخلافة (الديوان العزيز).	- يبشره بفتح غزة واقتلاعها من الداوية.
- " " " " "	- لأحد الملوك.	- يهنئه بنصر حطين لأنه كان غائبا عن المعركة.
- القاضي الفاضل	- السلطان صلاح الدين	- أرسلها من عكا بعد تحريرها ويصف فيها معركة حطين.
- السلطان صلاح الدين	- بغداد	- يخبرهم بما تجدد من فتوحه، ويعلن تيؤه لفتح القدس.
- " " " " " "	- إلى بعض أهله	- يبشره بفتح بيت المقدس، ويذكر المعارك التي سبقت تحريره وعملية التحرير.
- " " " " "	- الخليفة العباسي	
- " " " " "	- أخوه سيف الإسلام سلطان اليمن	- يبشره بفتح كوكب وصفد والكرك سنة (1188/584) ويستمده المساعدة ضد الصليبيين الذين تجمعوا حول عكا.
		- يخبره بحركة صاحب القسطنطينية وصاحب صقلية ضده.
- " " " " "	- الخليفة العباسي الناصر	- بعد سماعه بتجديد حركة العدو إلى بيروت.
- القاضي الفاضل	- السلطان العادل	- بعد أخذ الفرنج بيروت.
- " " " " " "	- عز الدين صاحب الموصل	- يخبره بوصول ملك الألمان والقتال الذي دار مع الصليبيين حول عكا ، ويطلب النجدة بإلحاح ويشرح الوضع الصعب حول عكا.
- السلطان صلاح الدين	- الخليفة الناصر	
- القاضي الفاضل	- السلطان صلاح الدين	- كان السلطان محاصر لعكا يذكره ويحرضه على الجهاد والثبات ويخوفه من ارتكاب الذنب.
- القاضي الفاضل	- السلطان صلاح الدين	- وهي جواب رسالة ارسلها له صلاح الدين، والقاضي في مصر والسلطان حول عكا.
- " " " " " "	- " " " " " "	- أثناء حصار السلطان الصليبين حول عكا يشجعه ويهون.
- " " " " " "	- " " " " " "	- يستفسره صحة إشاعة انتشرت كل الانتشار مفادها أن ملك انجلترا قتل في إحدى المعارك ضد المسلمين.
		- يشرح الوضع حول عكا وتدفق المدد الصليبي عليها.

- السلطان صلاح الدين	- الخليفة العباسي الناصر	
- " " " " " "	- " " " " " "	- يشرح الوضع حول عكا وتـدفق الإمـداد إلى الصـليبيين. خصوصا وصول ملك الانجليز.
- " " " " " "	- إلى السلطان العادل نائبه في مصر	- انتصار الأسطول الإسلامي في مياه البحر الأحمر على أسطول صليبي حاول غزو سواحل الحجاز فرمره حسام الـدين سـنة. (1179/575).
- " " " " "	- " " " " " "	- يخبره بضرورة قتل الأسرى المذكورين في الخطاب السابق.
- " " " " " "	- الخليفة العباسي	- مبشرا بانتصار أسطوله في البحر، وانتصار جيشه بالمغرب
- القاضي الفاضل	- السلطان العادل	- يحثه على الجهاد والمرابطة [180].

3- الفاضـل يُمجّـد ويخلّـد بطلـه صـلاح الديـن

ظل المسلمون في بلاد الجزيرة والشام يتطلعون إلى قيادة تملأ الفراغ الكبير الذي تركه نور الدين؛ إلى أن تولى الأمور صلاح الدين، وعمل ثانية على توحيد الصفوف وتوجيه الطاقـات إلى مقاومة الصليبيين؛ ممّا جعله موضع إعجاب وتقدير من شعراء عصره وكتابـه عمومـا[181]، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل الذي رأى في صلاح الدين الحاكم الذي تجسدت فيـه مزايـا القائـد الإسلامي من تقوى وعدل وحكمة وشجاعة وحسن قيادة، وغير هذه من الفضائل والصفات التي أثبتها الذين تحدّثوا عنه كابن شداد والعماد الأصفهاني وغيرهما من المؤرخين اللاحقين، فلا عجب أن تصبح شخصية صلاح الدين هي الشخصية المحورية فيما كتبه القاضي الفاضـل في مواكبـة الحروب الصليبية في تمجيد بطله المقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمته في الأرض [182].

---

[1]: **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**،ج1، ق2/ 566، 589، 594-595، 614، 706-707.ج2/ 36-37، 75، 82-83، 87ن 91، 157- 158، 166-167، 202، 232-233. القلقشندي، **صبح الأعشـى**، 496/6-504، 515-516. 515/7-516.ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج65/2، 84-85. النويري، **نهاية الإرب**، 224/5-225. ابـن خلـدون، **العبر**، 641/5. ابن كثير، **البداية والنهاية**، 339/12.

[181]: أجمعت المصادر العربية وغير العربية على امتداح شخصية صلاح الدين وبطولته ومثابرته على الجهاد وكـرم أخلاقـه واعتداله، الأمر الذي جعل منه الشخصية الكبرى البارزة في تاريخ الحروب الصليبية. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، **أضواء جديدة على الحروب الصليبية**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1964، ص 31.

[182]: سلطان عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 121. من دلائل إعجاب الفاضل بالسلطان صلاح الدين ما نصه:" والذي أجراه الله على يد المملوك من المماليك التي دوخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر البطل التي رحضها، وحجج الزندقة التي دحضها فلله عليه المّنة فيه إذ أهله لشرف مشهد وما فعله إلا لوجهـه"، انظـر: أبـو شـامة،

المعروف أن صلاح الدين ضحى براحته، وهجر أهله ووطنه مؤثرا حياة الخشونة والجهـاد على الراحة والدعة، وزهد في الدنيا حتى إنّه حينما انتقل إلى جوار ربّه مع سعة ملكه لم يخلـف مالا ولا عقارا [183].

في معرض حديث الفاضل عن الحوافز العظيمة لصلاح الدين في سـبيل جمـع الصـف ومواجهة المحتلين، يؤكد أنّ المكاسب الدنيوية وسعة الملك ليست هدفا يسـعى إليـه مـن وراء جهاده، ويؤكد الفاضل أنّ بطله صلاح الدين قد تحمل عبئ الجهاد وحده دون غيره من الحكـام المسلمين الذين وقفوا منه موقف المتفرج المراقب البعيد في وقت كانت الحاجة فيه ملحّة لوقـوفهم إلى جانبه في مواجهة الفرنج والتصدي لهم [184].

ولكي يعلي الفاضل من شأن بطله كان يقارن بينه وبين من يتفرد عنـهم مـن الحكـام المسلمين الذين تخاذلوا عن مواجهة الغزاة ونصرة الدين [185].

لقد كان صلاح الدين حسب رأي الفاضل الرجل الذي يمثل تطلعات الأمّـة الإسـلامية وآمالها التي عاشت معها طوال الاحتلال الصليبي للبلاد، ومن أجل ذلك استحق أن يتولى قيـادة المسلمين في حربهم ضد الغزاة لأن مزايا الحاكم والقائد قد اجتمعت فيه دون غيره مـن حكـام العصر [186]، وقد استطاع القاضي الفاضل أن يعبر عن عواطف صلاح الدين إزاء الفتوح التي قام بها، وأنها عادت على الإسلام بنشر كلمته، وعلى بلاد الشام بنشر السلام بين ربوعه [187].

لا ينسى الفاضل وهو يتحدث عن بطله أن يتوقف عن شجاعته وإقدامـه فيقدمـه لنـا شجاعا، يتقدم الجيوش بنفسه في ميادين القتال حتى كان الرعب منه مظهرا من مظاهر شـجاعته

الروضتين في **أخبار الدولتين** (النورية والصلاحية)، تحقيق، محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1998، ج1، ق2، ص 632.

(183): سلطان عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 121-122. يقول الفاضل عن صلاح الدين في إحدى رسائله إلى الخليفـة في بغداد " وقد علم أن الخادم بيوت أمواله بيوت رجاله، وأنّ مواطن نزوله مواقف نزاله، ومضارب خيامه لا أكنّة ظلاله، وأنّه لا يدخر من الدنيا إلا شكّته، ولا ينال من العيش إلا مسكته"، **انظر:** أبو شامة، **الروضتين**، ج 2، ص 156.

(184): سلطان عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 122.

(185): نفسـه، ص 123.

(186): نفسـه، ص 123.

(187): أحمد بدوي، المرجع السابق، ص 159.

وهيبته، وهو رعب كان يبعث الخوف في نفوس أعدائه قبل أن يلتحم معهم في المعركة، ولذا فإن المدن الصليبية قد تسلم إليه أبناءها وتنضوي تحت رايته، تخوفا وتّبيا كما يتراءى للفاضل، وذلك لأنه جمع إلى التقوى والاعتماد على الله الشجاعة والإقدام في معاركه، وحين تجتمع هذه العناصر معا، فلا بدّ من بلوغ النصر كما صور ذلك الفاضل في حديثه عن مهاجمة صلاح الدين لحصن بيت الأحزان نصرة للإسلام، وقد أشاد في مواضع كثيرة من رسائله بحنكة بطله (صلاح الدين) السياسية وحسن تدبيره للأمور [188].

لقد رأى الفاضل في خطة صلاح الدين لتحرير بيت القدس من أيدي الفرنج مظهرا من مظاهر سداد رأي السلطان وحكمته، فقد بذل كل ما يملك من الجهد لتحقيق هذا الهدف الأسمى[189]، وأدرك كثيرون من رجال الفرنج أنفسهم ما تميز به صلاح الدين من صفات، ومزايا كما يتضح من قول مؤرخهم وليم الصوري:" إنّ كلّ زيادة في قوة صلاح الدين تثير فينا الخوف والرعب، لأنه كان رجلا حكيما إذا أشار؛ مقداما في الحرب إذا نهض لها بالغ السخاء إذا أعطى" [190].

إن غياب كتابات القاضي الفاضل المباشرة الممثلة في رسائلة ومتجدداته واعتمادي على بعض النصوص الواردة في كل من كتاب الروضتين لأبي شامة، وغيره يجعل الدراسة تفتقر إلى الإحاطة بكل ما كتبه الفاضل عن صلاح الدين، لاستجلاء ملامح الصورة الدقيقة التي رسمها للسلطان غير منقوصة، وكشف الستار عن حقيقة شخص السلطان في رأي وزيره الأول.

غير أن ملامح الصورة في عمومها مع ما في أيدينا من نصوص وإن كانت ضئيلة، بدت واضحة المعالم، فالفاضل كما سبق له وأن سخر قلمه في وجه الصليبيين إلى جانب سيف صلاح

---

(188): سلطان عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 124. من بين أقوال الفاضل التي يشيد فيها بالسلطان، "ولقد سخّر الله سبحانه في صدره بحر الحكمة، وسنح على لسانه جوهره، فهو إن سلك سلك جددا، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، ج 2، ص 178.

(189): وكان الفاضل غائبا عن هذه المعركة فلمّا بلغته كتب إلى السلطان:" ليهن المولى أنّ الله قد أقام به الدين القيّم، وأنه، كما قيل، أصبحت مولى كل مسلم؛ وأنّه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدّموع لم تمسح من خدودها. **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، ج 2، ص 271.

(190): نفسه، ص 125.

الدين، أوقفه وهو يخط رسائله باسم السلطان إلى مختلف الجهات على مدح رئيسه وتخليد مآثره، ورأى فيه نموذجا للقيادة والحكم وجب الاقتداء به، والسير على خطاه، فهو وحده المستحق في زمنه لقيادة الأمة الإسلامية نظير خصاله ومزاياه.

II- العماد الأصفهاني: الموظف المدني المعجب بسيّده

لقد كان معروفا منذ مدّة طويلة بأن الأثر الأساسي عن تاريخ صلاح الدين هو كتاب التاريخ الواقع في سبع مجلّدات من تأليف الكاتب في ديوان صلاح الدين: عماد الدين الأصفهاني، بعنوان " البرق الشامي "، وأنّ هذا الأثر لم يكن المصدر الرئيسي فحسب، بل جرى استخدامه أيضا من جانب كل المؤرخين المعاصرين له تماما، ومن جملة هؤلاء ابن أبي طيء ، وابن الأثير، وسبط بن الجوزي وكمال الدين بن العديم. كما خصص العماد الكاتب مؤلفا آخر سماه " الفتح القسّي في الفتح القدسي" مبحثه حروب صلاح الدين ضد الصليبيين[191].

إنّ العماد الأصفهاني كان الأكثر ملازمة للسلطان صلاح الدين، والأدرى بما جرى معه في حلّه وترحاله، فعدّت كتاباته المصدر الأول حول حياة السلطان عند باقي المؤرخين.

1- العماد الكاتب: من أصفهان إلى بغداد

هو أبو عبد الله بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن محمود بن هبة الله المعروف بابن أخي العزيز الملقب بأله[192]، المشهور بالعماد الأصفهاني الكاتب [193].

ولد بأصبهان سنة (1125/519) وكانت بيئته العلمية ما بين أصبهان ومصر، وتنقسم هذه البيئة إلى قسمين لكل منها طابع خاص متميز عن طابع الأخرى، البيئة الأولى حيث كان منشؤه ومرباه الأول في صباه، وهي بيئة فارسية خالصة لايكاد يخالط فيها هذه الطوائف العجمية من أهل بلاد الجبل حتى العلماء الذين كان يرتاد مجالسهم ويتلقى عنهم ثقافته كانوا من أصفهان إلا بعض الوافدين عليها من بلاد العرب إما للإقامة فيها وإما للرحلة والطواف، وأما بيئته الثانية

---

(191): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي** المرجع السابق، ص 97.

(192): بفتح أوله وضم ثانيه وسكون الهاء، لفظ فارسي معناه عقاب.

(193): ابن خلكان، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، دط، بيروت، دار صادر، ج5، ص 147.

فهي حيث كان مضطربه الواسع في الحياة بين العراق والشام ومصر، وبعد أن انتقل به أبوه من أصفهان إلى بغداد وهو فتى يافع أو دون اليفاعة شيئا قليلا، وهي بيئة عربية ألف فيها أقواما عربا تخالطهم طوائف من الترك والفرس وغيرهم، وقد وجد في أخلاقهم العالية في المعاشرة ومن تقريب الدولة له ما جعله يحبهم حب عصبية [194].

انتظم العماد لما دخل بغداد وهو شاب في سلك طلبة المدرسة النظامية، فتفقه بها على يد الفقيه أبي منصور سعيد بن محمد بن الرزاز، وسمع من علماء أشهرهم منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، وأبو الحسن بن هبة الله بن عبد السلام، وآخرون من مشايخه الكثر [195].

كان العماد الكاتب فقيه شافعي المذهب أتقن الخلاف وفنون الأدب، ولمّا تخرج من المدرسة النظامية اتصل بالوزير عون الدولة ابن هبيرة فولّاه هذا الأخير النظر بالبصرة، ثم واسط ولمّا توفي الوزير مسموما في سنة (1164/560) اعتقل عماد الدين الأصفهاني في الديوان ببغداد مع من اعتقل من أنصاره، فأخذ يستعطف بشعره الخليفة المستنجد بالله، وكتب إلى أستاذ الدار عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء يطلب له الشفاعة عند الخليفة الذي أمر بإطلاقه، وتوفير أرزاقه، ولم تطب الإقامة لعماد الدين ببغداد بعد نكبته فانتقل إلى الشام ليعيش في كنف الدولة النورية، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن أتابك زنكي فبلغ دمشق سنة (1166/562)، فأنزله مدبر دولته قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري بالمدرسة النورية [196]، فخدم بالإنشاء الملك نور الدين وكان ينشئ بالفارسي أيضا، ونفذه نور الدين رسولا إلى المستنجد وولّاه رئاسة العمادية سنة (1171/567) ثم رتبه في إشراف الديوان، وعلت منزلته عنده فأصبح صاحب سره، ولم يزل العماد على هذا النحو مستقيم الحال، رضي البال إلى أن توفي نور الدين وقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيرا فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه ثم عاد إلى الشام، والتحق بخدمة صلاح الدين الذي استكتبه واعتمد عليه وقربه [197].

---

(194): عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، المع العراقي، ج1،ص 13-14.

(195): المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، (1986/1407)، ج1، ص 392.

(196): عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 36-37.

(197): ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب** إلى **معرفة الأديب**، بيروت، دار الكتب العلمية ،ج1، ص 420-421.

2- السلطـان الجامـع: العمـاد فـي خدمـة صـلاح الـدين

ترك العماد تصانيف نافعة منها كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" الذي جعله ذيـلا على " زينة الدهر، تأليف " لأبي المعالي سعد بن علي الوراق الحضري، والحضري جعل كتابه ذيلا على " دمية القصر وعصرة أهل العصر " للباخرزي، والباخرزي جعل كتابه ذيلا علـى " يتيمـة الدهر " للثعالبي، والثعالبي بدوره جعل كتابه ذيلا على كتاب" البـارع " لهـارون بـن علـي المنجم[198]، وصنف أيضا كتاب " البرق الشامي "، و" الفتح القسي في الفتح القدسي" في مجلـد كبير، وكتاب " السيل على الذيل " جعله ذيلا على كتابه" خريدة القصر "، وله" نصرة الفطـرة وعصرة القطرة " في أخبار الدولة السلجوقية، وله رسائل سماها" عتبى الزمان "، وتسمى أيضـا" العتبى أو العقبى "، وكتاب سماه " نحلة الرحلة " ذكر فيه اختلال الأحوال وتغير الأمور بعد وفـاة السلطان صلاح الدين، واختلاف أولاده وما وقع من الخلاف بين الأمراء والعمال ولـه ديـوان رسائل في مجلدات وديوان شعر في مجلدين [199].

عاش العماد بعد السلطان صلاح الدين ثماني سنين وستة أشهر وبضعة أيام لأن السـلطان عام (1192/589) والعماد بعده في سنة (1200/597)، وكان العمـاد في هـذه الفتـرة في شيخوخته محتاج إلى الهدوء والسكينة كل الاحتياج، وكانت أيامه الأخيرة من أخطر الأيام الـتي مرت به في حياته وأكثرها إزعاجا وإيلاما لنفسه، لأنه كان مقربا من السلطة الحاكمة مما يعرضه للخطر عند حكم حاكم آخر غير الذي كان في كنفه، وبعد توثب أبناء صلاح الـدين وإخوتـه الحكم وقع بعضهم على بعض، وكثرت في مماليكهم المتجزئة الأحداث، واشتدت بينهم الحروب، فكان نصيب العماد من هذا بأن أضاع مركزه السياسي الكبير في الدولة، وحرم أرزاقه، واضـطر إلى الانزواء بدمشق حينا وإلى مغادرتا والإضطراب في جوانب الأرض حينا آخر [200].

---

[198]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، ج4، ص 149- 150.

[199]: ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، المصدر السابق، ص 425.

[200]: عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 51. وافق أن ضربت في أيام العماد زلزلة عظيمة امتدت من صعيد مصر إلى أذربيجان، فخسفت بمدن كثيرة، وهلك بها خلق لا يحصون ومنيت منها عامة دور دمشق بالخراب، وكان العماد مريضا وكان إذا دخل أخذ يعوده أنشده:

أنا ضيف بربعكم ** أين أيـن المضيف

أنكرتني معارفي ** مات من كنت أعرف

تدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين، ذلك أن ابنه وخليفته الملك الصالح إسماعيل الذي ولي الملك سنة (1173/569) وهو في الحادي عشر من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه، وطرده من البلاط، وقد تقدم ذكر هذا في الترجمة له، فقصد بغداد، ومنها إلى الموصل التي مرض بها، وبلغه منها أن صلاح الدين قاصد لدمشق ليستولي عليها [201].

كان للعماد معرفة بنجم الدين أيوب - أيام نور الدين- لما كان نجم الدين متولي لقلعة تكريت، فلاقى العماد عند نزوله بالبلد، فبادر لتبجيله والسلام عليه في منزله، ومدحه العماد بقصيدة فشكره نجم الدين، وقدّمه على الأعيان وميّزه، وعرّف به ابنه صلاح الدين فكان هذا أوّل لقاء للعماد به [202].

اللقاء الثاني كان عند سفر العماد إلى حلب، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها فلاقاه في حمص وقد استولى على قلعتها فلزم بابه ومدحه بقصيدة طويلة،كان نظمها قبلا في الشوق إلى دمشق والتآنس بها فجعل مدح صلاح الدين مخلصها [203].

اتصل العماد بالقاضي الفاضل فكان يقدم له مدحه، وكان ما أهداه إليه مديح رائع حين لقيه بحمص[204]، فصادفت هذه المدحة استحسان القاضي الفاضل، وأعجبه ما خبره من اقتدار العماد في الصناعتين، وحذقه الأدب الفارسي، فقرر تعينه في ديوان الكتابة لينتفع من مواهبه[205].

ولشدة ما رأى العماد من هول هذا الزلزال بمصر ودمشق مات سنة (1200/597) بدمشق ودفن بمقابر الصوفية، **انظر**: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، ص 152.

(201): عماد الدين الأصفهاني، **الفتح القسي** في **الفتح القدسي**، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ص 6.

(202): ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، المصدر السابق، ص 420-421.

(203): وللناس بالملك النّاصر الصلاح ** صلاح ونصر وخير

وهو الشّمس أنوارها بالبلاد ** ومطلعها سرجه والسّرير

إذا ما سطا أو حبا أو احتبى ** فما اللّيث أو حاتم أو ثبير

بيوسف مصر وأيامه ** تقر العيون وتشفى الصدور.انظر: ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، المصدر السابق، ص 422-423.

(204):عاينت طود سكينة ورأيت شمس ** فضيلة ووردت بحر فواضل

ولقيت سحبان البلاغة ساحبا ** ببيانه ثوب الفخار "لوائل"

أبصرت قسّا في الفصاحة معجزا ** فعرفت أنّي في فهاهة باقل انظر: ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، ص 422-423.

(205): يقول العماد في هذا الشأن:" ولما وصلت إلى السلطان ،ورغبت منه في الإحسان، وجدته لأمري معقلا ولشغلي مهملا، ثم عرفت أن حسادي قالوا له: متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لاشك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب

لزم العماد حضرة السلطان وأفاد عليه صلاح الدين من رعايته وأوكل إليه أسراره، فتقدم الأعيان وضاهى الوزراء، وكان الكاتب الثاني في الدولة الصلاحية [206]، وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان منشغلا بشؤون الديار المصرية، والعماد ملازم الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم [207].

لما استتب للسلطان صلاح الدين بالشام أمور ممالكه، وأمن على البلاد قرر العودة إلى مصر، فخرج من دمشق يوم الجمعة سنة (1176/572)، وخرج معه العماد تاركا أهله وراءه بدمشق، فما كانوا يرحلون منزلا إلا نظم العماد أبياتا حنينا إلى أسرته، وعاش العماد ما عاش في خدمة السلطان صلاح الدين مصاحبا له في حضره وسفره، فحضر مجالسه، وطاف معه في أنحاء مملكته وشاركه في اقتباس العلم وسماع الحديث من كبار العلماء، وصحبه في حروبه وغزواته كلها لم يتخلف إلا مرّة واحدة، وأبصر بأم عينه قهره للجيوش في سهول مصر وهضاب فلسطين وبطاحها، فأشاد بمناقبه وانتصارات جيوشه، من وحي المشاهدات، فكان لصلاح الدين وللدولة الأيوبية كما كان لنور الدين ودولته من قبله، وكتب وقائع بطولاته في كفاحه لإنقاذ الشرق من قبضة الصليبيين كتابة شاهد عيان، ووصف مناقبه في شعره بأرق لفظ وأعذب بيان، ولما توفي السلطان رحمه الله، رثاه بقصيدة طال نفسه فيها فبلغت 232 بيتا، وكتب سيرته كتابة مستفيضة [208].

كان للعماد مع السلطان الناصر صلاح الدين من الإغضاء والتجاوز والبسط وحسن الخلق ما يتعجب من وقوع مثله من مثله [209]، ولم ينقطع العماد عن مصاحبة صلاح الدين حتى توفي

الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل ولما ضاق صدره وتشعث سره فلما عرفت هذا المعنى ذهبت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يعني، فقام بأمري ونوه لقبري وأراح سري وشد أزري"، ويقول العماد أيضا: فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فيّ راغب وقال أن لا يمكني الملازمة الدائمة في كل سفرة وغدا يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم والعماد يفي بذلك ولك أختاره، وقد عرفت في الدولة النورية مقداره. وأخذ لي خط السلطان بما قرّره لي من شغلي، وقد عرف أن الأجّل الفاضل أجّل فضلي، انظر: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، ج1، ص 633- 642.

(206): عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 35.

(207): ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، ص 149.

(208): العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 44.

(209): المنذري، **التكملة**، المصدر السابق، ج1، ص 393.

سنة (1192/589) فاختلفت أحوال العماد، ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصنيف [210].

لقد كان العماد كاتبا شخصيا لدى صلاح الدين منذ سنة (1175/570) لذا فإن جدارة كتابه بالقبول والاعتماد لا تقل عن مؤلف بهاء الدين "سيرة صلاح الدين"، غير أن القلـة مـن المؤرخين الذين استعانوا مباشرة بالنص تذمروا بصوت واحد مما دعاه لين- بول بـ" خطابّيته التي لا تحتمل". ذلك أن العماد الكاتب كان واحدا من أشهر المؤيدين الكلاسيكيين لذلك الأسـلوب النثري في الإنشاء المتمّيز بشدة الزخرفة والسجع البلاغي، وهو الأسلوب المسـتخدم في ديـوان الرسائل في الممالك الإسلامية الوسيطة، وليس في زمانه من يجاريه في ذلك سوى رئيسه الرسمـي القاضي الفاضل الذي كان وزيرا للدولة عند صلاح الدين وتولّى عنه إدارة الدواوين [211].

3- الـدراسة الببليوغرافيـة لمؤلفـات العمـاد

صنف عماد الدين الأصفهاني كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئا من الفتوحات بالشام وأطرافها، وهو مـن الكتب الممتعة وإنما سماه البرق الشامي لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها.[212] واشتمل البرق أيضا على الرسائل التي بعث بها القاضي الفاضل للعماد والرد عليها من جهته، وكذا الكتب التي وردت من بغداد وكتب بها السـلطان إلى الأطـراف، والقصـائد الشعرية التي مدح فيها العماد صلاح الدين وغيره [213].

البرق الشامي [214] هو العمل الرئيسي للعماد الكاتب ويشمل الفترة كلها مـن ملازمـة المؤلف لصلاح الدين، ومن جملتها السنوات الباكرة عندما كان الاثنان ما زالا يعملان في خدمـة

---

(210): ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، ص 152.

(211): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 71-72.

(212): ياقوت الحموي، **إرشاد الأريب**، المصدر السابق، ص 425.

(213): العماد الأصفهاني، **البرق الشامي**، تحقيق، فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ج3، ص24.

(214): لا يوجد إلا مخطوطة للجزئين الثالث والخامس في مكتبة بودليان Oxford bodlian Library 761/1. **انظـر**: كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف، ج4، ص 7.

نور الدين. وعلى غرار معظم التواريخ العربية الضخمة للقرون الوسطى، فإن البرق الشامي سرعان ما سقط من التداول لصالح التلخيص الذي قام به أبو شامة. فلا تعدوا الأقسام التي يعـرف عـن وجودها، إلى جانب إشارة غامضة لوجود مخطوطة له أو مخطوطات في لينغراد، سوى مجلدين في مكتبة بودليان بأكسفورد (215): الجزء الثالث ويبدأ من الورقة 23 حتى الورقـة 183، والجـزء الخامس من الورقة 17 حتى الورقة 179.

نهج العماد في كتاباته عامة وفي كتاب البرق الشامي خاصة، منهجا فنيا خالصا معقدا كل التعقيد، وكتب به التأريخ الثقافي والسياسي والحربي لعصره، كما كتب رسائله الديوانية، فسجع ورصّع وجانس وطابق، ووازن وافتنّ ما شاء له أدبه أن يفتنّ به من هذه الألوان البديعيـة، فـلا تدري وأنت تقرأ تواريخه أيكتب أدبا أم يكتب تاريخا، وقد أغرق في استخدام ألوان البديع إغراقا لا حد له، والمبالغة الشديدة في انتقاء الشوارد والفصح وماله رنين في السمع من ألفـاظ اللغـة للمجانسة والمشاكلة، والموازنة والترصيع، والإمعان في زخرفة الكلام وإشاعة لألوان البديع فيـه ليدل بذلك الكاتب على مقدرته البالغة، وقد افتن العماد في هذا افتنانا عجيبا والتزم التعقيد حتى في أسماء كتبه نحو "خطفة البارق وعطفة الشارق "وقد تأثر العماد في هذا بالإدمان علـى قـراءة مقامات الحريري منذ فجر نشأته (216).

وقد كان الشداة المتطلعون لصناعة النثر في عصره مسحورين بهذه المقامـات ويحفظونـها ويصوغون على مثالها، لأن الحريري قد بلغ الذروة في كتابتها وافتن في صياغتها وتجميلها لمـا لم يفتن كاتب بمثله، وكانت الزعامة الكتابية في هذا العصر للقاضي الفاضل الذي أضفت حلاوة أدبه على هذه الطريقة رونقا جذابا أوحى إلى أهل زمانه أنه نهج شريعة جديدة كما يقول العمـاد: لا كمنافس له فيه إطلاقا، ولكن ذهب ياقوت الحموي: إلى أن العماد زاحمه فيها بمنكـب ضـخم وخالفه آخرون فعدّوا العماد وضياء الدين بن الأثير الجزري من أتباع الطريقة الفاضلية، وظفـر العماد من تقدير العلماء لفنه بالإطراء الكثير (217).

---

(215): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 73.

(216): عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 60-61.

(217): نفسـه، ص 62.

نظر بعض الأدباء المحدثين إلى نثر العماد فنقدوه وتناول نقدهم سجعه وجناسه وألوان البديع الأخرى دون معاينة لأفكاره، وقد أكثر العماد في الفتح القسي من الجناس وآتى فيه من البديع ما يأتي على حلم الحليم، وقد شهد القاضي الفاضل بأنه كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار، ويقول المحقق في تقديم كتابه " خريدة وجريدة العصر" و شهرته أعظم من حقيقته، لا جرم أنه متمكن من اللغة يرفها كما يشاء بقلمه، والحق أن إخضاع أداب العصور القديمة وأساليبها للمقاييس الحديثة لا يصح على إطلاقه، والمثال الواحد لا يكون شاهدا عدلا في تصحيح الدعوة [218]، وألف العماد كتابه على المنهج الحولي، أو طريقة السنين، فالجزء الثالث يتناول سنتين (573-1177/574- 1178)، والجزء الخامس يشتمل على حوادث سنتي (578-1182/579- 1183) [219].

يوضح النص الأصلي لكتاب " البرق الشامي" (كما قد يمكن استنتاجه من منتخبات أبي شامة ومن " الفتح القسي" بأن تاريخ عماد الدين ليس في أي معنى تاريخا عاديا لرواية الأحداث بل هو أكثر منه في طبيعة المفكرة المهنّية أو السجّل لنشاطات المؤلف الكتابية، وقد جرى تزويده بوفرة من نسخ رسائله أو مقتطفات منها، وبمراسلاته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل، وشهادات التعيين لمختلف المناصب، والتي كانت من إنشائه، بالإضافة إلى مناسباته الأدبّية والشعرّية، وأقل (تكرارا) لتفصيلات شؤونه الخاصة [220].

لكن بما أن عماد الدين لازم صلاح الدين بدون انقطاع تقريبا منذ صيف سنة (1175/570) وحتى وفاته، فالكتاب هو عرض زمني للأحداث يتميز بميزة تسترعي الانتباه وهي أن سرد الأحداث وروايتها يتمّان عادة بصيغة جمع المتكلم، وهذه ممارسة يتحتم لها أن تعطي انطباعا بالخيلاء والاعتداد بالنفس من جانب المؤلف، بيد أنه يشمل روايات الأحداث القليلة التي لم يشهدها، ويعمد في بعض الأحيان إلى رواية الأحداث بإيراد رسالة أو أكثر من رسائله أو رسائل القاضي الفاضل بدلا من اعتماد السرد المباشر [221].

---

[218]: عماد الدين الأصفهاني، **خريدة القصر**، المصدر السابق، ص 62-63.

[219]: راجع، **البرق الشامي**، تحقيق، فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ج 3، و ج 5.

[220]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 73.

[221]: نفسه، ص 73- 74.

حاول العماد تتبع مسيرة صلاح الدين وحرص على الوقوف على أدق التفاصيل التي قـد يعتبرها البعض إطنابا زائدا خاليا من الفائدة، وما مكّنه من ذاك هو قربه من السلطان صلاح الدين ومرافقته له في مسيرة الجهاد، حيث تندر المواقع التي كان العماد فيها غائبا وما أكثر المواضع التي يعّبر فيها العماد عن تحرك صلاح الدين من مكان إلى آخر بصيغة الجمـع، ولا يسـتدل بـذه العبارات على تعظيم السلطان، بقدر ما يستنتج منها شهود الكاتب الأصفهاني لسـير العمليـات العسكرية الصلاحية، وحضوره في جلّ معاركه.

أسلوب كتاب البرق الشامي أقوى من أسلوب الفتح القسيّ، وقد تعرض لمواضيع متعددة تعلقت بالسلطان مباشرة، كالتعرض لشخصه و أعماله أو ما تعلق به بصفة غير مباشرة، كالتعرض لقادته وأمرائه ومستشاريه، ولقيت كتب القاضي الفاضل الواردة على صلاح الدين حضا وافرا في كتاب البرق الشامي مرتبة بفصول يأتي فيها القاضي على ذكر أحوال مصر، أو الشوق للسلطان وحاشيته، أو أيّ أمر استجد معه، أو أي طارئ طرأ مع السلطان فيكتب القاضي كتابا يسأل فيه عن تفاصيل ما وقع.

بعد قراءة محتويات بعض مؤلفات العماد الكاتب لم أقف على تصريح له حول زمن تأليفه لكتاب البرق الشامي. هذا العمل الجاد دوّنه اعتمادا على اطلاعه الشخصي ومشاهدته ومشاركته في الأحداث، ولجأ بصفته متولي الديوان إلى الوثائق الإدارية لتأكيد بعض الأخبار، وتسجيل ما حدث في البلاط، وما شهدته الساحات من وقائع.

الملد الثالث: اشتملت أخبار العماد الكاتب في هذا الجزء علـى سـنتي (573- 574/1177-1178) و خالف في ترتيب الأحداث وطرحها وعنونتها، وحتى نوعها جملة المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة. فهو يورد أحداثا رئيسية تتخللها أخبار ثانوية، والتعريف بـبعض الشخصـيات فضلا عن الحميمية في رسائله الخاصة الموجهة إلى القاضي الفاضل و خليفة بغداد، وبعض الأشعار التي يمدح فيها أحد الشخصيات المهمة.

الملد الخامس: يتناول أحداث سنتي (578- 1182/579-1183) بحيث لم يختلف منهج العماد في هذا الجزء عن الجزء الثالث لا من حيث قوة العبارات، ولا كثرة الفصول التي أنشأها بنفسه إلى مختلف الجهات، وأضاف إلى جانب هذا صكوك تعيين القضاة والولاة والرؤسـاء، فضـلا عـن الأخبار الدقيقة عن الحملات العسكرية وفتوح بعض البلاد.

وهذه جلّ الرسائل التي أوردها العماد في جزئي البرق الشامي الثالث والخامس الباقيين:

المرسل	المرسل إليه	موضوع الوثيقة	الكاتب
- السلطان صلاح الدين - العماد الأصفهاني الكاتب - القاضي الفاضل - السلطان صلاح الدين - القاضي الفاضل - القاضي الفاضل - السلطان صلاح الدين - القاضي	- إلى بعض الملوك والسلاطين - القاضي الفاضل - السلطان صلاح الدين - إلى الخليفة ببغداد والوزير الأول - السلطان صلاح الدين - السلطان صلاح الدين - القاضي الفاضل - السلطان صلاح الدين	- بخصوص نوبة الرملة التي انهزم فيها صلاح الدين أمام جموع الإفرنج وغاب عنها كاتبه عماد الدين الأصفهاني. - مراسلة بينهما تتضمن خبرا من العماد حول تأليف خريدة القصر، وغيرها من القطع الأدبية - بعض المنتخبات حول فقدان القاضي ابن عصرون بصره وإمكانية إبقائه على هرم القضاء، وفصل عن وقعة الرملة ودعاء للسلطان بالتوفيق في مسعاه. - حول وجوب طاعة أمير المؤمنين - تهاني الفاضل لصلاح الدين بالمولود الجديد داوود إضافة إلى حاشية عن أنباء صلاح الدين وأولاده . - حول حوادث مختلفة في مصر عمارة السور، أبيات في السلام، ذكر أولاد السلطان، ذكر الأساطيل. -	- عماد الدين الأصفهاني - عماد الدين الأصفهاني - القاضي الفاضل - عماد الدين الأصفهاني - القاضي الفاضل - القاضي الفاضل - عماد الدين الأصفهاني - القاضي الفاضل - " " " " - العماد

الفاضل	- السلطان صلاح الدين	إجابة من السلطان صلاح الدين للفاضل حول ما كتب.	الأصفهاني الكاتب
- " " "		- حول إلغاء المكوس (الضرائب) في مكّة.	- العماد الأصفهاني الكاتب
- السلطان صلاح الدين	- إلى الخلافة العباسية ببغداد	- مكاتبة من الفاضل تتعلق بوعد صلاح الدين في تخصيص أسير لعماد الدين الكاتب كمملوك.	-العماد الأصفهاني الكاتب.
- السلطان صلاح الدين	- إلى والي مصروالقاضي الفاضل	- يشرح فيها حصار بعلبك	--------
- السلطان صلاح الدين	- الأميران عماد الدين و تقي الدين	- قصيدة قصيرة عن التشّوق إلى مصر نظمها عماد الدين بطلب من صلاح الدين، تتبعها مراسلة من الفاضل.	
--------	--------	- استدعاء القوات العسكرية لدعم جيوش السلطان.	
		- منتخبات من مراسلات العماد مع القاضي الفاضل	

لم أرغب في رسمي لهذا الجدول أن آتي على ذكر كل المراسلات وهي كثيرة، وإنما أوردت أغلبها والمهم منها، والذي كان له حضور في بناء مادة كتاب البرق الشامي التاريخية.

4- البرق الشامـي: كتابـة بلاطيـة ممجّدة لصـلاح الديـن

لا يمدح العماد الأصفهاني سلطانه مباشرة، وإنما يعمد إلى تبجيل ما يحيط به من عسـكر وإدارة وسياسة، وهو بذلك يقصد إلى إظهار بطله على أنه هو صانع الأحداث ومحركها [222].

غاب العماد الأصفهاني عن وقعة الرملة التي انهزم فيها صلاح الدين وقدم أعذارا فقـال:" وأنـا صاحب قلم...وهذه نوبة السيوف لا نوبة الأقلام وفي سلامتنا سلامة الإسلام، والواجب علـى كلّ منّا أن يلزم شغله" [223].

ويظهر هنا اعتداد من العماد بنفسه، على أنه تعرض للنقد ونقل ذلـك فقـال في الـبرق فقال:" ودّعت السلطان وعدت، وأحجمت لما تقدّموا إلا إلهاما من الله بالنجاة من تللك الورطة، ومن الأصدقاء من يقول تخلفت وأعرضت، ومنهم من يقول قد أخذت بالحوطة" [224].

لقد برر العماد عدم حضوره وقعة الرملة وقدّم أعذارا اعتبرها البعض واهية، وأيّد تصـرفه البعض الآخر، غير أنّه نقل على الأقل إعراضه وصرح برأيه ولم يخفه، ودون أن يلجأ إلى ادعـاء شيء آخر حتى لا يتهم بالتقاعس.

لم يعرف من بين المؤرخين الذين كتبوا حول صلاح الدين مثل العماد في الدقّة وتفصـيل الأحداث ونقل أوامر السلطان المباشرة للجيش والأمراء، والأكثر ملازمة له في حله وترحاله. على غرار الأحداث السياسية والعسكرية ذكر العماد بعض القضايا الاجتماعية كالقحط الذي أصاب بلاد الشام، وارتفاع الأسعار والغلاّت، والناس تدعوا الله الرزق وقد ضاقت الأوقات" [225].

يقدم العماد بعض الأعذار لصلاح الدين فهنا مثلا يقول:" تأسف المولى عن التأخر عـن الجهاد الذي خرج مهاجرا لأجله، فالسؤال ليس عن الفعل لكن النّية" [226]، ويتحدث العماد عن تحالف بعض السلاطين مع الفرنج والحشيشية ليقصد من طرف خفي المواصلة وأهل حلب، كمـا يسوق خبر بعض الأمراء والحكام بسبب صلتهم بصلاح الدين.

---

[222]: راجع عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج 3، ص 31.

[223]: نفسـه، ج 3، ص 31.

[224]: نفسـه، ص 31.

[225]: نفسـه، ص 145.

[226]: نفسـه، ص 98.

الخصائص الأسلوبية لكتاب البرق لم تكن مطردة، بل تتنوع أيما تنوع من قسم إلى قسـم ففي بعض الفقرات يأتي التركيب البلاغي موسعا للغاية، وفي البعض الآخر لا يتجاوز كونه عادة في التعبير عن كل شيئ بالنثر المسجّع، وهو نثر مباشر وغير متكلف على نحو بـارز في أحيـان عديدة، وعلى يدي سيد بارع (العماد) من أسياد اللغة والمفردات فإن حقيقة كون رواياته مصوغة كلها بقالب هذا الوسيط لا تسلبها من وضوحها ودقّتها أيّ شيء على الإطلاق [227].

لدى إمعان النظر فيها تبدو عبارات عماد الدين رزينة بشكل ملحوظ، فلو تركنا جانبـا جميـع مسائل الأسلوب الأدبي، لتبين لنا أنا ليست بعيدة الشبه عن الوقائع والتقارير التي يدوّنا موظّف حيّ الضمير من موظفي سلك الخدمة المدنية (كما كان حقا من هذا الطراز) [228].

لقد أبان العماد عن قدرة هائلة على التصوير والسجع وكثرة الألفاظ والتشـبيه، وقيـاس الحوادث على حوادث أخرى وذكر الأمثلة، وطول نفسه في الحادثة فكلامه بليغ، لكن من حيث الوقائع والأحداث فإنه لا يعطي لجوهر القضية أكبر اهتمام، بقدر ما يركز على الذهاب بعيدا في تعديل الخصال والفضائل والمزايا خاصة ما يصدر عن السلطان ووزيره الأول الفاضـل، وكـذا الخلافة التي أشاد العماد با عن طريق جمع رسائله المكتوبة باسم السلطان إظهارا للتبعية وقصـدا لكسب الشرعية والتأييد.

مع أن إسهاب عماد الدين الأدبي أنقص في السياق الطويل من تداول كتاباته، فإنا لحقيقة شائعة بأن جيل المؤرخين بعده أدرك قيمتها تماما واستند إليها بشكل واسع، كان من الصعب قبل ذلك تقرير الحد الأدنى الذي ذهبت إليه اقتباساتم، وبخصوص السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو إلى أيّ مدى يمكننا التعويل على صدق المصدر الرئيسي الأوحد، عماد الدين الكاتب وإذا جـاز التعبير على " ضميره الحي"، ومتى جرى تجريد رواياته من الحشو الكلامي والصنع البديعي، فـإن بيانه للأحداث هو رزين وخال من المبالغة، لكّنه من المتوقع أنّه في أقواله كان متحيـزا إلى حـد ملحوظ بدافع إعجابه بصلاح الدين [229].

---

[227]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 73.

[228]: نفسـ ـه، ص 74.

[229]: نفسـ ـه، ص 93.

من المؤكد أنّ عماد الدين كان يظهر إعجابا عميقا بصلاح الدين، لكن عظمـة الرجـل تتبدى بكاملها كنتيجة طبيعية لازمة عن الحقائق ذاتها، ففي كتاب البرق بمجمله يجري تصـويره بعبارات إنسانية وواقعية، والانطباع الذي يخلفه لدينا كتاب البرق ككل هو أنّه عمل لموظـف في الخدمة المدنية يتميز بالدربة وضبط النفس، وعلى إلمام بسبل السلاطين وغيرهم من المسؤولين، فهو قد اعتاد على التعامل معهم وتدبير أمورهم فيما لو دعت الحاجة، وتدوين أعمالهم بدقّة صـناعته وبكل ما لديه من خصب في الخيال اللفظي فإنه لم ينجـرف أبـدا وراء التيـار وبقـي ثابـت القدمين[230].

ما هو متوفر لدينا من معلومات عن كتاب البرق عدا الجزء الثالـث والخـامس نجـده في منتخبات أبي شامة في كتابه الروضتين، لكن إلى أيّ درجة يمكننا التعويل على تلخيصه باعتبـاره ملخصا شديد الحرص والدقّة، فمن حيث العموم يتمّ تلخيصه (أبو شامة) بمهارة وعناية، بـالطبع تنقصه تلك الصفة الحميمية والشخصية التي في الأصل، فهو لا يقدّم شيئا مـن طابعـه الحيـوي والملحمي إلا في بعض الأحيان فقط، لكنّه يعوّض عن هذا إلى حدّ ما باستئصاله دون رحمة لكـل ما في الكتاب من إطناب أدبي، وصنع بديعي خالص [231].

هناك صفحات بكاملها يتمّ حذفها من طرف أبي شامة أو اختصارها إلى سـطر واحـد، والرسائل الطويلة يجري الاستشهاد بمقاطع منها، كما أن العديد من الوثائق الأخرى الـتي تلقـي ضوءا على مبادئ صلاح الدين هي محذوفة برمّتها؛ كذلك يعاد في بعض الأحيان ترتيب المـادة، لكن كل شيء مما يعتبره أبو شامة وثيق الصلة بالموضوع يتم إدراجه في مكانه المناسب [232].

غير أن ما يضيفه أبو شامة إلى روايات عماد الدين يأتي على الدوام مميزا بعناية فائقة وعليـه نستطيع التأكيد بصورة معقولة أن ملخصاته تمثل محتوى الأصل تمثيلا أمينا، رغم أنّه إزاء فقـدان الأصل يتعذر في الوقت الحاضر استعادة الكثير من المواد القيّمة [233].

---

[230]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 93- 94.

[231]: نفسـه، ص 96.

[232]: نفسـه، ص 96.

[233]: نفسـه، ص 97.

يلي كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب من حيث الأهمية والاختصاص بحياة الناصر صلاح الدين كتاب" الفتح القسّي في الفتح القدسي" في جزء واحد بحث فيه العماد جهود السلطان العسكرية ومواجهاته للفرنج، وهي المرحلة الحاسمة لحروب صلاح الدين ضد الفرنج من سنة (1187/583) إلى سنة (1192/589) بأسلوب بليغ وإطناب كبير في شرح الحادثة وتعظيم شأنها . الفتح القسي في الفتح القدسي الغاية من تأليفه إظهار البلاغة الكلامية في وصف الأحداث التي أدت إلى هذا العمل العظيم، وهو كتاب يلتزم فيه مؤلفه السجع ويتفنن في إبراز بلاغته وفصاحته ويورد كثيرا من الوثائق التي لها علاقة بالموضوع، وذلك بحكم مركزه ووظيفته التي شغلها في بلاط صلاح الدين، ولما كان موضوع الكتاب متعلقا بالحروب الصليبية أكثر من تعلقه بالنواحي الأخرى، ولذلك كانت الوثائق المستلة منه قليلة العدد وإن تكن مهمة [234].

ابتداء من دخول سنة (1187/583) يتعرض العماد في كتابه الفتح لعلاقات قادة الفرنج مع بعضهم البعض، وما جرى بينهم من خلاف فرق وحدتهم، وإلى المعارك التي جرت بينهم وبين السلطان صلاح الدين، وما استرده هذا الأخير من مناطق إسلامية كانت تحت حكمهم، ويخص فتح بيت المقدس بأكبر جزء من كتابه الفتح لتعلق مواضيع الكتاب بهذا الفتح العظيم، ونلمس ذلك من خلال مسمى المؤلف [235].

حاول العماد في كتابه الفتح القسي الإلمام بكل المعلومات التي تعلقت بفتح منطقة ما، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير لأنه كان على مرءا من الغزوات التي كانت ضد الفرنج وشارك في جلها، ويؤخذ عليه الإطالة في وصف الوقعة تعظيما منه لشأنها ولطبيعة الأسلوب السجعي الذي سلكه المؤلف، والذي يعتبر نوعا جديدا طرأ على الكتابة التاريخية لدخول الأدب بقوة فيها [236].

يتكشف كتاب " الفتح القسي " عن كل مميزات الأسلوب الدواويني باشتماله على فقرات خطابية منشأة حول الفصول وغيرها من الموضوعات، والمنتخبات المتكررة من مكاتبات المؤلف

---

[234]: محمد ماهر حمادة، **دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره،** من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، بيروت مؤسسة الرسالة، 1988، ص 217.

[235]: انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي** في **الفتح القدسي،** المصدر السابق، ص 49 إلى 109.

[236]: لم يكن أسلوب " الفتح" أقوى في سجعه من أسلوب " البرق" لاختصاصه في الحديث عن حروب صلاح الدين ضد الإفرنج سالكا نموذجا واحدا في الكتابة، بخلاف التنوع في الأحداث والوقائع التي نقلها في " البرق الشامي" الأكبر حجما والأوسع مجالا.

ورسائله، ويعلل هذا التنميق في اللغة وهو الذي يوازي عموما لدى القراء الغربيين فراغا في المحتوى وإطراء مقيتا، مع العلم بأن خصائصه الأسلوبية لا تقرر في حدّ ذاتها على ما يبدو جليّـا نوعيّتـه كمصدر تاريخي [237]، كذلك فإن قراءته صعبة كما يشير أبو شامة:" وكنت كلما تقـدمت في عملي، ازددت وقوعا تحت سحر كلام الكاتب الشهير. فلم أقرأ البتّة شيئا نظيره، كذلك لم يقع نظري على ما هو أصعب منه من وجهة النظر المعجمّية " [238]، غير أن "الفتح القسّي" لا يظهـر فيه العماد بوضوح إعجابه بصلاح الدين بالقدر الذي نراه في كتاب " البرق الشامي" ولعلّ ذلك راجع إلى الاختلاف في طول المرحلة، والمواضيع التي تضمنها كل من الكتابين.

مما لا سبيل إلى إنكاره هو أن ميزات الأسلوب الذي يأخذ به عماد الدين تنطـوي علـى عيوب، فلو تركنا جانبا الفصول التي يظهر فيها براعته اللغوية الفائقة، هذا الإظهار الذي مهمـا يكن مقبولا إلا أنه يصبح في بعض المواضيع حشوا مّملا عندما لا يدعمه أيّ توتر عاطفيّ يسترعي استجابة من جانب القارئ [239]، وقد علق أبو شامة على ذلك قائلا :" طويل النفس في السجع والوصف،يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عمّا سبق من القول وينسيه " [240].

بعد الإطلالة على ما جاء في كتاب "البرق الشامي والفتح القسي"، ومن خلال ما أثبته من مواضيع مختارة، اكتفيت بها في إعطاء صورة عامة على مضمونيهما، مع عدم يسر ذلك لطبيعـة أسلوب الكاتب، الذي يتيه القارئ بين بديعه وبيانه وينشغل عن المقصود منه، لا يمكننا إنكار أن عماد الدين كان معجبا بصلاح الدين عن اقتناع، لكّنه يقدّم صلاح الدين عـبر العمـل كلّـه كشخص إنساني كلّيا، وكشخصية شهمة وعطوفة بالطبيعة على نحو يتجاوز النوع العادي مـن الأمراء متواضعة وليست معصومة عن الخطأ، وبالتالي عميقة من جدّيتها بإيمان راسخ جليل، هذا الإيمان الذي دعم صلاح الدين في كل نزاعاته وخيباته، على أنّ كل هذا يخلو من أيّ مبالغة فهذا هو صلاح الدين على حقيقته، ولقد أبرز عماد الدين على غير وعي منه الخلق الحقيقي لسـلطانه ومزاياه [241].

---

(237): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 109.

(238): أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ص08.

(239): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 109.

(240): أبو شامة، **الروضتين**، ج 1، القسم 1، ص 08.

(241): أبو شامة، **الروضتين**، ج 1، القسم 1، ص 110.

ويبقى العماد فيما كتبه عن صلاح الدين لا يعدوا أن يكون خادما له فهو الموظف المأمور شغل وظيفة الكتابة عند السلطان، وكان يكتب بأمره والعماد بدوره ينتصر له ويمجده وهذه هي طبيعة الموظف تجاه رئيسه، الذي لا يذكره باسمه إجلالا له بل بصفته، السلطان أو المولى، بعكس ابن الأثير الذي لا يأتي على ذكره إلا باسمه - صلاح الدين -، فالبرق الشامي إذا كتابة بلاطية متأثرة بمزايا وصفات السلطان، وهذه الصورة مخلصها كتاب " الفتح القسّي" وجزءان من كامل كتاب "البرق الشامي" في غياب الأجزاء الأخرى المفقودة منه.

III- ابن الأثير الجزري: الناقم على السلطان الجديد

لقد حلّ جميع المؤرخين الذين قاموا بدراسة حياة صلاح الدين مصدريين عربيين في المرتبة الأولى: المصدر الأول سيرة حياة صلاح الدين للقاضي بهاء الدين ابن شداد "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" [242]، والثاني هو كتاب التاريخ العام "الكامل" لعز الدين ابن الأثير وقد تمتع هذا الأخير، وهو زميل بهاء الدين في الانتماء إلى الموصل، طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحدا من أعظم مؤرخي العالم الإسلامي الوسيط، حتى أنه ليبدو من نافل القول تقريبا أن يصار إلى البحث في مؤهلاته وجدَارته بالاعتماد والقبول، لا سيما وأنه قد عاصر صلاح الدين وكان على اتصال شخصي بإدارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجية [243].

مع أن ابن الأثير قد شاهد صلاح الدين دون ريب، في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء، فلا يوجد أي دليل قاطع هناك على أنه اتصل بصلاح الدين اتصالا شخصيا البتة، غير أن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عموما، مع التماس الاعتذار عند بعض النقاد لواقعة التحامل فقد جرى اعتبارها صادرة عن مؤرخ معاصر للأحداث وحسن الإطلاع عليها [244]، لكن معرفة أسباب التحيز والتحامل ستكشف عن رؤية لا يمكن

---

[242]: نشر شتلنس كتاب النوادر السلطانية سنة 1732 ثم سنة 1755، وطبعت نشرته في ألمانيا سنة 1790، ونشره أيضا دو سلان (de slan) مع ترجمة فرنسية، وطبع الكتاب بالقاهرة سنة 1957/1377، ثم قام جمال الدين الشيال، بتحقيقه وطبع سنة 1964 بالدار المصرية للتأليف والترجمة، **انظر**: بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف، 6/12-13.

[243]: السير هاملتون، المرجع السابق، ص 69- 70.

[244]: نفسه، ص 70.

التسليم بها أو تصديقها كما وردت، خاصة إذا خالفت جمع المؤرخين المعاصرين والأقرب منهم إلى السلطان موقعا و مكانة. هذه النظرة لا يمكننا تقريرها حين تقديم تفسيرات ودلائل تؤكد أن ابن الأثير قد انحاز بشكل لافت في بعض المواضع لسادته وأصحاب الفضل على عائلته آل زنكي، ورفض أساليب صلاح الدين في التعامل معهم، فيما لم يخف إعجابه بالسلطان وتقديره لجهوده الجهادية في مواضع أخرى، غير أنه في أكثر الأحوال لا يبدي عن طريق انتقاء الروايات تحامله على صلاح الدين، وهذا لفرط ذكاء ابن الأثير في الانتقاء والاستدلال بالروايات التي تخدم نظرته وتوجهه.

1- ابن الأثير: من جزيرة ابن عمر إلى الموصل

عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني بن الشيخ الأثير أبي الكرم [245] مولده بجزيرة ابن عمر [246]. كانت ولادته في سنة (1160/555)، حيث نشأ هو وأخواه مجد الدين، وضياء الدين الذي أصبح وزيرا للسلطان صلاح الدين، حيث تحول بهم أبوهم إلى الموصل فسمعوا بها واشتغلوا، وبرعوا وسادوا [247].

وبالموصل سمع ابن الأثير من الخطيب أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي، وأبي الفرج يحي بن حمود الثقفي، وأبي منصور مسلم بن علي السيحي الموصلي وغيرهم، ودخل بغداد رسولا من صاحب الموصل، فسمع بها من الفقيه أبي القاسم يعيش بن صدقة الشافعي الفرائي وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي وغيرهما [248]، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعا إلى العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل الواردين عليه، وكان إماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، حيث أقبل عليه في أواخر عمره، كما كان حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرا بأنساب العرب، فصنف الكامل في التاريخ

---

[245]: شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، بشار عوّاد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405، 354/21.

[246]: **قال ابن خلكان** في **الوفيات**: " والجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون أنا جزيرة ابن عمر منسوبة إلى يوسف ابن عمر الثقفي أمير العراقين، و يقال أن رجلا من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر، فأضيفت إليه، وفي بعض التواريخ هي جزيرة ابني عمر أوس وكامل، وفي تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد أخي أبي الحسن المذكور أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر ابن أوس التغلبي".

[247]: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، المصدر السابق، ص 354.

[248]: المنذري، **التكملة بوفيات النقلة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1407، 349/3.

واختصر كتاب الأنساب لأبي سعد عبد الكريم بن السمعاني[249]، واستدرك عليه في مواضع ونبه على أغلاط وزاد أشياء أهملها.

قال ابن خلكان[250]:"ولما وصلت إلى حلب في أواخر سنة (1228/626) كان عز الدين المذكور مقيما بها في صورة الضيف عند شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب، فاجتمعت به فوجدته رجلا مكملا في الفضائل وكرم الأخلاق، فلازمت التردد إليه، وكان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى مؤانسة أكيدة، فكان بسببها يبالغ في الرعاية والإكرام، ثم إنه سافر إلى دمشق في أثناء سنة (1133/527)، ثم عاد إلى حلب في سنة (1133/528)، فجريت معه على عادة التردد والملازمة، وأقام قليلا ثم توجه إلى الموصل" . وممن رووا عن ابن الأثير، ابن الدبيثي، والقوصي، ومجد الدين العقيلي، وشرف الدين ابن عساكر، وسنقر القضائي وآخرون، ويضيف ابن خلكان إلى هؤلاء أبوه في تاريخ حلب[251].

من مصنفاته إضافة إلى الكامل في التاريخ، كتاب معرفة الصحابة، جمع فيه بين كتاب ابن منده، وكتاب أبي نعيم الأصفهاني، وكتاب ابن عبد البر النمري القرطبي، وكتاب أبي موسى وزاد وأفاد وسماه " أسد الغابة في معرفة الصحابة "، ومن المؤلفات الأخرى، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (مطبوع في مجلد)، وتحف العجائب وطرف الغرائب (مفقود)، وكتاب الجهاد، والجامع الكبير في علم البيان، والمستقصى في التاريخ[252].

ينسب عز الدين ابن الأثير إلى عائلة علمية معروفة، وهو أحد إخوة ثلاثة اشتهر كل واحد منهم بفن من الفنون، فعز الدين صاحب هذه الترجمة اشتهر في فن التاريخ وخالف أخويه بالعزوف عن الوظائف الحكومية، وأخوه مجد الدين أبو السعادات المبارك(**ت** 1209/606)[253]،

---

[249]: توفي ابن السمعاني، سنة (1166/562).

[250]: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، المصدر السابق، 355/3- 356.

[251]: شمس الدين الذهبي، **كتاب تذكرة الحفاظ**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1399/4.

[252]: ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، مج3- 137/5.

[253]: اشتهر هذا الأخير برواية الحديث الشريف وعلمه، صنف كتاب جامع الأصول والنهاية في غريب الحديث والأثر.

وأخوه ضياء الدين نصر الله أبو الفتح [254]. وتوفي عز الدين بن الأثير سنة (1232/630) وقد اختلف في تحديد يوم وفاته[255].

2- ابن الأثير والأسر الحاكمة: صلاح الدين والزنكيين

يبدو أن علاقة ابن الأثير بالسلطان الناصر صلاح الدين لم يكتب عنها الكثير، وقد تتبعنا بعض الإشارات الواردة في كتاب الكامل صرح فيها ابن الأثير بقربه من السلطان الناصر، ففي حوادث سنة (1186/582) قال: "كان قد بلغني من خبير بأحوال صلاح الدين...إلخ" [256] فبلوغ ابن الأثير أخبار عن السلطان دليل على تتبعه لأحواله وما يجري معه، ويضيف في حوادث سنة (1187/583) في ملك صلاح الدين طبرية وقتله لفرسان الداوية [257] والإسبتارية [258] فيقول :" ولقد اجتزت بموضع بنحو سنة فرأيت الأرض ملأى من عظامهم يعني الفرنج" [259]، فاجتاز ابن الأثير هنا على مكان الوقعة، فكان بذلك متواجدا في بلاد داخلة تحت حكم صلاح الدين تصله فيها أخبار عنه لقرب البلاد 'طبرية' من موضع تواجد الناصر صلاح الدين، وأن أهلها يدينون له بالولاء والطاعة . وفي إشارة أخرى نجد هذا الأخير قد رافق السلطان الناصر صلاح

---

[254]: اشتهر ضياء الدين بالأدب والترسل، وكان وزيرا للملك الأفضل علي بن الناصر صلاح الدين، فاتح بيت المقدس، ومن أشهر مؤلفاته "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ومجموعة الرسائل أنظر : ابن الغزي شمس الدين، **ديوان الإسلام**، دار الكتب العلمية، 1411، 167/1.

[255]: قال القاضي سعد الدين الحارثي: توفي عز الدين في الخامس والعشرين من شعبان، وقال أبو العباس أحمد بن الجوهري: مات في رمضان من السنة، وقال المنذري وابن خلكان، وأبي المظفر سبط ابن الجوزي، وابن الساعي، وابن الظاهري، مات في شعبان، ولم يعينوا اليوم وقد عينه الحارثي، ويقول الحافظ الذهبي: " قد رأيت أنا خطه تصحيحا على طبقة سماع تاريخها من نصف شعبان ". **انظر**: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، المصدر السابق، 355/21- 356.

[256]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 16/10.

[257]: جماعة من الفرسان الصليبيين تأسست في سنة (1118/512) يطلق عليها اسم فرسان المعبد، وكان لها دور كبير في الحروب الصليبية أنظر: محمد سهيل طقوس، **تاريخ الأيوبيين** في **مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، بيروت، 1999، ص 24.

[258]: إحدى الفئات الدينية العسكرية ويعرفون أيضا بفرسان القديس يوحنا وهم من الفرسان الصليبيين، وقد تأسست جمعيتهم سنة (1099/492) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وكان هدفها الاول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتم، ولكنها تطورت إلى فئة عسكرية مقاتلة وقد أدت دورا كبيرا في تاريخ الحروب الصليبية، انظر: محمد سهيل طقوس، **تاريخ الأيوبيين** في **مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، ص 24.

[259]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص 27.

الدين في بعض غزواته ضد الصليبيين، ويصرح بذلك في حوادث سنة (1188/584) أنه كـان شخصيا مع السلطان حين نزل تحت حصن الأكراد الواقع داخـل حـدود كونتيـه طـرابلس الصليبية،:" فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي وكنت معه حينئذ فأقام يومين "[260].

وابن الأثير لا يصرح بعدها إن كان قد رافق السلطان في إغارته على الحصون القريبة من حصن الأكراد أم لا.

في حوادث سنة (1188/584) في ذكر فتح برزية عندما يصف القلعة ومدى حصانتها، بحيث يقول : "ورأيت أنا من رأس جبل عال ..."[261] ويواصل حديثه عن برزية فيقول : "ومن أعجب ما يحكى من السلامة أني رأيت رجلا من المسلمين على هذا الحصن...إلخ"[262] وهنا يبين كيف نجى هذا الرجل من الفرنج بأعجوبة، ومن هذا الكلام يتضح أن ابن الأثير كان حاضـرا في حصار برزية إذ كلمة رأيت تثبت ذلك. وفي موضع آخر من حوادث الكامل، يذكر انضواءه في عسكر صلاح الدين:" وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة"[263].

من هذا النص نستنتج قرب عز الدين بن الأثير من جيوش صلاح الدين، وبذا يكون على علـم بأحواله وما يجري معه. أما في بيان علاقة صلاح الدين بالزنكيين فنذكر لذلك علاقته هو وأسرته، وهذا لتعليل كيفية تناوله لهم، وتعرضه لشخص صلاح الدين.

في كتاب الكامل أحداث تبّين هذه العلاقة ففي حوادث سنة (1146/541) عند ذكر قتل عماد الدين زنكي قال:" حدثني والدي عن بعض خواصه قال:" دخلت إليه في الحال وهو حـي عنـد طعنه،... ثم فاضت نفسه لوقته رحمه الله "[264].

فهنا نجد أن والد المؤرخ ابن الأثير، كان مقربا من خاصة عماد الدين زنكي، لتحديث ابنه عنهم، ولكونه من أعيان بلدة جزيرة ابن عمر، ويضيف ابن الأثير حديثا آخر عن تولي أخيـه قريـة في الموصل من قبل أمير من أمراء السلطان صـلاح الدين في حوادث سنة (1190/586) فيقـول:

---

(260): نفسـه، 48/10.

(261): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص 54.

(262): نفسـه، ص55.

(263): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص63.

(264): نفسـه، 142/9.

"ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلـد الموصـل قريـة، وكـان أخـي يتولاها"[265].

كانت الموصل تحت إمرة الزنكيين وكان مجد الدين أخو ابن الأثير عز الدين مقرب مـن الأسرة الزنكية وشارك في إدارة شؤون الموصل، وفي أحداث السنة الأخيرة لحكم صلاح الـدين (1193/589) تظهر فيها جليا علاقة آل ابن الأثير بالزنكيين، وذلك في بيان علاقـة صـاحب الموصل عزّ الدين زنكي بمجد الدين ابن الأثير حيث جاء في الكامل من أحداث هذه السنة أن عزّ الدين جمع أهل الرأي من أصحابه فاستشارهم فيما يفعل " فسكتوا، فقال له أحدهم وهو أخـي مجد الدين أبو السعادات المبارك، أنا أرى أنك تخرج مسرعا فيمن خف من أصحابك وتتقـدم إلى الباقين باللحاق بك" [266]، إذ أشار مجد الدين على عز الدين بالخروج إلى بلاد العادل وأخـذها منه.

أما بالنسبة لعز الدين بن الأثير، فيذكر في مقدمة الكامل أن السبب الذي دعاه لإكمـال تاريخه بعدما أعرض عنه، بروز السلطان الزنكي بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي، صـاحب الموصل (ت1258/657) فيقول:" وحينها شرعت في إتمامه" [267]، وفي هذا المقام يثني ابن الأثير على هذا الأمير ثناءا كبيرا بحكم قربه من البلاط الزنكي بالموصل غير أنه لم يشارك فيه، كما أفرد مؤلفا حول الدولة الزنكية سماه" التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" وهو في تاريخ الدول، ويقصد بالدولة الأتابكية الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل سنة (1127/521).

---

[265]: نفسـ ـه، 83/10.

[266]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص121.

[267]: نفسـ ـه، 9/1.

3- الكامـل في التاريـخ: تاريـخ عالمـي بالمنظـور الكلاسيكـي

يعتبر الكامل في التاريخ تاريخ عالمي بالمنظور الكلاسيكي إذ يعد من أهم المصادر التاريخية عند المؤرخين المسلمين بما يعرف في العصر الوسيط لشموليته تاريخ العالم الإسلامي، من أقصـى بلاد الهند ونواحي الصين شرقا حتى أقصى بلاد المغرب والأندلس غربا، وتناوله لأخبـار الـروم والفرنج الأوروبيين، وأخبار الكرج والبلغار والصقالبة، والأرمن وغيرهم من الأمم، وتغطيته لفترة طويلة من عصر حروب الإفرنج ضد المسلمين، وهي المرحلة الحافلة بالأحداث الخطـيرة، والـتي تعرضت فيها بلاد الشام ومصر لخطر الإرهاب المسيحي، ومرحلة الجهاد وتحرير الرهـا، وبيـت المقدس، وبذا نصبح أكثر ثقة وتثبتا بما يرويه ابن الأثير عن هذه المنطقة في تلك الحقبـة، فهـو الأقرب إليها زمانا ومكانا [268] وهو هنا، يماثل المؤرخ العماد الأصفهاني لمعاصـرته ومعايشـته للأحداث، ومرافقته لصلاح الدين، وكذلك الأمر بالنسبة للمؤرخ باء الدين ابن شداد.

كما أنه يمكن اعتبار الكامل في التاريخ خير ما ألف من الحوليات في التاريخ العالمي مـن منظور إسلامي، فهو كتاب يتميز باتزانه في بحث الفترة الشاملة التي درسها، وفي تاريخ ما قبـل الإسلام يبحث في خلق العالم، وتاريخ بني إسرائيل مختلطا مع تاريخ الفرس ثم قصص النصـارى والقديسين، والعرب ، والجاهليين، ثم يبحث حياة الرسول- صلى الله عليه وسـلم- بالتفصـيل، وهو يبدي أسفه من أن من كان في الموصل فلا بد أن يغفل عن حوادث المناطق البعيدة في الشرق والغرب، ومن الواضح أنه لو حذفنا هذا النص الصريح فإننا نجده قد بذل جهده على الأقل لمراعاة توازن معقول بين الأحداث في كافة أنحاء العالم الإسلامي، رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجـاح التام، أضف إلى ذلك أنه حاول إنصاف الأحداث العجيبة، وتراجم الشخصيات البـارزة دون أن يبالغ فيها، وعندما يقترب من عصره يحاول تفصيل الأحداث التاريخية [269].

ابتدأ الإخباري ابن الأثير كتابه بأول الزمان وأنهاه بعام (1230/628)، وهو من أمهات الكتب التاريخية والمصادر الإسلامية بلا ريب، سار فيه صاحبه على طريقة الحوليات، مـع ذكـر جميع تفاصيل الأحداث التي تقع يوما بيوم، وشهرا بشهر، وسنة بعد أخرى، واستخلص بما وصله من مصادر تاريخية، وتخيّر منها ما هو أقرب إلى الصدق لكلّ حادثة، ثم أعاد صـياغتها بأسـلوبه

---

(268): نفســه، 6/1.

(269): فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**،ت، صالح أحمد العلي، بيروت: مؤسسـة الرسـالة، 1403-1983، ص 202.

الخاص [270]، ويعاب عليه أنه لم يذكر مصادره الأصلية التي أصبح البحث عنها من أشق الأمـور وأعزها منالا[271]، ويبدو أنه كان متعمدا في تضليل قرائه بدليل قوله في هذا الصـدد" ثم ذكـر أصحاب التواريخ" و "حكى أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ" وكان في مقدوره أن يـذكر أسماء هؤلاء جميعا، وأسماء تواريخهم التي أشاروا إليها، على أن ابن الأثير أحسن الإجادة في موازنة التاريخ لأقاليم العالم الإسلامي ومعادلتها [272].

يولي ابن الأثير ابتداءا من الجزء التاسع أهمية خاصة لما يكتبه، نظرا لأنه يـؤرخ لأحـداث قريبة العهد من زمنه سمع بها، وشارك في بعضها، وعالج في هـذه الفتـرة الممتـدة مـن سـنة (1058/450) ما وقع من صدام بين ما عرف فيما بعد بالغرب المسيحي، والعـالم الإسـلامي [273] والذي اصطلح عليه باسم الحروب الصليبية (Les croisades) في الدراسات الغربية.

ويظهر ابن الأثير أحيانا لمحات من البصيرة التاريخية الحقة، فهو مثلا يعتبر استلاء حملة الصـليبيين على غزة سنة (1197/491) جزءا من هجوم ذي ثلاث شعب شنته المسـيحية الغربيـة علـى الإسلام من الأندلس وصقلية، وقلب دار الإسلام، كما نجده ترك في أحد المناسـبات الترتيـب الحولي لكي يقدم صورة منسقة للسنوات الأربع للاضطراب المسيحي سنة (1217/614) إلا أنه في بعض النقاط الأساسية لم يرتفع في الحقيقة عن المستوى العادي للجامع الحولي، وهو كثيرا مـا يعتمد على مصدر واحد فحسب رغم أنه يحاول إكمال المصادر الناقصة من كتب أخرى كمـا فعل في أخبار الطبري [274].

---

[270]: نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 9.

[271]: إن أغلب روايات ابن الأثير يكاد يكون مصدرها الأوّل مؤلف عماد الدين الأصفهاني" البرق الشامي"، فالروايات مثلا الموجزة للأحداث في سوريّة والتي تشغل الفصل كلّه في تلك السنة (هجوم الفرنجة على حماة، ثورة ابن المقدم وحصار بعبك، وغيرها عن الهجمات الصليبية)، كلّها تنسخ مادة روايات عماد الدين، غير أنّه ممّا يقبل الجدل لأنّها قد تكون مسـتقاة مـن رسائل رسمّية ومصادر أخرى، والألفاظ العامة بالذات التي يستخدمها ابن الأثير لا تسمح بأي برهان على وجـود اعتمـاد مباشر. انظر: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 77.

[272]: ابن الأثير، المصدر السابق، ص 10.

[273]: يسرى عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر،** بيروت، دار الكتب العلميـة، ص 36-37.

[274]: فرانز روزنتال، المرجع السابق، ص 203.

ومثال ذلك أن الطبري مع تتبعه المسهب لحركة الفتوحات الإسلامية، فإنه يهمل الحديث تماما عن كيفية فتح المسلمين للساحل الشامي، فأتى ابن الأثير ليسد هذه الثغرة في الكامل فنقـل خبر تلك الفتوحات عن فتوح البلدان للبلاذري، وهذه قضية واحدة من جملـة قضـايا أهملـها الطبري، وعمل ابن الأثير على إثباتا وتدوينها، اعتمادا على المصادر القديمة المعروفـة لـدينا أو المصادر المفقودة التي لم تصلنا [275].

وتجلت مواهب ابن الأثير في طريقة عرضه للحقائق، إذ حذف التفاصيل الـتي لا تـدعو الحاجة إليها، وأمعن في فحص المصادر واختار من النصوص ما يناسب الحقائق في كل خلاصـة لكل ما وقع من الأحداث في السنة [276]، ولابد هنا من الإشارة إلى المنهجية التاريخية التي اتبعهـا ابن الأثير في الكامل، وهي إسقاطه للروايات المتكررة التي حشدها الطبري في تاريخه ونقـده لهـا والأخذ بصحيحها، وأظهر بذلك حسه التاريخي الواضح والمتفوق مما عداه من العلوم والفنون التي شارك فيها، ولم يسلم بكل ما نقله عن الطبري، بل أعمل النقد في مواضع كثيرة، وزاد عليه بابـا مهما تناول فيه - أيام العرب في الجاهلية- لتأصيل تاريخ الأمة الإسلامية [277].

أما في بعض الحوادث النادرة يذكر بصراحة أنه يستخدم أكثر من مصدر واحد، والكامل غني بالمعلومات والشهادات الهامة حول سيطرة الإفرنج على بلاد الشام، وبـذا يكـون عمـلا عظيما، ومن عمدة كتب التواريخ الشمولية المختصرة على المنهج الحولي [278].

على الرغم من تفوق عز الدين ابن الأثير في حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به، وخبرتـه بأنساب العرب وأخبارهم، وتفوقه في مجال الأدب إلا أنه اشتهر في علم التاريخ أكثر مـن غـيره فكان محبا له [279] ولهذا راح ابن الأثير يطالع كتب التواريخ التي ألفت وكتبت في زمنه، فوجدها ناقصة من حيث تحليل الروايات والشمولية في الطرح فعوضها بكتابه الكامل.

بسبب ما رآه ابن الأثير من كتب التواريخ التي طالعها، وما وجده من إخلال فيها عـزم على تأليف كتابه المتميز باتصال أحداثه إلى زمنه، ويصرح بنقص كتابه، وأنه لم يجمع فيـه كـل

---

[275]: ابن الأثير، المصدر السابق، مقدمة المحقق، 1/7- 9.

[276]: يسرى عبد الغني عبد الله، المرجع السابق، ص 36.

[277]: ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، 1/9.

[278]: فرانز روزينتال، المرجع السابق، ص 203.

[279]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 1/6.

الحوادث المتعلقة بالتاريخ، ويعلل ذلك بوجوده في الموصل، وهو يؤرخ للشرق والغرب، وبذا لابد أن يشذّ عنه ما هو في أقصى المغرب والمشرق لبعده عن تلك الحوادث، فاجتمعت أسباب لتأليف ابن الأثير لكتابه، هي حبه للتاريخ وميله له، وتفوقه فيه أكثر من العلوم الأخرى ولما رآه من المؤلفات الغير جامعة، والتي لا تحوي تاريخا متصلا، لهذا شرع في تأليف كتابه الذي درس فيه التاريخ العام للعالم الإسلامي [280].

اعتمد ابن الأثير في تأليف كتابه على مصنفات منها تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت 922/310)، وغالبا ما يشير إليه بقوله " قال " دون ذكر اسمه وهو يعنيه، كما اعتمد على مصادر أخرى خاصّة حول أيام العرب في الجاهلية والتي لم يتحدث الطبري إلا عن بعضها، منها ابن اسحق (ت 768/151) وكتب هشام الكلبي (ت 819/204) والواقدي (ت 822/207)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 824/209)، وفي فترة ما بعد الطبري اعتمد على أمثال: أبي زكرياء الأزدي الموصلي صاحب تاريخ الموصل(ت 945/334)، وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ت 1030/421)، والوزير أبي شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم (ت 1095/488)، وثابت بن سنان بن قرة صاحب التاريخ (ت 975/365)، وابن منده الأصبهاني صاحب تاريخ أصبهان (ت 1077/470)، وابن الصابي صاحب التاريخ (ت 1087/480)، وابن القلانسي صاحب ذيل تاريخ دمشق (ت 1160/555)، وابن السمعاني صاحب ذيل تاريخ بغداد ومرو (ت 1167/563)، و القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي (ت 1199/596) في مذكراته ورسائله، والعماد الأصفهاني (ت 1200/597) في كتاب البرق الشامي[281]، حيث يقول في حوادث سنة (1175/571) [282]، وقد ذكر العماد في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية ويورد بعدها القول، ويضيف أيضا في اعتماده على كتاب العماد في حوادث سنة

---

[280]: نفسه، 7/1.

[281]: بالنسبة لتاريخ بلاد الشام خلال السنين (573- 574 هـ)، لا توجد واقعة مذكورة في تاريخ ابن الأثير دون أن يذكرها كتاب عماد الدين، والواقع أنّ الشيء الوحيد الذي يحول بين التأكيد الصريح بأنّ كلّ واحدة من هذه الروايات كانت مستقاة من البرق هو العادة التي درج عليها ابن الأثير بثبات في إعادة صياغة محتوى الفقرات التي يستخدمها بلغته الخاصة، ممّا يؤدي إلى استبعاد الحجّة النهائية عن التطابق في التعبير اللغوي. انظر على سبيل المثال: عماد الدين الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج 3، الذي يشتمل على كامل روايات السنتين.

[282]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 58.

(1190/586) فيقول ذكر العماد في كتابه البرق الشامي [283]، ثم يورد القول، وابن عساكر (ت 1176/572)، وابن منقذ (ت 1188/584)، وابن الجوزي (ت 1200/597)، واعتمد أيضـا على كثير من كتب الأدباء والمحدثين وغيرهم ككتب المبرد، ودمية القصر للباخرزي، ومشـارب التجارب للبيهقي، وصحيح البخاري...وغيرها [284].

ويقول: في هذا الشأن أيضا أنه لم ينقل إلا عن الكتب المشهورة، بالإضافة إلى الروايـات الشفهية عن حوادث كانت قريبة منه نقلها عن بعض أصدقائه وخلاّنه فيقول في حوادث سـنة (1168/564) في ذكر ملك صلاح الدين مصر: "حكى لي بعض أصدقائنا ممن كان قريبا إليـه خصيصا به"[285]، وفي السنة التي بعدها (1169/565) في ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحتـرزوا من مثلها يقول: "حدثني والدي رحمه الله " [286]، ويأتي بالحديث بعد ذلك، أو "حكى هذا بعض فضلاء الأكراد"، و" حكى أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، أو " حكى لي بعض من كـان يلازمه أي يلازم الملك "القاهر" أحد ملوك الموصل والزنكيين، أو حدثني بعـض الأسـرى...إلخ [287].

كما أنه اعتمد على المتخصصين للموازنة بين أقاليم العالم الإسلامي، فاعتمد على الهمذاني وابن حمدون، وابن الجوزي في تاريخ العراق، وعلى عماد الدين الكاتب وزبدة التواريخ للحسيني في تاريخ فارس، وعلى ابن شداد الصنهاجي في تاريخ المغرب، وعلى ابن عسـاكر في التـاريخ السوري [288]، وبخصوص الفترة التي عاصرها وما تعلق بأخبار صلاح الدين فإن مصدره الرئيسي الذي لم يصرح بالأخذ عنه إلا في موضعين، وعمل على صياغة الروايات صياغة أخـرى همـا الأثران اللذان كرسهما العماد الأصفهاني لحياة صلاح الدين " البرق الشامي" و" الفتح القسي في الفتح القدسي" [289].

---

(283): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 10/87- 88.

(284): جمال فوزي، المرجع السابق، ص 58.

(285): ابن الأثير، المصدر السابق، 9/354.

(286): نفســه، 9/354.

(287): جمال فوزي، المرجع السابق، ص 61.

(288): نظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 9.

(289): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 75،80.

انتهج ابن الأثير منهجا في روايته للأحداث فقام بنقد كتب التاريخ التي طالعها ويقول أنهم يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، ويبين هو منهجه فيقول:" فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد، وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت ، فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض" [290]، كما أنه نَهَجَ طريقة الطبري في الكتابة على منهج السنين أو الحوليات، وهذا منهج يهتم ببعض الوقائع والأحداث في مختلف بقاع الدنيا، المعروفة آنذاك، وتسجيل الوفيات ومختصر الحوادث الصغار في نهاية كل سنة مع التزام الاختصار، غير أن مشكلة هذا المنهج هي فصل الأحداث التاريخية بعضها عن بعض، لأن المؤرخ الحولي يجمع أحداثا متفرقة لا يربطها سوى عقد الزمن، وإذا كان للحادثة بقية فإن على القارئ أن يتتبع الحادثة سنة بعد أخرى في الكتاب مما يشتت ذهن القارئ، وبالتالي ينعدم الترابط والتسلسل للأحداث [291].

يبّين ابن الأثير هذا المنهج في مقدمة كتابه حين يقول:" وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها " [292]، أما الحوادث الصغيرة فقد أفرد لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة، وإذا ذكر من ملك فإنه يذكر جميع حاله منذ ابتداء أمره، وذكر في آخر كل سنة من توفي من مشاهير العلماء، والأعيان والفضلاء، وجمع ابن الأثير أكثر كتابه ثم توقف لمدة طويلة بسبب حوادث جرت معه وهموم توالت عليه [293].

إن العصب الأساسي لرؤية ابن الأثير هو الدين الإسلامي، مضافا إليه الموروث الفكري للأمة، من فقه معلم بمختلف اتجاهاته وكذا الموقف السياسي الذي يكشف عن العلاقة التي تشدّ المؤلف بالمؤسسة السياسية والدور المؤثر للظروف الطبيعية والاقتصادية التي يتحرك الناس والمؤلف واحد منهم، تحت ظلها و في رحمها.

اعتمد ابن الأثير في تشكيل رؤيته للتاريخ، وفهم أحداثه وتفسير محركاته، على منظور ديني خالص، وانطلق من الحقيقة الثابتة الساكنة، علّة هذا الكون، طبيعة وإنسان، وما انتهى إليه من

---

(290): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 9،7/1.

(291): محمد زيان عمر، **مدخل إلى علم التاريخ**، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ص 80،75.

(292): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 10/1-11.

(293): نفسه، 9/1.

تشكيلات اجتماعية، مؤسسات ثقافية ودستورية والتي دفعت الأحداث التاريخيـة إلى الحركـة والصيرورة؛ إن هذه الحقيقة كاملة مغلقة تحرك الأحداث من الخارج، وإن الأحداث التاريخيـة إن جاز لنا أن نحددها هي حقائق ناقصة تنمو وتتعقد، وتتشكل من جديد بتأثر الظروف المحيطة بـها والضاغطة عليها [294].

يتدرج البحث التاريخي عند ابن الأثير في اتجاهه الانحداري مع تدرج عملية الخلق وبـهذا السلوك يتخطى البحث التاريخي زاوية شائكة، ليتجه نحو الأرض (الامتداد الزمكاني)، والإنسان الخلية الحية القابلة للامتداد والانكماش، والتي تحتل بوعي موقعا لها في هذا الامتداد الزمكاني تتأثر وتؤثر في الظروف المحيطة بها، ويتركز البحث التاريخي عنده من حيث المركزية على حقيقة مهمة هي ظهور الإسلام وتتكشف أبعاد هذه المسألة من خلال إعادة قراءة تأليفات ابن الأثير فقد خص الأحداث السابقة بداية الخلق المجلد الأول وجزءا من المجلد الثاني، في حين تركزت الأجزاء الباقية ودارت حول الحقيقة الجوهرية (الإسلام)، ويرسم ابن الأثير بذلك مركزية جديـدة للبحـث التاريخي بعد الأحداث السابقة للنبوة وما جرى فيها من صراعات ، تحددت بالبعث الجديد لمسار الأمة العربية نحو تحقيق هويتها [295].

لقد قسم ابن الأثير التاريخ (إلى حقب) أو فترات لكل منها الطابع المميز، يفصـل بينها وبين الفترة السابقة عليها حادثة تعتبر نهاية لعصر سابق، وبداية لعصر جديد، رغم وجـود خيط التواصل، عبر مسار الحركة التاريخية، الذي يخترق جدار الحقب التاريخية مجتمعـة [296]، و نشير هنا في الجدول التالي إلى بعض هذه الحقب التاريخية التي انتشرت على شبكة التاريخ العربي.

---

[294]: محمد جلبوب فرحان، **منهجية ابن الأثير** في **كتابه الكامل** في **التاريخ**، العدد 07، ص 149.

[295]: نفسـه، ص 149.

[296]: نفسـه، ص 155.

4- الفترات التي تناولها كتاب الكامل في التاريخ

الفترة	السنوات والمواضيع	الأجزاء والصفحات
1- القـــول في الزمان والأنبياء	- ما قبل نبوة محمـد - صـلى الله عليـه وسلم-	- المجلد الأول من ص5 إلى ص646 بمجموع 641 ص.
2- العهد النبوي	- من بعثة النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى وفاته - من البعثة إلى سنة (632/11)	- المجلد الأول: من ص646 إلى نهايته. - المجلد الثاني: من ص5 إلى ص180 بمجموع 284 ص.
3- عهد الخلفـاء من الصـحابة دون معاوية-رضـي الله عنه-	- من خلافة أبي بكر- رضي الله عنـه-إلى تسليم الحسن بن علي -رضي الله عنـه- الخلافة لمعاوية-رضي الله عنه- - مـن سـنة (632/11) إلى سـنة (660/40)	- المجلد الثاني: من ص 187إلى نهايته بمجموع 384 ص.
4- العهد الأموي	- من خلافة معاوية- *رضي الله عنه-* إلى نهاية خلافة مروان بن محمد -مـن سـنة (661/41) إلى سـنة (749/132)	- المجلدالثالث:من ص5 إلى ص 550 - المجلد الرابع:من ص5 إلى ص 414.بمجموع 954ص
5- العهد العباسي الأول	- من نهاية الدولة الأموية وخلافة أبو العباس السفاح إلى خلافة الواثق بالله - مـن سـنة (749/132) إلى سـنة (846/232)	- المجلد الخامس:من ص5 إلى نهايته - المجلـد السـادس:مـن ص5 إلى ص111.بمجموع 687 ص.
6- العهد العباسي الثاني	- من خلافة الواثق بالله إلى خروج التتار إلى أذربيجان وطاعة أهلها لهم - مـن سـنة (846/232) إلى سـنة (1230/628) ونهاية الكتاب	- المجلد السادس: من ص111 إلى نهايته. والمجلد الثامن والتاسع والعاشر.

يمكن تقسيم العهد العباسي الثاني إلى حقب مختلفة

أ- ما بعـد العهـد العباسي الأول	- من خلافة الواثق بالله إلى ابتداء حكـم الأسرة البويهية - مـن سـنة (846/232) إلى سـنة (942/321)	- المجلد السادس:من ص111 إلى نهايته .بمجموع 678 ص.
ب- عصر الأسـرة البويهية	- من ابتداء أمر آل بويه إلى إلى ابتـداء حكم الأسرة السلجوقية - مـن سـنة (932/321) إلى سـنة (1040/432)	- المجلد السادس:من ص5 إلى نهايته .بمجمـوع 792 ص.
ج- عصر الأسـرة السلجوقية	- من نهاية حكم أسرة آل بويه وابتـداء أمر الأسرة السلجوقية إلى بداية دولـة آل زنكي - من سـنة (1040/432) إلى سـنة (1127/521)	- المجلد الثامن:من ص 5 إلى نهايته .بمجموع 704 ص
هـ- عصر دولة آل زنكي	- من ابتداء أمر عماد الدين زنكـي إلى وفاة نور الدين زنكي -من سـنة (1127/521) إلى سـنة (1173/569)	- المجلد التاسع: من ص5 إلى ص 395. - المجلد العاشر: من ص5 إلى ص 125 بمجموع 390ص
و- عصر صـلاح الدين	- من وفاة نور الدين ،وخلـو السـاحة لصلاح الدين، إلى وفاة الناصر - من سـنة (1173/569) إلى سـنة (1193/589)	- المجلد التاسع:من ص395 إلى نهايته. - المجلد العاشر:من ص5 إلى ص125.بمجمـوع 300 ص
ز- عصر ما بعـد صلاح الدين	- من وفاة صلاح الـدين الأيـوبي إلى خروج التتار إلى أذربيجان وطاعة أهلـها لهم - من سـنة (1193/590) إلى سـنة (1230/628) ونهاية المؤلف.	- المجلد العاشر: ص126،إلى نهايتـه بمجمـوع 327 ص.

بعد تقديم ابن الأثير لكتابه، ذكر الوقت الذي ابتدأ فيه بعمل التاريخ في الإسلام، يدخل في الحديث عن أول الزمان والأنبياء والرسل، وهي فترة طويلة تعرض فيها ابن الأثير لبداية الخلـق وحياة الأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، واعتمد ابن الأثير في التـأريخ

لهذه الفترة على منهج الموضوعات، فجاء الحديث عما في هذه الفترة سياقا واحدا دون انقطـاع، يتلو بعضه بعضا، أما المراجع التي اعتمد عليها فتاريخ الطبري، وبعض الكتب المشهورة.

المرحلة الثانية هي فترة النبوة، وهي فترة قصيرة زمنيا ولكن ابن الأثير أفرد لها جزءا مـن كتابه قارب الثلاثمائة صفحة تناول فيها ما قبل هجرة الرسول- صلى الله عليه وسلم- على طريقة الموضوعات، أما من الهجرة إلى نهاية المؤلف فسلك فيه المنهج الحولي لاعتماده التقويم الهجري.
أما المرحلة الثالثة التي تعرض لها ابن الأثير فهي عهد الخلفاء من الصحابة دون معاوية – رضي الله عنه-، وإن كان معاوية يدخل ضمن هذه المرحلة لكونه من الصحابة ولكن جعله المؤلف في الفترة الزمنية للدولة الأموية لاعتباره المؤسس الأول لها، ويليه في ذلك عبد الملك ابن مـروان المؤسـس الثاني واستقى ابن الأثير جل معلوماته عن هذه الفترة من تاريخ الطبري كما صـرح بـذلك في مقدمة الكامل، وذلك لإتقان الطبري وعدالته، وحسن ضبطه، وقربه من الفترة أكثر مـن غـيره والخوف من احتمال الطعن في صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

العهد الأموي هو أطول الفترات التي كتب عنها ابن الأثير، وقد جعله المحقق في جـزئين الثالـث والرابع لمدة 92 سنة فقاربت بذلك ألف صفحة من حيث الحجم. المرحلة الخامسة هي العهـد العباسي الأول الذي قدر بمائة سنة تقريبا، ويكاد أن يكون مساويا للفترة الأولى من حيث عـدد الصفحات وقد جاء ناقصا إذا ما قورن بالعهد الأموي الأقل سنينا والأكـبر حجمـا في عـدد صفحاته.

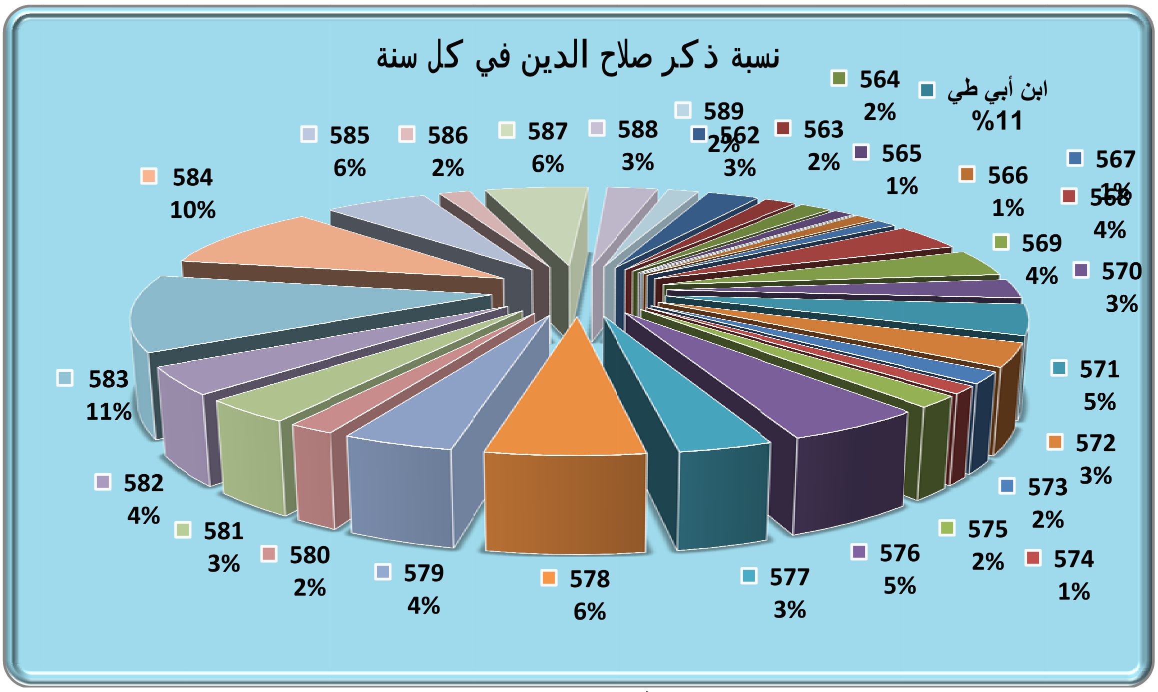
المرحلة السادسة هي العهد العباسي الثاني، أطول العهود على الإطلاق، ولكن قسـمته إلى حقب حتى يتسنى لنا معرفة ما جرى في هذا العصر بشيئ من التفصيل عن طريق فترات صـغيرة، وابتدأنا في تقسيمنا لهذه الفترة بعهد ما بعد العصر العباسي الأول أو كما اصطلح عليه باسم نفوذ الأتراك، أفرد له ابن الأثير جزءا قارب الفترة الأولى أيضا في عدد الصفحات.

وتلت هذه الفترة عصر الأسرة البويهية، وقد اعتمد هذا التقسيم نتيجة للتغيير الطارئ في الحكـم عند دخول عنصر الأتراك بغداد، وتحكمهم في أوضاع الدولة وما صحب ذلك من اضـطرابات، مسّت جلّ جوانب الحياة، وكذلك الأمر مع الأسرة التي جاءت بعدها وهي الأسرة السـلجوقية، والتي قاربت في حكمها سابقتها، بالإستقلالية في القرار السياسي وإضفاء شـرعية خلفـاء بـني العباس، وتكاد أن تكون الفترتين متساويتين من حيث الكم.

في خضم حكم الأسرة السلجوقية تكونت أتابكيات، ونخص هنا بالذكر أتابكية الموصل التي أصبحت دولة فيما بعد اصطلح عليها باسم الدولة الزنكية، بداية من مؤسسها عماد الدين زنكي، وعلى الرغم من قصر عمر هذه الدولة إلا أن ابن الأثير يفرد لها ثلاثمائة وتسعون صفحة، تركيزا منه على هذه الحقبة لمعاصرته لها وقرب عائلته من حكام هذه الدولة، وكذلك الأمر مع عصر صلاح الدين الذي لقي اهتماما خاصا في كتاب الكامل، إذ أن فترة عشرين سنة مدة هذا العصر كتب عنها المؤلف ثلاثمائة صفحة اهتماما منه بما لمعاصرته لأحداثها وشهادته عليها.

إن الفترات التي تناولها كتاب الكامل تختلف في حجم الكتابة عنها باختلاف طول المـدة وقصرها ويظهر ذلك جليا من خلال النظر في عدد الصفحات التي خصت بما كل فتـرة، إلا أن تركيز ابن الأثير الأكبر كان على عصر دولة آل زنكي وعصر صلاح الدين، لأنه كما ذكرنا عاش أحداث هذين العصرين ودليل ذلك هو مدة قصيرة لهذين العصرين أفرد لهما ما يقارب السبعمائة صفحة، هذا إذا لم ندخل فيه عصر من حكم بعد صلاح الدين من أعقابه وبنيه، والذي يـدخل منهجيا في عصره، ولكن جعلناه حقبة مستقلة، وقد ساوى هذا العصر الأخير العصرين اللذين قبله من حيث الكم أيضا.

يرد أول ذكر لصلاح الدين منذ سنة (1166/562) إلى سنة (1193/589)، والمواضيع التي ورد ذكر صلاح الدين ضمنها (114) عنوانا لمواضيع مختلفة تعلقت أساسـا بجهـاده ضـد الإفرنج وهي موضحة في الدائرة النسبية الآتية:



5- الحضـور القـوي لصـلاح الديـن في الكامـل

ذكر ابن الأثير صلاح الدين ابتداءا من سنة (1166/562) إلى غاية سنة (1193/589) فجاء كل هذا في (580) صفحة من المجلد التاسع و(104) صفحة من المجلد العاشر. أي (189) صفحة من المجلدين من مجموع (271) صفحة كتبت حول هذه الفترة،

والباقي من مجموع (189) صفحة هو(28) صفحة جاء فيها ذكر أحداث عن مناطق غير الشام ومصر، كالهند والأندلس والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية لأن ابن الأثير كتب كتابه على المنهج الحولي الذي يذكر فيه الحوادث التي جرت في نفس السنة لا يربطها إلى بعضها البعض سوى عقد الزمن، إضافة إلى تخصيص الفترة التي كان فيها شاهد عيان بمادة أكثر من مثيلاتها.

تعتبر سنة (1166/562) أول سنة جاء فيها ذكر صلاح الدين في إطار المواجهة التي جرت بين عمه أسد الدين شيركوه، والمصريين وحلفائهم الفرنج واستنابة صلاح الدين بالإسكندرية[1].

أما السنة التي تليها وهي سنة (1167/563) فقد أهمل فيها ذكر صلاح الدين، كما يمكن اعتبار الفترة التي تمتد من سنة (1166/562) إلى سنة (1173/569) فترة لم تغط فيها حياة صلاح الدين وما جرى معه بالقدر الكافي، إذ أن كل سنة من هذه السنوات أفرد فيها لصلاح الدين من عنوان إلى أربعة عناوين جاء فيها ذكره أحيانا تلميحا له وأحيانا أخرى كشخصية رئيسية في السنة، وعلى الرغم من أن سنة (1171/567) وهي السنة الحافلة التي جاء فيها ذكر أهم حدث جرى مع صلاح الدين ومع الأمة الإسلامية أجمع، وهو قطع الخطبة للفاطميين، إلا أن ابن الأثير لم يأت عليها بالتفصيل الذي يوفي بأهمية الحدث، وخص صلاح الدين في هذه الفترة بـ 30 صفحة من مجموع 73 صفحة والباقي 43 صفحة ضمّنها حوادث جرت في هذه الفترة في مناطق مختلفة.

---

(1): إنّ ابن الأثير فيما يتعلق بالسنوات الباكرة لصلاح الدين في مصر وقبل وفاة نور الدين غالبا ما نسخ في كتابه الكامل المقاطع الوثيقة الصلة من كتابه الأسبق عن تاريخ أتابكة الموصل (والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية)، المعرّب، هذه الأقسام يمكن التسليم بأنا مستقلة عن أعمال عماد الدين، ومن جهة ثانية فإن عماد الدين كان عند هذا الحين واحدا من كتاب نور الدين بدمشق، وكان بالطبع واسع الإطلاع على نشاطات صلاح الدين، فإعجابه بنور الدين كان يضاهي إعجاب ابن الأثير صدقا وإخلاصا، وأقواله عند هذه الفترة هي أقلّ ما يمكن أن تكون عرضة لتهمة التحيز المفرط = إلى جانب صلاح الدين لذا فالأكثر مثارا للدهشة هو أن تلقى روايات العماد إهمالا جامعا من جانب المؤرخين المحدثين رغم اختلاف عماد الدين عن ابن الأثير في نقاط عديدة، وقد قام ابن الأثير بإدخال تعديلات لا يستهان بأمرها من عماد الدين في تاريخه لهذه السنوات بعد قيامه بتكييفها وفقا لصورته الخيالية والفنّية بالألوان عن صلاح الدين في طموحه الذي أحبط خطط نور الدين للحرب المقدّسة. **انظر**: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق**،** ص 84، 85..

وابتداءا من سنة (1174/570) يبدأ التركيز على شخصية صلاح الدين حيث جاء في هذه السنة ثمانية عناوين كلها عنه وفيما جرى معه في بلاد مصر والشام ، وبالنسبة للسنوات التي بعدها إلى غاية سنة (1186/582) نجد أن صلاح الدين قد حظي فيها بجزء هام من السنة خاصة، ومن كتاب الكامل بشكل عام، وورد صلاح الدين في هذه السنوات الإحدى عشر كشخصية أساسية لأهمية الأحداث التي وقعت معه في ذلك الزمن وعدد صفحات هذه الفترة يقدر بـ 71صفحة من مجموع 97 صفحة و الباقي 26 صفحة هي أحداث متنوعة لمناطق مختلفة

وفيما يخص السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين ابتداءا من سنة (1187/583) إلى سنة (1192/588) نجد أنا فترة حافلة بالأحداث (مرحلة الجهاد الأعظم) المتعلقة به والتي كادت أن تأتي على مجموع أحداث السنين اللهم إلا بعض الحوادث الصغار التي خرجت عن هذا الإطار، ففي سنة (1187/583) مثلا ذكر صلاح الدين تحت عشرين عنوانا وسبعة عشر عنوانا بالنسبة للسنة التي بعدها ، وتليها كذلك عناوين كثيرة في السنوات الباقية جلها على صلاح الدين، وهذا نظرا لأهمية ما كان مع المسلمين والفرنج، واسترجاع بيت المقدس وحصر تواجد الفرنج في الساحل الشامي، ومجموع صفحات هذه الفترة 91 صفحة من مجموع 105 صفحة والباقي 14 صفحة فيها حوادث صغيرة لجهات مختلفة جرت في السنة، وذلك تماشيا مع المنهج الحولي ،ولم ندخل السنة الأخيرة التي توفي فيها صلاح الدين (1193/589) لقلة ما فيها من أمر يتعلق به إذ ذكر فيها وفاته وشيئ من سيرته، ومن حكم من بعده وما حدث معه.

هذه ثلاث فترات حول صلاح الدين وردت بطرق مختلفة من حيث الكتابة عنها، فالأولى كانت أقل تغطية لحياته وأعماله وجهاده، أما الثانية فمركزة بعض الشيئ في أحداثها عن صلاح الدين، وأخيرا الفترة الثالثة وهي الفترة الأكثر تغطية وتركيزا، إذ أن جل الحوادث يكاد يكون موضوعها حول حروب صلاح الدين يوسف بن أيوب.

6- الجهـاد والطموحـات السياسيّـة

أولى ابن الأثير لمواجهات صلاح الدين مع الأمراء المسلمين بعد انتقاله إلى الشام إثـر وفاة نور الدين محمود أهمية واسعة إذ خلا الجو لصلاح الدين في مصر فعمل على تثبيت قدمـه فيها، وقضى على كل المناوئين من الفاطميين[1] وغيرهم ممن أرادوا إزاحته عن ملكه، ولما تم له ذلك تطلع إلى بلاد الشام[2] التي كانت تحت حكم ابن السلطان نور الدين، الملـك الصـالح إسماعيل، وكان صغيرا فاستبد جماعة من الأمراء بمقاليد الحكم، فتدخل صلاح الدين في ذلـك مبّينا أنه الأقوى والأحق برعاية الملك الصالح من غيره، وكانت هذه حجج صلاح الدين الـتي استعملها في امتلاك كثير من بلاد الشام، وصرّح في أكثر من موضع، أنه خادم الملك الصـالح وتحت إمرته، ففي سنة (1174/570) امتلك صلاح الدين دمشق، وحمص، وحماة، وبعلبك، وضم قلعة بعرين، وحاصر حلب في هذه السنة وفي التي بعدها[3]، ويواصل ابن الأثير في ذكر الحروب التي جرت بين صلاح الدين و الحكام المسلمين إلى غاية سنة (1186/582)، أما في سنتي (572 – 1177-1176/573) فلم يأت فيها ذكر لحروب جرت بين الطرفين .

---

[1]: وقف أهل دمياط لمّا هوجموا من طرف الصليبيين على قلب رجل واحد وإذا دلّ ذلك على شيء فإنما يـدل بصـورة جلّية وواضحة على أنّ أهل مصر رحبوا بحكم صلاح الدين السنّي نابذين وراء ظهورهم عهد الإسماعيليين بكلّ ملامحـه. انظر: عثمان عبد الحميد عشري، **الإسماعيليون** في **بـلاد الشـام علـى عصـر الحـروب الصـليبية** (491/691-1097/1290) الإسكندرية: المكتبة التاريخية، 1983، ص 158-159.

[2]: لم يكن صلاح الدين يطمح منذ توليه الوزارة بمصر إلا في الجهاد في سبيل الله والاستحواذ على سوريا الـتي كانـت تشكل جبهة إسلامية أشد اتحادا وقوة قبل الشروع في الحرب الحقيقية ضد الافرنجة، لكن بعض الكتابات كانت مغـايرة وربما فيها شيء من العداء لصلاح الـدين كروايـات ابـن الأثـير في كتابـه محـل الدراسـة. Françoise Micheau, *op. cit.*, p. 57

[3]: روايات ابن الأثير عن الحملتين اللتين سيّرهما صلاح الدين ضد حلب في العـامين (1175/570- 571 /1176)، تقدم عددا من الدلائل الطريفة، فمن البادي أنّ أخبار الحملتين (واللتين انهزمت فيهما جيوش الموصل مرتين)، لم تـرو في التاريخ الباهر للدولة الأتابكية. لقد هوجم صلاح الدين من جانب الحشاشين في كل منهما، ورواية ابن الأثير عن هاذين الهجومين هي منسوخة بشكل يمكن تمييزه رغم إعادة السبك اللفظي عن روايات عماد الدين. انظر: ابو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 613.لكّنه من المتوقع فحسب أنّ ظروف المعركتين اللتين هزم فيهما صلاح الدين قوات الموصل أبرزهـا ابن الأثير على نحو مختلف نوعا ما في التفاصيل. انظر: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجـع السـابق، ص 85، 86.

في سنة (1179/575) جاء فيها ذكر للحرب التي وقعت بين صلاح الـدين و قلـج أرسلان، وقصد بعدها صلاح الدين ابن ليون الأرمني الذي غدر ببعض التركمان، وامتلك ديار الجزيرة سنة (1182/578) وحاصر الموصل وآمد في سـنة (1183/579)، وضـمّ بعـض الحصون في الشام، وملك حلب[1]، وحاصر الموصل مرة أخـرى ثم جـرى الصـلح سـنة (1185/581)، أما في سنة (1186/582) فلم يبق صراع ذو أهمية بالغة بين صلاح الـدين والأمراء المسلمين لتحكمه في أكثر أجزاء بلاد الشام.

أما فيما يتعلق بجهاد صلاح الدين للفرنج، فيبدأ ابن الأثير التـأريخ لـه مـن سـنة (1170/566) لمّا غزى صلاح الدين مناطق تواجد الفرنج، أيام نور الدين محمود، وكذلك ما فعله من حصار الكرك و الشوبك في كل من سنة (567- 1172-1171/568) ثم إلى سنة (1174/570)، السنة التي ذكر فيها انزام أسطول صقلية من أهل الإسكندرية، ويبدأ غاراته على الفرنج من بلاد الشام سنة (1182/578) لمّا غزا الكرك في سنة (1184/580)، وابتداء من سنة (1187/583) إلى غاية سنة (1192/588) نجد أن معظم ما قيل في صلاح الـدين كان حول جهاده للفرنج من فتح بيت المقدس إلى ملكه يافا، ثم الهدنة بينه وبين الفرنج، أمـا السنة الأخيرة (1193/589) ففيها ذكر وفاته.

لقد ركز ابن الأثير كثيرا على جهاد صلاح الدين للفرنج، فذكر ذلك منذ أيـام نـور الدين، وبعده لما استقل صلاح الدين بمصر، ثم من بلاد الشام بعد امتلاك أكثرها، وهي المرحلة التي جرت فيها أكبر المواجهات بين صلاح الدين والفرنج، كما جاء وصف الوقعات دقيقـا، وذلك لقرب ابن الأثير من مواقع مجريات الأحداث.

لقيت علاقات صلاح الدين بأصحاب الموصل اهتماما بالغا من ابن الأثير فـلا يكـاد يذكر حادثة تعلقت بسيف الدين، وعز الدين صاحبي الموصل، إلا ويفرد لها قدرا معتبرا مـن

---

[1]: تشويهات ابن الأثير تبدو غالبا وكأنّها ناشئة عن فقرات وعبارات من عماد الدين بواسطة الدمج أو التفسير، ويمكن العثور على مثال من ذلك في قوله الذي سبقت الإشارة إليه، حيث ينسب استسلام حلب إلى جشع أميرها عماد الـدين زنكي فابن الأثير يعبّر عن هذا كعادته بتعابير صوريّة لجدال قام بين الأمير وقواته. لكن أساس الحادثة يبدو أنّه مـا قالـه العماد الكاتب، في أنّ صاحب الموصل كان يدفع أموالا طائلة للجيش، وإذا امتد الحصار خسر كلّ شيئ ولهذا نزل عـن حلب لصلاح الدين. طبعا إنّ مثالا مفردا لا يشكّل برهانا، وقد يكون من الصعب اكتشاف حالات أخرى لأنّ معظـم أقسام كتاب البرق مفقودة. انظر: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 91.

مؤلفه للحادثة الواحدة وبدقة متناهية، وإذا نظرنا إلى طبيعة العلاقات نجدها عسكرية محضة في مواجهة بينهم بمبادرة من صلاح الدين في امتلاك الموصل وضمها إلى مجموعة ما كان تحت يده من بلاد الشام، وعلى الرغم من أن المواجهة لم تكن كثيرة، لم تأخذ من الكامل حيزا كبيرا إلا أن اهتمام ابن الأثير بها بدا جليا.

ففي ذكر حصار سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار، وسبب ذلك أن صلاح الدين كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه الأكبر، فحمله الطمع على الامتناع، وهـزم جـيش الموصل وحلب ضد صلاح الدين الذي قام بقطع الخطبة للملك الصالح[1].

الهزيمة الأخرى لصاحب الموصل كانت سنة (1175/571) لمّا واجه صلاح الـدين فهـرب ودخل إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو.

قام صلاح الدين بعد ملكه نصيبين بحصار الموصل لهوى في الأموال التي بذلها له ناصـر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، حسب رواية ابن الأثير لكنه فكّ عنها الحصار لعجزه عن امتلاكها[2].

حوصرت الموصل للمرة الثانية سنة (1185/581) من طرف صلاح الدين، ثم سـار عنها بسبب وفاة شاه أرمن صاحب خلاط، فسار إلى ميافارقين وتسلم خلاط ثم ميافـارقين، ليعود بعدها إلى الموصل، فمرض وهو يحاصرها فجرت الرسل في الصلح، فتم ذلك بين الفريقين[3].

بخصوص المفاوضات التي جرت في دمشق بين رسل دار الخلافة، ورسل الموصل، وبين صلاح الدين بحيث لعب فيها عماد الدين الكاتب دورا رئيسيا، والقاضي بهاء الدين ابن شداد الذي كان عضوا في وفد الموصل، لكن ابن الأثير استبدل النقطة الحقيقية للخلاف بمعادلة مختلفة كل الاختلاف لكي يتسنى له إبراز صلاح الدين وكأنه على عداء راسخ لأي تسوية للخلافات مع الموصل [4].

---

(1): ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 409/9- 410.

(2): لقد قام صلاح الدين باقتسام تركة شيركوه ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص 416 و 465-467.

(3): نفسـه، 131/10- 135.

(4): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 83.

في أثناء حصار عز الدين صاحب الموصل للجزيرة، وكان ذلك بإذن صـلاح الـدين لكن عز الدين اعتبرها مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد، وأرسل إليه يقول: أريد خطك بذلك و منشورا منك بالجزيرة، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة (1190/586) واستقرت القاعدة بين عز الدين، وسنجر شاه على يد رسول صلاح الدين، في أن لعز الـدين نصـف أعمال الجزيرة، ولسنجر شاه نصفها الآخر، وبعد وفاة صلاح الدين ساءت العلاقة بـين عـز الدين صاحب الموصل، والملك العادل، لما عزم عزّ الدين على السير إلى بلاد العادل وأخذها منه [(1)].

وهذه جملة الأحداث المتعلقة بعلاقات صلاح الدين بأصحاب الموصـل في كتـاب الكامـل خلاصتها المواجهات العسكرية والعداوة بينهم، وبعد صلح (1185/581) أصبحت عسـاكر الموصل رهن إشارة صلاح الدين لجهاد الفرنج.

يرى ابن الأثير في مسير صلاح الدين إلى مصر فيه سعادته وملكه عندما علـق علـى رفضه المسير رفقة عمه إلى مصر" فملكني الله مالم أكن أطمع في بعضه " ويعتقد ابن الأثير هنا: أن صلاح الدين لو كان يعلم ما يحصل معه من استوزاره على مصر لما كـان منـه كـره في الذهاب إليها رفقة عمه [(2)]، واتهم ابن الأثير صلاح الدين بإقامة دولته على القهر والقتل لـذا حرمه الله ملك أعقابه من بعده، ونقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غـير حلب [(3)].

فصّل ابن الأثير في الحملة التي قادها نور الدين وصلاح الدين كل من جهته ضد حصني الشوبك والكرك، وأرجع تجنب صلاح الدين لقاء نور الدين خوفا على منصبه، واعتذر صلاح الدين بمحاولة بعض المصريين القيام بحركة تمرد عند حملته على الشوبك، وفي الحملة على حصن الكرك اعتذر بمرض والده الذي كان يخلفه في تسيير شؤون مصر وخوفه من أن تخـرج عـن

[(1)]: ابن الأثير، المصدر السابق، 91/9 -92.

[(2)]: ابن الأثير، المصدر السابق، ص 340-343.

[(3)]: نفسـه، ص 344- 345.

طاعته بوفاته. لم تقنع هذه الأعذار ابن الأثير الذي نقل استعداد صلاح الدين وأهله لقتال نور الدين، واتفاقهم على امتلاك بلاد النوبة ليحتموا بها إذا ما أخرجهم نور الدين من مصر [1].

يرى ابن الأثير أن صلاح الدين أخفق في التعاون مع نور الدين على حصار الكرك، فيما تذهب رواية العماد الكاتب التي تؤيّدها بنود تقرير رسمي عن العمليات رفعه صلاح الدين إلى نور الدين، أن الغرض من حملة صلاح الدين كان لطرد البدو الذين كانوا يعملون كأدّلاء في خدمة الفرنجة بالكرك، وبالتالي لجعل الاتصالات بين مصر والشام مأمونة أكثر. إن هذا القول يؤكّده أيضا غليوم الصوري [2] تأييدا تاما [3]، وهذا تفسير من تفسيرات ابن الأثير التي عمد فيها إلى قلب الحقيقة بغرض تشويه صورة صلاح الدين، وفي موضع آخر يقول ابن الأثير أن صلاح الدين كان يؤثر بقاء الفرنج في الطريق بين مصر والشام ليمتنع بهم على نور الدين.

قاد صلاح الدين حملة ضد مدن الشام بعد أن جعل من نفسه الأحق برعاية الملك الصالح، وبسبب الهدنة التي عقدها صاحب دمشق ابن المقدم مع الفرنج، وكانت في نيّة صلاح الدين حسب تفسير ابن الأثير أن يصير له طريقا إلى الشام ليمتلك البلاد [4].

عند تسليم دمشق لصلاح الدين من طرف ابن المقدم لامه ابن الأثير قائلا:" ومن أشبه أباه فما ظلم " لأن أباه كان قد سلم سنجار سنة (1149/544)، لأن ابن الأثير كان لا يريد لصلاح الدين أخد دمشق [5].

يصرح ابن الأثير لأوّل مرّة بنص للعماد الكاتب ويقول أنه قصد تعظيم أمر صاحبه (صلاح الدين) [6] عندما قال أنه هزم عسكر الموصل المتكون من عشرين ألف بستة آلاف

---

[1]: نفسه، 364/9- 365.

[2]: ولد سنة (1130/524) يعده بعض المؤرخين الأوربيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى بحيث توفرت له من ادوات الكتابة ما جعلته يحتل هذه المرتبة فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية الفرنسية واليونانية وإلمامه بالعربية فقد شغل مناصب منها إشرافه على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس، وسفيرا للملك أموري في بلاط إمبراطور بيزنطة، ثم أصبح رئيس أساقفة صور، انظر: وليم الصوري، **الحروب الصليبية (1184/1094)**، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع**،** 1198، 5/1- 6**.**

[3]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق**،**ص 92.

[4]: ابن الأثير، **الكامل**، المرجع السابق، 398/9.

[5]: نفسه، ص 398.

[6]: نفسه، 436/9- 437.

فارس[1]. ويلمّح ابن الأثير في بعض الأحيان إلى شجاعة صلاح الدين عندما تعرض للاغتيال على يد الباطنية أثناء حصار قلعة إعزاز الحصينة إلا أنه واصل حصارها حتى أخذها.

حاصر صلاح الدين حلب مرتين وهوجم من طرف الحشاشين في كليهما وهزم فيهما جيوش الموصل، والظاهر أن ابن الأثير قد اعتمد على العماد ولكنّه أبرز الروايات على نوع ما في التفاصيل، وهذا ما يذهب به إلى حديث غير معقول، حيث قال أنه في المعركة الثانية لم يقتل سوى رجل واحد من الجيشين [2].

يشير ابن الأثير إلى إنجازات صلاح الدين في مجال التعليم وتحصين المدن[3] في كل من مصر وبلاد الشام، وإن كانت في عمومها ضئيلة في مقابل حديثه عن نشاطه العسكري.

يقدم لنا ابن الأثير صورة سيئة عن صلاح الدين عندما تجاهل العهود حين وعد ابن المقدم بتسليمه بعلبك ولكنّه نكث وسلمها لأخيه تورنشاه [4]، وكأن ابن الأثير كان يتصيّد العثرات لصلاح الدين فلم يتغاض عن أخطائه بل يتعمّد في بعض المواضع إلصاق التهم به، والإساءة لشخصه.

في بلاد اليمن قدم نائب شمس الدولة التورنشاه المبارك بن منقذ الكناني إلى دمشق حاملا معه أموال اليمن، ويقول ابن الأثير هنا أن صلاح الدين لم يعارضه في أخذ أموال الرعية [5].

---

[1]: هنا يشارك عماد الدين بالواقع، وإن تكن مشاركته معتدلة نسبيّا، في الـ عة الشائعة لدى معظم مؤرخي القرون الوسطى بتضخيم أرقام الجيوش المعادية، لكن في هذه الحالة يجوز عذر العماد جزئيا، فهو لم يؤّكد بأن جيش سيف الدين كان مؤلفا من 20000، وقدم ابن الأثير هذا الدليل ردا منه لاعتبار صاحب الموصل سيف الدين، وتقليلا من هيبة صلاح الدين، ونقض قول العماد الكاتب بدليل استناده لوثيقة رسمية لم يذكر نصها في مؤلفه الكامل كما ورد **انظر:** جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 86.

[2]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي دراسات** في **التاريخ الإسلامي،** المرجع السابق، ص 86.

[3]: كلف صلاح الدين وزيره قراقوش ببناء القلعة في مصر ليتمكن من التحكم في البلاد. هذا الوزير قام بخفض الميزانية المخصصة للبناء بدم الأهرام الصغرى في الجيزة، وباستعمال ثالث الأهرام الكبرى أي هرم (ميكيرينوس) كمقلع، وباستخدام كتل الحجارة الفخمة المنحوتة المأخوذة من قبور الفراعنة أسسا لقلعة صلاح الدين. انظر: البيرشاندور، **صلاح الدين الايوبي البطل الأنقى** في **الإسلام،** ترجمة، سعيد أبو الحسن، (ت) نديم مرعشلي، دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1993، ص 100.

[4]: ابن الأثير، **الكامل،** المصدر السابق، 435/9- 436.

[5]: نفسه، ص 452-453.

أخذا بمشورة كوكبوري وناصر الدين بن أسد الدين شيركوه حاصر صـلاح الـدين الموصل وبذل له ناصر الدين مالا كثيرا ليوليه الموصل عند فتحها، وأمر بتنفيذ هذا الأمر لهوى في نفسه وللأموال التي بذلها ناصر الدين، ولمّا امتنعت الموصل عليه بقي طامعا في الأمـوال [1]. يصور ابن الأثير هنا أن صلاح الدين كان محبا للمال مع أنه السلطان الذي يتوفر في يده ما لا يتوفر لدى غيره، وعظم ابن الأثير من أمر الموصل ووصفها بأنها بلد لا يرام [2].

علق ابن الأثير على تسليم عماد الدين زنكي صلاح الدين مدينة حلب بقوله:" وباعها بأوكس الأثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضا عنها قرى ومزارع " ثم نقل رأي أهـل حلب الذين أحضروا أجانة ماء ووصفوا عماد الدين بقولهم أنت لا يصلح لك الملـك وإنمـا يصلح لك أن تغسل الثياب" [3] فلم يرض ابن الأثير بهذا التسليم، ممّا يفسر لنا الكره الذي كان يكنّه ابن الأثير لصلاح الدين.

لقد كرس عماد الدين لهذه الحادثة أحد الفصول الأشد صـقلا في كتـاب" الـبرق الشامي"، ولا مجال للشك في أن هذا يؤلف المصدر لرواية ابن الأثير الذي عمد إلى إغفال نجاح صلاح الدين، وتفسيره لنصره غير المتوقع بأن نحى باللوم بصورة واهية نوعا ما علـى جشـع الحاكم، بحيث يتعارض قوله مباشرة مع عبارات عماد الدين الصريحة، وأراد ابن الأثير من وراء كل هذا التقليل من شأن نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب [4].

يذهب ابن الأثير إلى أن السبب في إيفاد نساء الأسرة الزنكية لصلاح الدين عند حصار الموصل لم يكن بدافع أي ضعف أو عجز في الدفاع عن الموصل، بل أرسلنّ رغبة من صاحب الموصل في الحيلولة دون وقوع الحرب، فيما يؤكد عماد الدين الكاتـب أن صـلاح الـدين استجابة منه لندائهن، ورغم أنه عاجز عن منح كل الأشياء التي طالبن بها، وافق على وسـاطة عماد الدين زنكي في سنجار، وتمت عن طريق هذه الوساطة تسوية النزاع نهائيا.

---

[1]: وفي هذا مبالغة من ابن الأثير الذي اتهم صلاح الدين بالطمع في الأموال التي بين يدي ابن عمه ناصر الدين، وكـأن صلاح الدين همه في امتلاك الموصل هو المال، وليس توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الإفرنج كما ذهب إليـه سـائر المؤرخين المعاصرين للسلطان صلاح الدين.

[2]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 462/9- 463- 464- 465.

[3]: نفســه، 472/9- 473- 474.

[4]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 81.

لقد كان كل من عماد الدين وابن الأثير في الموصل عندما وقعت هذه الأحداث، لكن تنازع الأدلة يبدو مطلقا، ولا سبيل إلا القول أن رواية عماد الدين هي الرواية الأكثر والأشد تماسكا، ومع الظروف، بينما قام ابن الأثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في أسوء ضوء ممكن، وبصورة واهية في الأحرى للتقليل من شأن عمله على هذا الجانب من التطرف [1].

بمرض صلاح الدين في حصاره للموصل طمع ناصر الدين ابن عمه في دمشق لكن سرعان ما توفي، وقيل أن السبب في ذلك هو إكثاره من الخمر، أو أن صلاح الدين وضع له سما، وهو الراجح عند ابن الأثير، وأخذ صلاح الدين تركة ابن عمه، أما العماد الأصفهاني فقد أكد إحصاء ممتلكاته وتقسيمها بين الورثة، فالسلطان لم يلق عليها نظرة سريعة، بل قام بتقسيمها كلها إلى الورثة الشرعيين [2].

أما ابن الأثير فقد بدأ روايته للحادثة بالحديث عن مؤامرة خطط لها ناصر الدين بالتعاون مع بعض قوات دمشق خلال مرض صلاح الدين، ثم أعقبها موته المفاجئ، ويسوق ابن الأثير الحادثة قائلا: يقولون لكن على ذمة الراوي الذي لم يذكره: أن صلاح الدين حرض رجلا يدعى الناصح بن العميد من دمشق وأعطاه كأسا مسمومة، ثم قدم صلاح الدين إلى حمص وجرد الممتلكات، وأخذ معظمها لنفسه تاركا سقط المتاع فقط، وما تجدر الإشارة إليه أن هذه هي المرة الوحيدة التي يغتنم فيها ابن الأثير فرصة لاتهام صلاح الدين بممارسة الاغتيال، والاستيلاء على أملاك الغير، تلك الممارسة التي تظهر بشكل بارز في حوليات العصر السياسية، وحاول ابن الأثير هنا إظهار صلاح الدين بأنه ليس أفضل من أي أمير آخر في زمانه [3].

ويقال أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد وفاة أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت من القرآن [4]، فقال له إلى قوله تعالى(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) [5] فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه، لأنه ذكر آية بيّن من خلالها أخذ صلاح الدين لتركة أبيه حسب رواية ابن الأثير.

---

[1]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص 86.

[2]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، ص 87- 88.

[3]: نفسه، ص 91.

[4]: نفسه، 10/10-11.

[5]: الآية **(09)** من سورة النساء.

أشير على صلاح الدين بتولية أولاده في حياته فأخذ حلب من أخيه وأخرج تقي الدين من مصر، ثم أعطى حرّان والرها وميافارقين لأخيه العادل ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده فلو لم يفعل ما فعل لما أراد الله نقل الملك عن أولاده، فصلاح الدين استعمل أقاربه على البلاد التي تحت يده، وقدم أولاده لأنه كان يعمل من أجلهم [1] وهذا اتهام آخر من ابن الأثير لصلاح الدين.

حاصر صلاح الدين صور ثم عاد عنها لحصانتها وكثرة الفرنج فيها، ولم يكن لأحد ذنب فيها غير صلاح الدين في اعتقاد ابن الأثير، لأنه جهّز إليها الفرنج بعدما أعطاهم الأمان وأرسلهم إلى صور بأموالهم فتجمع فيها من سلم منهم وكثر عددهم ذلك لأنه ملك وبسرعة أكثر بلادهم بشرط تأمينهم على أنفسهم وأموالهم [2] وهذه سياسة من صلاح الدين فسّرها ابن الأثير على أساس أنها سوء تدبير من جانبه.

اعتمد ابن الأثير حول هذه الأحداث على كتاب الفتح للعماد، وعندما عرض عدم متابعة صلاح الدين لحصار صور عمد إلى قلب الفقرات الواردة في كتاب الفتح، والمتصلة بمشاورات صلاح الدين مع الأمراء وانسحابه، وتسفر النتيجة عن تصوير صلاح الدين وكأنه قد اتخذ القرار بالتخلي عن الحصار قبل تمرد الأمراء[3]، فيصبح إذّاك عملهم برفض القتال وسحب رجالهم ضربا من عدم الواقعية، بل يمضي إلى الأنحاء على صلاح الدين باللوم الشديد على عمل تقع المسؤولية إلى حد كبير على عاتق إخوان ابن الأثير من عساكر الموصل [4].

---

[1]: ابن الأثير، **الكامل**، المصدر السابق، 16/10.

[2]: نفسه، 39/10- 40.

[3]: هذا التمرد مردّه إلى نظام الإقطاع العسكري، وهو نظام اتبعه السلاجقة والأيوبيون ومن بعدهم المماليك، فيقطع السلطان أحد أفراد أسرته وكبار رجال دولته منطقة من بلاده يستقيل بشؤونها وعليه تهيئة الجند، ودفع عطاءاتهم، ويرجع إلى السلطان في كل أمر من أمور إقطاعه، ويقوم هذا بدوره بإقطاع الإقطاعات لكبار رجالاته، ويرجعون إليه مباشرة ويعملون على تأمين الجيش، وهو نظام له عيوبه، فأثناء حصار صلاح الدين لصور وبعدها عكا فقد سيطرته على الإقطاعيات أثناء هذا الحصار لمّا أخذ أصحاب الإقطاعيات من الأمراء وكبار الجند بالتأفف والاستياء بطول بقائهم مرابطين على عكا، فاضطر تحت ضغط الأمراء وكبار الجند إلى أن يأذن للجند بالعودة إلى بلادهم.انظر: أبو شامة، **عيون الروضتين** في **أخبار الدولتين** (النوريّة والصلاحيّة)، ق1، تحقيق أحمد البسيومي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991، ص 08.

[4]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 88.

قلّل ابن الأثير من شأن صلاح الدين عندما أراد وداع معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين هذا وأركبه، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل، يقول ابن الأثير: فعجبت من ذلك، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أية موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي [1] في إشارة منه إلى أفضليتهما على صلاح الدين.

من خلال عرضنا لمجمل ما جاء في كتاب الكامل حول صلاح الدين تبّين لنا مدى انحياز ابن الأثير للزنكيين، لكونه من جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، ومن أسرة ثرية عرفت بقربها من السلطة الحاكمة، فأبوه كان والي جزيرة ابن عمر لقطب الدين، فعاش بذلك ابن الأثير في كنف الزنكيين، وقد بّينا العلاقة التي كانت بين عائلته وحكام آل زنكي (أصحاب الموصل).

تعرض ابن الأثير للأحداث المتعلقة بالناصر صلاح الدين منذ سنة (1166/562) إلى غاية سنة (1193/589) ووجدنا مواضع كثيرة قد بّيناها، انحياز ابن الأثير الظاهر الجلي لآل زنكي على حساب صلاح الدين، بحكم العداء والتنافس الذي كان موجودا بينه وبين حكام الموصل، ومحاولة صلاح الدين ضم الموصل إلى ممالكه لاستكمال توحيد الجبهة الإسلامية، وألف ابن الأثير كتابا خاصا عن أسرة آل زنكي سماه التاريخ "الباهر في الدولة الأتابكية"، وقد أهداه إلى الأمير القاهر مسعود الذي ولي الموصل سنة (1210/607) اعترافا بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير، وتوجيها له حتى يتخذ من سلفه مثلا يحتذى في حسن السيرة، وعدالة الحكم، ويشتمل هذا الكتاب على المدة الواقعة بين سنتي (477-1084/607-1210)، أي منذ ولادة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل ووالد عماد الدين زنكي، حتى ولاية القاهر مسعود الذي أهدي إليه الكتاب [2].

---

[1]: ابن الأثير، المصدر السابق، 104/10.

[2]: أبو شامة، **الروضتين** في **أخبار الدولتين**، المصدر السابق، ج1، ق1، ص 29.

أما بالنسبة لمواجهات صلاح الدين مع الفرنج[1] فقد ذكرها ابن الأثير بالتفصيل منذ سنة (1187/583) ومعركة حطين وفتح بيت المقدس، حتى الهدنة التي عقدت بين السلطان الناصر والفرنج.

وفيما يخص كتاب الكامل فإن ابن الأثير بدأ في تأليفه ولكنه توقف عن ذلك مدة، ثم شرع في إتمامه نزولا عند طاعة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ المتوفى سنة (1258/657)، وبذا يكون ابن الأثير من كتاب البلاط، بلاط آل زنكي، وبسبب هذا وجدنا مؤاخذاته لصلاح الدين، وميله لأصحاب الموصل، وعلى الرغم من إشادة ابن الأثير بفضائل صلاح الدين، وحسن صنيعه وجهاده، إلا أن كرهه له جاء باديا وظاهرا في كتاب الكامل، خاصة في المواضيع التي تحدثت عن مواجهة صلاح الدين مع أصحاب الموصل، وكذا مواضع أخرى تعلقت بجهاده للفرنج والخلافات التي نشبت بينه وبين بعض الأمراء والحكام المسلمين، وهو دون أدنى ريب مذنب في تشويه صورة صلاح الدين، لحساب الأسرة الزنكية، ولقد خالف ابن الأثير في كثير من الرؤى والتفسيرات التي ذهب إليها، مؤلفات معاصرة له خاصة كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب في جزئيه الباقيين الثالث والخامس، وما نقله أبو شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين من خلال المنتخبات التي جمعها في مؤلفه والتي شكلت مادة متنوعة لمؤرخين يعدّ العماد الكاتب واحدا منهم، ومن بين المصادر الأكثر اعتمادا عند أبي شامة.

---

[1]: كان صلاح الدين مدركا لأهمية الأموال في حملته ضد الصليبيين فقد استخدم كافة الوسائل لتحقيق هدفه كالرشوة والهدايا مع بعض منهم للحصول على معلومات من ناحية، واحداث الوقيعة فيما بينهم من ناحية أخرى. انظر: حسن عبد الوهاب حسن، **مقالات وبحوث** في **التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية**، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص 128.

IV- يحـي بـن أبـي طـيء: المـؤرخ الشيعـي

ظهر يحيى بن أبي طيء الحلبي في ظل الأسرتين الزنكية والأيوبية، متأثرًا: بالبيئـات السياسية، والعسكرية، والثقافية الزاخرة المحيطة به، فبرز كأحد أعلام هذه الفترة، ومدّوني أحداثها، وقد تناولته عدد من الدراسات ولكن على نحو بسيط ومن غير تركيز، فقد تحدث الباز العريني في كتابه" مؤرخو الحروب الصليبية "عن بداية حياة يحيى ابن أبي طيء وأهميـة مؤلفاته وسبب اختفائها وكيفية تناقل رواياته عن طريق المؤرخين، ولكنه اهتم بإبراز تعصب يحيى ابن أبي طيء ضد نور الدين محمود [1] في حين ركّز الباحث نظير سعداوي في كتابه "المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين " على أحد كتب ابن أبي طيء، وهو" ك الموحدين في سيرة صلاح الدين" ذاكرا أيضا المؤرخين الذين نقلوا عنه وطريقته في سرد الحوادث، مـع الإشارة إلى ميوله الواضحة ضد نور الدين محمود، ومؤازرته لصلاح الدين الأيوبي، فضـلا عن التعليق على أسلوبه بأنه كان مشابها لأسلوب ابن الأثير فقط [2].

في حين درس شاكر مصطفى في مقال له بعنوان "مدرسة الشام التاريخية من قبـل ابن عساكر ومن بعده "بيّن فيها أثر التشيع في ضياع مؤلفات يحيى ابن أبي طيء التاريخية، مع الإشارة إلى مؤلفاته بصورة عامة، وخاصة كتابه المتعلق بحلب، وبيان مصادره والمؤرخين الذين نقلوا عنه [3].

1- ابـن أبـي طـيء: مـن النسـخ إلى التأليـف

يحيى بن أبي طيء بن حميد النجار بن ظافر بن علي الغساني الحلبي الأديب والمؤرخ المشهور بابن أبي طيء ويعد من الطبقة الأولى من مؤرخي الإسلام في القـرنين السـادس والسابع الهجريين، وقد كان له معرفة في العلوم والفنون والأدب والشعر والتاريخ ومعرفـة أخبار الصحابة والعرب كان والده رئيس حرفة النجارين في حلب، وأحد زعماء الشـيعة فيها، وعيناً من أعيانـا البارزين، وقد نفي منها مرتين إحداهما عام (1148/543) ، والثانية

---

(1): لؤي ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخا، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، مج03- 02، (2009)، ص 40.

(2): نظير حسّان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 3-4- 5- 6.

(3): لؤي ابراهيم بواعنة، المرجع السابق، ص 41.

لحران عام (1157/552)، وكان أولاده يموتون صغارًا، ثم جاءه على كبر وبعد يأس ابن سماه يحيى، وكانت ولادته بحلب عام (1179/575)، أمـا وفاتـه فقـد كانـت عـام (1232/630) بمعنى أنه عاصر قرنين هجريين، السادس والسابع، اللذين كانا من أكثـر الفترات زخمًا بالأحداث[1].

والمصادر التي ترجمت ليحيى بن أبي طيء لا تسعفنا كثيرًا بالحديث عن بدايات حياته، ففي الوقت الذي ينعتون والده بالنجار، وأنّه كان مَقدّماً على نجاري حلب؛ أي أنه احتـرف مهنة النجارة، يذهب ابن حجر العسقلاني إلى أنا صنعة التجارة، وليس النجارة، ويصـفه بأنه كان مقدمًا فيها. ويبدو أن رسم الكلمة ونقل الناسخ من حرف ن إلى ت أو العكس دفعت ابن حجر إلى ذكر هذا الخلاف، والراجح أنا النجارة، فالمهم أنه كان لـه مهنـة يكتسب منها في شبابه[2].

درس يحي بن أبي طيئ على أبيه وغيره من علماء حلب البلاغـة والتصـوف واللغـة والأدب، ويبدو أنّه كان يكسب عيشه الحسن من العمل بالنسخ للدرجة التي جعلـت ياقوتـا الحموي يقول:" إن عددا من مؤلفاته التي تعزى له ليست سوى مستنسخات تصرف بها علـى هواه" [3].

قرأ ابن أبي طيئ منذ طفولته القرآن بأكثر من قراءة، ونظم الشعر، واشتهر بالمديح، كان بارعًا بالفقه الجعفري، وكـان لـه مشـاركة في الأصـول والقـراءات. وفي عـام (1201/597) ترك عمله في النجارة بعد أن امتهن هذه المهنة من والده، ولـزم تعلـيم الأطفال، وبدأ يشتغل في تأليف الكتب، وجعل التصنيف حانوته، ومنه مكسبه وقوته، يأخذ كتابًا قد أتعب العلماء فيقدم فيه ويؤخّر، أو يزيد قليلا أو يختصر، ويخلق له اسمًـا غريبًـا وينتحله انتحالا، وفي هذه الرواية طعن في الأمانة العلمية ليحيى بن أبي طيء وفيها شيء من التجني عليه، لأنا الرواية الوحيدة؛ إذ لم ترد عند غيره الذين نقلوا عنه متأخرين، ولم ترد عند معاصريه أيضا. وإن جاز القول إن لقاء قد تم بينهما فهو غير كافٍ للحكم عليه وليس

---

[1]: لؤي بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخاً**، المرجع السابق، ص 41.

[2]: نفسـه، ص 42.

[3]: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، 252/2.

لدينا ما يثبت صحة ما قاله ياقوت؛ لأن المؤلفات المشكوك فيها ليست بين أيـدينا إلا إذا كان ياقوت قد اطلع عليها كاملة، ولكن يبدو أن العامل المذهبي تشيع يحيى ابن أبي طيء أسهم في تكوين تلك الصورة عنه عند ياقوت، وربما لخلافات علمية بينهما [1].

تنوعت مؤلفات ابن أبي طيء بين الفقه والقراءات والأدب واللغة والشعر والتراجم والسير والتاريخ، ولكن غلب عليها مجال التاريخ. ففي مجال الأدب والشعر وضع كتـاب "المنتخب في شرح لامية العرب"، "وأخبار شعراء الشيعة "، ووضع في الطبقات كتـاب " مناقب الأئمة الاثني عشر"، و"طبقات العلماء "، ولعلّها خاصة بالشيعة الإمامية كما يبـدو من أسمائها كما ذكر له ياقوت الحموي كتاب" فضائل الأئمة " في أربعة مجلدات، وآخـر بعنوان" الحاوي في رجال الإمامية "، وأبرز مؤلفاته في مجال التاريخ " مختار تاريخ العرب "، و" عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر "، و" ك الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين"، المعروف " بالسيرة الصلاحية "، و" معادن الذهب في تاريخ حلب "، و" سلك النظـام في أخبار الشام "، و" تاريخ مصر "، و" مختار تاريخ المغرب "، و" معادن الذهب في تـاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب "، و" حوادث الزمان في التاريخ "، الذي وصف بأنه موسوعة لمعارف التاريخ وتاريخ الشيعة [2].

وصف يحيى ابن أبي طيء بمعرفته بأخبار الصحابة فألف كتاب " تذيب الاستيعاب في معرفة الأصحاب للقرطبي "، وكان له في السيرة ثلاثة مجلدات، وكتب أخرى متنوعـة، مثل: " اشتقاق أسماء البلدان "، " أخلاق الصوفّيه "، " البيان في أسباب نزول القـرآن "، " تضوع اللطائم في شرح خطبة فاطمة الزهراء "، ويبدو أن كتاب " معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب "، الذي ذكره ابن الفرات (ت 1404/807) هو نفسه الذي ذكره عدد من المؤرخين تحت اسم " معادن الذهب في تاريخ حلب "، وإن جاز الحكم على مؤلّف ما من خلال مقتبساته فإن "معادن الذهب في تاريخ حلب" هو تاريخ عام، ولكّنه يهتمّ بتاريخ حلب خاصة. وتأتي أهمّية المؤلفات التاريخية التي تركها يحيى ابـن أبي طـيء بمحتواها وقيمتها بين الكتب التاريخية التي ألّفت في عصره؛ إذ زخرت تلك الفترة بكتـب

---

[1]: لؤي بواعنة، المرجع السابق، ص 43.

[2]: نفســه، ص43. وانظر أيضا: شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، 2/252- 253.

تاريخية مهمة، وكانت مؤلفات يحيى ابن أبي طيء من بينها، وهذا يعني أن مؤلفاته التاريخية كانت على قدر من الأهمّية التي حملتها مؤلفات تلك الفترة من مؤرخي الشام: كالعظيمي (ت بعد سنة (1236/558)، وابن أبي أصيبعة (ت 1270/668)، وابن نظيف الحمـوي (ت 1246/644) وبقراءة أولية لعناوين مؤلفات ابن أبي طيء يظهر أنه كان رجلا بارعًا في حقل التاريخ لدرجة جعلت السير جب هاملتون يصفه بأنه كان كاتبًا أصيلا على اهتمام خاص بالتفاصيل الاجتماعية والطبوغرافية (1). وقد توزعت تلك المؤلفات وتباينت بين المشرق الإسلامي والمغرب أيضا، فهو يخص المغرب إضافة لمصر والشام، كما تنوعـت مؤلفاتـه التاريخية بين تاريخ المدن كمدينة حلب والتاريخ العام، "كحوادث الزمان في التاريخ "، وبين كتابة السّير والتراجم كسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي وغيرها. واحتل التاريخ الفاطمي جانبًا كبيرًا من اهتمامه وكتاباته، ولعل ذلك واضح في كتابه " تاريخ مصـر"، و" مختـار تاريخ المغرب "، و" مناقب الأئمة الاثنا عشرية "، و" طبقات العلماء"، و" تاريخ الشيعة " الذي أورده الذهبي وأقرّ بالنقل عنه وغيرها (2)، ولهذا نجد أن فرانز روزنتال يصنّف يحيى بـن أبي طيء من بين المؤرخين الذين عنوا بجمع مؤلفات الشيعة (3).

وتعد مؤلفات يحيى بن أبي طيء مصدرًا مهمًا لدارسي التاريخ الإسلامي الوسيط، حيث تتناول تاريخ العالم الإسلامي بمجمله، ولعلّ حديثه عن مدينة حلب، والأحداث التي رصدها عنها يعطي مؤلفاته أهمية خاصة لكونه حلبيا، ولاعتماده على المصـادر الشـفوية المعاصرة لتلك الأحداث، وتأتي هذه الأهمّية أيضا لاهتمامه الخـاص بـبعض التفاصـيل الاجتماعية والطبوغرافية (4)

ويرى عدد من الدارسين أن تاريخ يحيى بن أبي طيء ظل في متناول من بعده مـن المؤرخين حتى زمن ابن أبي الفرات؛ أي حتى القرن الخامس عشر الميلادي ثم اختفى ككل. وأكد جب هاملتون هذا الرأي بإشارته إلى أن أقسامًا لا يستهان بها من تاريخ ابن أبي طيء

---

(1): هاملتون جب، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 71.

(2): لؤي ابراهيم بواعنة، **يحيى بن أبي طيئ مؤرخًا،** المرجع السابق، ص 45.

(3): فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، ص 580.

(4): لؤي ابراهيم بواعنة**،** المرجع السابق، ص 45.

تم تناولها في أحد كتب التاريخ العام المتأخرة، وهو تاريخ ابن الفرات، لكنّه أشـار إلى أن سنوات طويلة من التاريخ الذي كتبه يحيى ابن أبي طيء ظلت مفقودة عند ابن الفـرات، خاصة السنوات الممتدة من (568- 1172/586-1190) [1]، وأشار بعض الباحثين إلى أن هناك مؤرخين نقلوا عن يحيى بن أبي طيء، ويتأكد عند فحص بعض الكتابات التاريخية أن إشارات صريحة نقلها من جاؤوا بعد يحيى ابن أبي طيء، فهناك إشارة صريحة نقلـها ابـن شداد الجغرافي (1285/684) [2] عن يحيى بن أبي طيء يتحدث فيها عن سـبب تسـمية حصن الأكراد بذا الاسم، ونقل عنه آخرون، منهم ابن العديم (ت 1261/660) والذهبي (ت 1347/748)، وابن قاضي شهبة (ت 1496/874)، وليس غريباً أن يكون ابن الأثير صاحب كتاب "الكامل في التاريخ " قد استقى بعض أخباره من يحيى بن أبي طيء، حيث وجدت إشارات عند أبي شامة تؤكد ذلك، وهناك مؤرخون آخرون نقلوا عن يحيى بن أبي طيء من غير أن يشيروا إليه صراحة، خاصة أولئك المؤرخين الذين تناولوا تـاريخ الشـام ومصر في الفترة التي اهتم با يحيى بن أبي طيء، منهم، والمقريزي (ت 1441/845).

أما أسباب اختفاء مؤلفات يحيى بن أبي طيء، فقد أرجعها بعض الباحثين إلى تشـيّعه، وقد يكون هذا الطرح مقبولا في حال قياسه بمؤرخين معاصرين، مثل ابن الأثير، الذي وصلت معظم مؤلفاته. وهناك من يضيف سببًا آخر يتمثل في الهجمة المغولية التي دمرت حلـب سـنة (1262/660) بعد دمار بغداد على يد هولاكو؛ إذ أتت على كل مكاتبها وجوامعها وناسها، وأتت كذلك على ثروة الكتب فيها، ومن ذلك تراث يحيى ابن أبي طيء التـاريخي. ولعـلّ في كليهما سببين وجيهين لاختفاء مؤلفاته [3].

اكتفى المؤرخون الذين نقلوا عن يحيى بن أبي طيء بذكر كتابه الذي نقلـوا عنـه كقولهم: "قال صاحب كتاب "معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتـب "، وهناك آخرون اكتفوا بذكر ابن أبي طيء من غير الإشارة إلى كتابه، على نحو: قال الشيخ

---

(1): جب هاملتون، المرجع السابق، ص 71.

(2): هنا يقصد عز الدين بن شداد الحلبي صاحب كتاب" **الأعلاق الخطيرة** في **ذكر أمراء الشام والجزيـرة** "، ولـيس صاحب سيرة صلاح الدين " **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**" القاضي باء الدين بن شداد الموصلي.

(3): ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخا**، المرجع السابق، ص 46-47.

يحيى بن طيء بن حميد النجار بن ظافر بن علي الغساني، أو اكتفوا بالقول: قال ابـن أبي طيء، أو قال ابن أبي طيء الحلبي، ويتبّين في كثير من الأحيان أن يحيى بن أبي طيء كـان يذكر بعض مصادر أخباره، ومنها: والده الذي كان مصدرًا مهمًـا وذا قيمـة بالنسـبة لأخباره؛ لأنه مصدر شفوي ومعاصر لكثير من الأحداث، ومن المؤكد أن والده أخذ عن معاصرين للأحداث حسب سياق الروايات الواردة لديه، كقوله: "حدثني أبي، ويجعل مـن فقهاء حلب وأعيانا المعاصرين للأحداث مصادر مهمة له، فقد أخذ عن الفقيه الحلبي الموفق محمود بن النحاس، وعن الإدريسي الشريف نزيل حلب، وأحد شهود عيان أحداث دخول صلاح الدين الأيوبي للإسكندرية. وقد كان الركن بن جهبل العدل من ضمن الحلبيين الذين استقى يحيى بن أبي طيء أخباره منه، وكذلك الملك الظاهر بن صلاح الـدين الأيـوبي، ومؤرخين آخرين [1].

2- هيكلـة روايـات يحيـى بـن أبـي طـيء وموضوعاتهـا

وصلتنا روايات يحيى بن أبي طيء مبعثرة وتحديدا من كتابيه "كـ الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين"[2]، و" معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب ". فوردت عند المؤرخ الدمشقي أبي شامة (ت 1266/665) في كتابه " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " [3]، وعند ابن الفرات في كتابه " تاريخ ابن الفرات "، وعند ابن قاضي شهبة في كتابه " الكواكب الدرية في السيرة النورية " (تاريخ السلطان نور الدين محمـود زنكي). وقد اتسمت روايات يحيى بن أبي طيء بتنوعها بـين سياسـية [4]، وعسـكرية، ومذهبية، واجتماعية، وإدارية، وسير شخصية، فجاءت المادة التاريخية مشتملة على فتـرتين مهمتين: الفترة الأتابكية (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود) [5]، والفترة الأيوبية وتحديدًا

---

[1]: ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخا**، المرجع السابق، ص 48.

[2]: أبو شامة، **الروضتين**،المصدر السابق، 56/2.

[3]: نفسـه، ج1، ص 86.

[4]: للإطلاع على الأوضاع السياسية للدولة الفاطمية بعد حملة نور الدين الثالثة على مصر انظر: أبو شامة، **الروضـتين**، ج2، ص 72.

[5]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص 124، 209، 239، 250، 252، 276.

فترة السلطان صلاح الدين الأيوبي بأحداثها كلها [1]، وما تضمنته الفترتان من صراع مـع الفرنج (الصليبيين) في مصر والشام؛ ودور الأسرتين الزنكيه والأيوبيـة في مقاومتـهما [2]؛ وروايات لجوانب ونواحٍ متنوعة [3].

روى ابن أبي طيء خلال عصر الأتابكية ما كان من فتح عماد الدين زنكي من الـبلاد، ودوره في مقاومة الفرنج وتفرق أصحابه من بعده، وانقسام الملك بين ولديه غازي ومحمود، وتملك نور الدين محمود لحلب وجهوده في مقاومة الفرنج [4]، والخلافات السياسية بـين أمرائه وغارات الفرنج على حلب ودمشق، ودور أسد الدين شيركوه في صـد اعتـداءاتم وفتح نور الدين محمود دمشق عام (1145/549)[5]، واستكمال مشاريعه الوحدوّية بفتح مصر بإرساله العديد من الحملات، والتفصيل في استنجاد الوزير المصري شاور بنور الدين محمود والغدر به، وتولية أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر بعد قتل شاور، ودور نـور الدين محمود في التمهيد للوحدة المذهبية بين مصر والشام [6].

أما الفترة الثانية التي اشتملت عليها روايات يحيى بن أبي طيء، فهي عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقد تطرقت لحياة صلاح الدين وبدايات ظهوره، وصفاته وعلاقتـه بالسلطان نور الدين محمود سواء المحكوم عليها بالإيجابية أم السلبية [7]، ودوره في مقاومـة الفرنج في الإسكندرية، وفي مقتل الوزير شاور وتولية أسد الدين شيركوه؛ وابن أخيه صلاح الدين من بعده للوزارة في مصر[8]، وإجراءات صلاح الدين بعد توليته الوزارة كمقاومتـه

---

[1]: نفســـه، ج1، ق1، ص251، ج2، ص 81، 84، 95، 107، 125، 135، 149، 167.

[2]: نفســـه، ج1، ق1، ص 311- 312،ج2، ص 63-65.

[3]: ابراهيم بواعنة، المرجع السابق، ص 48- 49.

[4]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص306.

[5]: نفســـه، ص 239.

[6]: لؤي ابراهيم بواعنة، المرجع السابق، ص 49.

[7]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص 251.

[8]: نفســـه، ج1، ق2، ص 438.

للفكر الشيعي الإسماعيلي، وإعلان الخطبة لبني العباس وقطعها للخليفة الفاطمي العاضد، وما أحيك ضده من مؤامرة دعاة المصريين، وجهوده في إبطال المكوس [1] والمظالم في مصر [2].

ويظهر أن يحيى بن أبي طيء قدم أخبارا تفصيليّة أكثر، لارتباطها بالدولة الفاطمية في مصر، فاق فيها بعض معاصريه مثل ابن الأثير، والمصدر الوحيد الذي سجل الحيـاة القديمـة لصلاح الدين هو ابن أبي طيء الذي كان العدو اللدود لنور الدين لكن على غير المتوقع صديقا لصلاح الدين فجل أعماله فقدت ما عدا بعض المقولات التي حفظت من طرف بعض المؤرخين الجدد[3]

لقد توسع يحيى ابن أبي طيء في إبراز دور صلاح الدين في الإسكندرية في هـذه الفترة في حين كانت محاولة ابن الأثير التقليل من هذا الدور، وإظهار خوفه من نور الدين محمود، والخلاف بينهما خاصة قبل قطع الخطبة للفاطميين[4].

كما تناولت روايات يحيى بن أبي طيء فتح الأيوبيين للنوبة واليمن، والانقسامات السياسية في الشام بعد وفاة نور الدين محمود، وموقف صلاح الدين منها، وعزمـه علـى مقاومة الفرنج، وما كان من سيطرته على دمشق، وحماة، وبعلبك ورغبته في السيطرة على حلب، ووقوف أهل حلب والقائمين عليها ضده، وحصاره حلب لأكثر من مرة، وتوحيد جهود الحلبيين وأهل الموصل ضده، وفتح صلاح الدين الأيوبي العديد من المدن حول حلب كمنبج وعزاز، ووقوف الحشاشين في الشام ضده؛ والرغبة في الخـلاص منـه، ودخـول السلطان إلى بلاد الأرمن، وبلاد الشرق، وعبوره الفرات، وفتحه سروج وماردين والرهـا والرقة، وإكمال مشروعه الوحدوي بفتح حلب[5].

---

[1]: نفســه، ص 443.

[2]: لؤي ابراهيم بواعنة، المرجع السابق، ص 50.

[3] Sir hamilton gibb,The life of saladin, from the zorks of ' imad ad-din and bahaa' ad-din, oxford,1973,p.01.

[4]: لؤي ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيء مؤرخا**، المرجع السابق ، ص 50.

[5]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 607، 631، 656،659،668، 669،ج2، ص 149.

فالملاحظ أن هذه التفاصيل تعالج مراحل مهمة في مشروع صلاح الدين التوحيـدي في المنطقة ورؤيته الإستراتيجية، وتلقي الضوء على أن مشروعه ركز على توحيـد مصـر والشام، كما لم يغفل يحيى ابن أبي طيء أماكن أخرى مثل الموصل [1].

قدم يحيى بن أبي طيء معلومات مهمّة عن الدولة الفاطمية في مصـر والشـيعة في حلب ودور نور الدين محمود في مقاومة الفكر الإسماعيلي، وبيان بعض طقـوس الشـيعة وتأثيرهم في القرار السياسي، وخاصة إبان حكم نور الدين محمود، وما آل إليه أمر الدولة الفاطمية من الانهيار على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وموقف السنة بمصر من الشيعة الإسماعيلية بعد قطع خطبة الخليفة العاضد كالاستطالة عليهم وتتبعهم، وما قام به السلطان صلاح الدين من استيلاء على قصور الخليفة العاضد وأمواله وما احتوته خزائن الفاطميين من نفائس الكتب [2].

وتضمنت روايات يحيى بن أبي طيء حوادث متنوعة، فتحدث عن التعليم في بغداد، وفتح المغرب على يد بهاء الدين قراقوش أحد أمـراء السـلطان صـلاح الـدين عـام (1175/571) [3]. ودور أهل المغرب في مقاومة الفرنج على الجانب الغربي، وترجمته لعدد من الفقهاء والشعراء.

3- صـورة الملك نـور الديـن محمـود زنكـي في روايـات ابـن أبـي طـيء

اتهم يحيى بن أبي طيء بالتحامل على الملك نور الدين محمود؛ لمواقفه من الشيعة في حلب؛ إذ أذلّهم، وأبطل شعارهم، وقوّى أهل السنة عليهم، ونفى والد يحيى بن أبي طيء من حلب، الذي كان من كبار أعيان الشيعة فيها. وقد صرح أبو شامة بهذا التحامل لقوله: "هذا مع أن ابن أبي طيء متهم فيما ينسب إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الـدين كان قد أذل الشيعة بحلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيء في كتابه مفرقًا في مواضيع، فلهذا هو في هذا الكتاب له كثير الحمل على نور الدين، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه ممـا لا يليق به [4]. وقد نحت معظم الدراسات الحديثة ما ذهب إليه أبو شامة من هذا التحامـل

---

[1]: لؤي ابراهيم بواعنة، المرجع السابق، ص 50.

[2]: نفســه، ص 51.

[3]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 666.

[4]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 441.

وعللوه للأسباب نفسها [1]، وبغض النظر عن موقفهم من ابن أبي طيء، وهذا الاتهام، إلا أن الأمر يحتاج إلى دراسة بالوقوف على كثير من رواياته المتعلقة بنور الدين محمود وإنجازاته ومواقفه وبيان إن كان هناك تحامل أم لا.

ويذكر أن هناك مواقف أخرى أسهمت في تكوين تلك الصورة عن يحيى ابـن أبي طيء، واتهامه بالتحامل على نور الدين، فالرواية المتعلقة بموقف نور الدين من وزارة صلاح الدين في مصر، تظهره متحاملا على أهل صلاح الدين، وتصوره بالكاره وبعدم الرضى عمّا وصل إليه صلاح الدين بمصر من علو الشأن لقول يحيى بن أبي طيء [2]، واللافت أن هذه الرواية تحمل جرأة وانفرادًا يحسبان ليحيى بن أبي طيء، فقد أبدى فيه ابن الأثير حـذرًا في التعليق على وزارة صلاح الدين الأيوبي ولم يظهر ردة فعل نور الدين عليها باستثناء إشارة واحدة تظهر فيها مكاتبته لصلاح الدين بالأمير الاسفهسلار قائد الجيش فقط، في حين أشار ابن شداد إلى قيام نور الدين محمود بأخذ حمص من نواب أسد الدين شيركوه بعد استقرار أمر صلاح الدين بالوزارة في مصر، ولم يكن ابن أبي طيء وحده الذي تحدث عن إجراءات نور الدين محمود ضد الشيعة الإسماعيلية في حلب، فقد أشار ابن القلانسي [3] إلى أنـه في عام (1148/543)، قام نور الدين بإبطال طقوس الشيعة ووصفه بصاحب السطوة والقوة [4].

---

[1]: من بين هذه الدراسات مقدمة المحقق جب هاملتون، **صلاح الدين**، ونظير حسان سعداوي، **المؤرخون المعاصـرون**، ص 03.

[2]: حدثني أبي قال: حدثني جماعة من أصحاب الملك العادل نور الدين محمود ... أن السلطان نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين شيركوه، ووزارة صلاح الدين يوسف، أعظم ذلك، وتتبع أصحاب أسد الدين، وأصـحاب صـلاح الدين، والمتعصبين له، وأمر بحل إقطاع أسد الدين وصلاح الدين، وأخذ حمص من نواب أسد الدين، وجمـع أهلـه وأمرهم بالخروج إلى مصر تثقيلا عليه، . . . وأكثر عليه الشائعات، وقرفه بأشياء منها الرفض، وبدا منه ما لا يليق بالذكر، وعنته بالمطالبات، وحمل الأموال، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 440-441.

[3]: ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، المصدر السابق، ص 468.

[4]: أبرز يحيى بن أبي طيء العديد من الروايات التي تظهر نور الدين محمود بصورة حسنة، ومنها إظهاره بدور الحاكم الفطن المهتم بأحوال رعيته، كتتبعه لآثار الزلزال الذي ضرب حلب ومدن الشام الأخرى، لقوله": ووصل الملك العادل نور الدين إلى حلب... وعاين ما أصابها فحزن عليها، وأعظم المصيبة التي صارت إليهـا، . . . وأخـذ في عمـارة أسوارها وأبراج قلعتها، كذلك إيراد يحيى ابن أبي طيء الرسالة التي بعثها نور الدين للخليفة العباسي المستنجد بـالله

4- صلاح الدين الأيوبي في كتابات ابن أبي طيء

عدّ ابن أبي طيء من كبار الكتاب الذي كتبوا في سيرة السلطان صلاح الدين وعصره، وما كتبه ذو أهمية خاصة بين غيره من المؤرخين المعاصرين. فقد تناول يحيى ابن أبي طيء شخصية صلاح الدين وحياته ومنجزاته، سواء أكان ذلك على نحو جزئي أم على نحو كامل، واعُتبر ابن أبي طيء المصدر الشيعي الوحيد الذي تناول تاريخ صلاح الدين الأيوبي، فرصد البدايات الأولى في دولة الملك نور محمود مبرزًا المناصب التي أسندت له، ومنها توليه شحنكية* دمشق، والديوان وكان ذلك عام (550/1155) [1] معرجًا على العلاقة الحميمية التي كانت تربطه بنور الدين محمود في بداياتها؛ إذ كان صلاح الدين أحد خواصه لقوله: "واستخلص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر" [2] وهذا يبيّن اهتمام ابن أبي طيء بتتبع مراحل حياة السلطان صلاح الدين الأيوبي ومحاولته الكشف عن قدراته التي أهلته للقيام بدور سياسي وعسكري مهم [3].

ويرى جب هاملتون أن سيرة السلطان صلاح الدين عند ابن أبي طيء الحلبي حملت شيئًا من الإطراء، ولم تحمل أية صفة عدائية مقارنة مع تلك الصورة التي حملها لنور الدين محمود، وهذا برأيه عكس ما كان متوقعًا من مؤرخ شيعي من حلب [4]، وذهب الباحث

ذاكرًا فيها أمر الزلزال، وآثاره في حلب والشام، مع إيراده القصيدة التي مدح فيها القاضي محيي الدين الشهرزوري والملك نور الدين محمود، ومنها قوله:

حلب لها حلّت المدامع مسبلًا   أن لاقت الخطّب الفظيع المبكِيا

ويعدل نورِ الدين عاود أُفُقها   من بعدِ غَيمِ الغمّ جوًا مصحِيا

قد يظهر أن هذه الفكرة تتناقض مع سابقتها ولكنها في الحقيقة لا تحمل تناقضًا بقدر ما فيها من إظهار فكرة حيادية يحيى بن أبي طيء مع الأحداث كمؤرخ من خلال تدعيمها بأمثلة مخالفة لما سبقها للحيلولة دون إصدار حكم على يحيى ابن أبي طيء بأنه كان متحاملا على نور الدين، وهذا يعني دحض المواقف السابقة التي حسبت عليه، **انظر**: لؤي ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخا،** المرجع السابق، ص 52- 53.

[1]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص 250. (*): شحنكية هي رئاسة الشرطة ومتوليها يسمى صاحب الشحنة، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ص 251.

[2]:أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص252.

[3]: لؤي ابراهيم بواعنة، **يحي بن أبي طيئ مؤرخا،** المرجع السابق، ص 56.

[4]: جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي**، المرجع السابق، ص 180.

نظير سعداوي أبعد من ذلك عندما رأى بأن نصوص يحيى ابن أبي طيء تؤازر صلاح الدين الأيوبي[1]. وقد أشاد يحيى بن أبي طيء بالسلطان صلاح الدين الأيوبي عند توليه الوزارة في مصر واصفًا حكمته في إدارة الدولة[2]، ولم يقتصر الأمر على الإشادة به بل نجده يعلـل أحيانًا بعض تصرفاته، ومنها رفعه الحصار عن حصن الإسماعيلية المسـمى (مصـياب)[3] مصياف عام (1176/572)، فها هو يبرر إنهاء الحصار عن هذا الحصن لما كان من إغارة الفرنج على البقاع، وخوفه على بلاد المسلمين لقوله:" وهذا أكبر الـدواعي في مصـالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية؛ لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانًا وعاد إلى دمشق"[4].

لقد أورد ابن أبي طيء معلومات مهمّة عن سيرة صلاح الدين وبدا وهو واحـد مـن أعيان الشيعة في حلب مؤيدا لسياسات صلاح الدين فلم يذكر ما يسيئ له بل مال إلى مدحـه أحيانا؛ وهو ما يظهر على الأقل رأي علماء الشيعة ومفكريها في السلطان صلاح الدين الذي قام بإسقاط الخلافة الفاطمية لصالح العباسيين، ودحض كل ثورة، وتتبع كل فكـرة أرادت أو حاولت إعادة مجد الشيعة الفاطميين في مصر وكل مناطق نفوذ الشيعة أيام كـانوا أصـحاب القرار والحكم.

---

[1]: نظير حسّان سعداوي، **المؤرخون المعاصرون**، المرجع السابق، ص 05.

[2]: فيقول:" ولما استقرّ قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها، وجرى في مناهج العدل على جددها... وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المـبين..."، وأظهـره بصـورة المتسامح إزاء نور الدين محمود، وإنه واسع الصدر لما كان يناله منه لقوله:" ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنّه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب"، **انظر**: أبو شـامة، **الروضـتين**، ج1، ق2، ص 440، 441.

[3]: مصياب حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس، وبعضهم يقول مصـياف **انظـر**: **معجـم البلدان**، 144/5.

[4]: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق2، ص 669- 670.

V- ابـن شـداد الموصلـي، والسيـرة الحنينيـة للسلطـان

من بين أكثر المصادر المختصّة التي تناولت حياة صلاح الدين مفصّلة " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " لقاضي العسكر باء الدين بن شداد الذي اتصل بالسلطان في فترة متأخرة من حياته، ودوّن سيرته بعد وفاته بمنهج قلّما نجد سيرة كتبت على منوالهـا. فمـن حيـث شموليتها تطرقت لكامل حياة صلاح الدين، بأسلوب سلس يشدّ ذهن القارئ ليتمسك بقراءة كامل أخبارها. هذا التمسك منشؤه ربما من الحنينية الفيّاضة التي أبداها ابن شـداد لسـلطانه خاصة لمّا عايش مرحلة ما بعد صلاح الدين التي ضاعت فيها جهوده المبذولة بسبب خلافـات خلفائه من بعده.

إن سيرة ابن شداد من حيث أهميتها تندرج ضمن ما كتبه معاصرو صلاح الدين فهم الأقرب إليه زمانا ومكانا، مع الأخذ بعين الاعتبار أثر هذا القرب في رؤية المؤرخ للسـلطان وموقفه من سياساته وقراراته.

1- ابـن شـداد: في خـدمـة صـلاح الديـن

يوسف ابن رافع ابن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي، المعروف بابن شـداد، كان يكّنى بأبي العز ثم غّير كنيته وجعلها أبى المحاسن ولقب ببهاء الدين [1]، نشأ ببني شـداد فنسب إليهم[2]، ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة (1144/539) [3].

---

[1]: هناك اتفاق بين عدد من المؤرخين حول هذا النسب، كزكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنـذري في كتابه، **التكملة بوفيات النقلة**، مج3، ص384، رقم الترجمة 2574، وابن خلكان في كتابه، **وفيات الأعيان**، مـج7، ص84، رقم الترجمة 842. والذهبي، **الإعلام بوفيات الأعلام**، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكّار، بيروت، دار الفكر المعاصر (1991/1412)، ص261، وتعرض له بالترجمة في كتابه، **معرفة القرّاء الكـرام علـى الطبقـات والأعصار**، تحقيق، بشار عوّاد معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة (1984/1404)، 619/2، رقـم الترجمـة 584، والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 83/22- 84.**والعبر** في **خبر من غبر**، تحقيق، أبو هاجر محمد السعيد بن بسـيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية (1985/1405)، 215/3، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، المصدر السابق، المجلد3، 518/5. وابن تغري بردي الأتابكي، **النجوم الزاهرة** في **ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق، إبراهيم علي طرخـان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر 292/6.

[2]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 84/7.

[3]: المنذري، **التكملة**، المصدر السابق، 385/3. و ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق،84/7 والذهبي **العبر**، مصدر سابق، 215/3. **و السّير**، مصدر سابق، 284/22 و158/5.

حفظ القرآن الكريم في صغره، ولازم الشيخ صائن الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمّام بـن محمد الأزدي القرطبي إحدى عشر سنة، فقرأ عليه بالطرق السبع وأتقنها، وقرأ عليـه روايـة الحديث وشروحه والتفسير، وسمع بعضا من تفسير الثعلبي على الشيخ أبي البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشربجي، وسمع من الشيخ مجد الدين أبي الفضل عبد الله بـن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الخطيب، كما سمع من القاضي فخر الدين أبي الرضا " سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري "، مسند الإمام الشافعي، ومسند أبي عوانة، ومسند أبي يعلـى الموصلي، وسنن أبي داود، والجامع لأبي عيسى الترمذي[1].

كما سمع من الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بـن علـي الأشـيري الصنهاجي، وقرأ عن سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني صـحيح مسـلم، وكتـاب الوسيط للواحدي[2].

رحل إلى بغداد وسمع من شهده بنت الإبري، والفقيه أبي الخير أحمد بن إسماعيل القـزويني[3]، ومحمد بن أسعد العطاري حفدة، وابن ياسر الجياني[4].

وبذلك برع ابن شداد في الفقه وشتى العلوم، وساد أهل زمانه ونال رئاسة الـدين والـدنيا، وتحصل على عدة إجازات من شيوخه ، فقد أجازه شيخه أبو البركات بأن يروي عنه جميع ما رواه عن ائتلاف الروايات، كما أجازه الحافظ مجد الدين والشيخ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجيلاني، وقد ذاع صيت الشيخ أبي المحاسن واشتهر كثيرا[5]، واجتمع حوله أهل العلـم للأخذ عنه كما تقرب منه أهل السلطنة، وكان عونا لهم وشغل عدة مناصب.

---

[1]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 85/7.

[2]: نفسـه، ص86.

[3]: المنذري، **التكملة**، المصدر السابق، 384/3، الذهبي، **السّير**، المصدر السابق، 284/22.

[4]: الذهبي، معرفة القراء، المصدر السابق، 620/2.

[5]: خاصة في مصر ودمشق وحلب حيث التأم حوله الطلبة وحدّثوا عنه، ومنهم " أبو عبد الله الفاسي، المنذري، العديمي وابنه مجد الدين، و أبو حامد ابن الصابوني، سعد الدين ابن النابلسي وأخوه، أبو الصادق محمد بن الرشيد، أبـو المعـاني الأبرقوهي، الصاحب محي الدين بن النحاس" ، أنظر: المنذري، **التكملة**، المصدر السابق، 385/3، الذهبي، معرفة القراء، المصدر السابق، 620/2، **والسّير**، المصدر السابق 284/22-285.

فقد شغل مهنة التدريس بالموصل لما قدم إليها سنة (1173/569)، بالمدرسة الـتي أنشـأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، وولي قضاء العسكر في الأيام الناصرية، وقضاء بيت المقدس" [1].

وقد اهتم أبو المحاسن كثيرا بترتيب أمور حلب، فجمع بها الفقهاء وعمر المدارس، ومن أبرزها تلك التي بناها من ماله الخاص بالقرب من باب العراق مقابل مدرسة نور الدين محمـود بـن زنكي سنة (1204/601)، ثم ألحق بجوارها دار للحديث وأصبح للفقهاء في أيامه حرمة تامة، ورعاية كبيرة، وخاصة أولئك الذين يشتغلون بمدرسته[2].

وبعدما طعن في السن ولم يبق له حديث في الدولة ولا مشورة، فضّل ملازمة بيته وفتح بابـه لطلبة العلم لتدريس الحديث وعلومه وكان ذلك كل يوم بين الصلاتين واستمر على هذا الحال حتى وفاته بعد مرض شديد لازمه يوم الأربعاء سنة (1234/632) بـ حلب [3].

كان ابن شداد ثقة حجة، عارفا بأمور الدين، اشتهر اسمه وساد ذكره، ذا صلاح وعبادة، كان في زمانه كالقاضي أبي يوسف في زمانه، دبّر أمور المملكة بحلب، واجتمعت الألسـن علـى مدحه، وأنشأ دارا للحديث، وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة" [4]. ترك ابن شداد [5] وراءه

---

[1]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 87/7. المنذري، **التكملة**، المصدر السابق، 385/3. الذهبي، **معرفة القراء**، 620/2، الحنبلي، **الشذرات**، المصدر السابق، 88/7-89.

[2]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 89/7-91.

[3]: نفسـه، 99/7.

[4]: نفسـه، 91/7.. الذهبي، **معرفة القراء**، 620/2، **والسّير**، المصدر السابق، 385/22. الحنبلـي، **الشـذرات**، المصدر السابق، 158/5-159.

[5]: هناك ابن شداد آخر يشترك مع مؤرخنا في أشياء كثيرة، يكّنى مؤرخنا ببهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بـن تميم بن شداد، وسمّيه يكّنى بعز الدين واسمه عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، باء الدين ولد ونشأ في الموصل، غير أنّه قضى معظم حياته وتوفي في حلب سنة (1234/632) أما عزّ الدين فقد ولد ونشأ في حلب، ولكّنه قضى معظم حياته في القاهرة وبا توفي سنة (1285/684) لقد أخلط بعض المؤرخين وكتاب التراجم والببلوغرافيون بين الرجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما، كان أول من وقع في هذا الخطأ حاجي خليفة في كشف الظنون فقد ذكر كتاب (**الأعلاق الخطيرة** في **ذكر أمراء الشام والجزيرة**) ونسبه إلى باء الدين بن شداد، وقد وقع في نفس الخطأ مؤرخون نقلوا عن حاجي خليفة، كجورجي زيدان في(تاريخ آداب اللغة العربية)، والغزّي في (نر الذهب)، و أحمد بدوي في (**الحيـاة العقلية** في **عصر الحروب الصليبية** **بمصر والشام**)، وأخطأ أيضا بروكلمان لمّا نسب كتاب (**تاريخ حلب**) لبهاء الـدين فيما هو من تأليف عز الدين ابن شداد، ووقع في نفس الخطأ عبد اللطيف حمزة في كتاب (**الحركة الفكرية** في **مصـر** في

عدة مصنفات منها : " دلائل الأحكام" [1] تحدث فيه المؤلف عن الأحاديث النبوية المستنبط منها الأحكام، و"ملجأ الحكام عند التباس الأحكام" [2] (في الأقضية) و "دروس في الحديث"[3]، وكتاب " العصا "[4]، وكتاب " فضائل الجهاد" [5] ألفه خصيصا لصلاح الدين وكتاب " أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي" ومن كتبه أيضا سيرة صلاح الدين وهي محل الدراسة و المسمّاة "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" وهي مطبوعة في مجلد واحد [6].

بعد هذه اللمحة الموجزة عن حياة ابن شداد، نبّين فيما يلي كيفية التحاقه بخدمة السلطان صلاح الدين، منذ البدء حتى أصبح من رجالات الدولة الصلاحية ومن أصحاب الحل والعقد فيها.

في سنة (1187/583) سافر باء الدين بن شداد إلى مكة وأدّى فريضة الحج وكان يزمع في عودته أن يزور بيت المقدس، وكان قد استردها البطل صلاح الدين ولكّنه نزل أولا بمدينة دمشق، وكان صلاح الدين يحاصر قلعة كوكب، وعلم بوصول ابن شداد إلى دمشق، وكان يعرفه منذ اتصل به في سفارته السابقة كرسول من رسل الموصل في الصلح مع صلاح الدين، بل على يديه تحقق ذلك سنة (1185/581) عندما انتدبه أهل الموصل، فاستدعاه

العصرين الأيوبي والمملوكي)، والباز العريني في كتابه (**مؤرخو الحروب الصليبية**)، وأخطأ بروكلمان أيضا عندما نسب إلى باء الدين ابن شداد كتاب (**الروض الزاهر** في **سيرة الملك الظاهر**) المقصود هنا بيبرس البندقداري لا الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب، وتبعه في نفس الخطأ الباز العريني في مؤلفه سالف الذكر.

[1]: عن أصول الفقه مع الاستشهاد بالأحاديث، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم 736، انظر: بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، 13/6.

[2]: **انظر**: مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة في مجلدين، 297/3- 298، انظر: بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، 13/6.

[3]: ألقاها في القاهرة حين سافر إليها سنة (1231/629) لإحضار ابنة الملك الكامل محمد عروس للملك العزيز صاحب حلب) مخطوط بالمكتبة البودليانية في أكسفورد 117/1: 3، **انظر**: **تاريخ الأدب العربي**، 13/6.

[4]: المقصود (موسى عليه السلام، وفرعون)، 516/2: 2772، **انظر**: **تاريخ الأدب العربي**، 14/6.

[5]: مخطوط بمكتبة كوبريللي رقم 764، انظر: **تاريخ الأدب العربي**، 14/6.

[6]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 272.

السلطان إليه فلما دخل عليه قابله بالإكرام التام وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فأخرج له جزءا جمع فيه أذكار البخاري وقرأه عليه بنفسه [1].

يقول ابن شداد في مؤلفه السيرة حول اتصاله بصلاح الدين:" ولمّا ودعته ذاهبا إلى القدس خرج لي بعض خواصه- عماد الدين الأصفهاني الكاتب- وأبلغني تقدمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل"، ثم عاد ابن شداد من القدس إلى دمشق في نفس اليوم الذي دخلها السلطان فيه سادس ربيع الأول سنة أربع وثمانين [2].

طلب صلاح الدين أن يكون ابن شداد في خدمته ورفض عودته إلى الموصل حيث يقول:" ثمّ سيّر إليّ مع الفقيه عيسى، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد، فأحببته لذلك، وخدمته من سنة (1188/584)" [3] .

وللقاضي الفاضل أثر في وصول ابن شداد إلى هذه المرتبة، ومنذ هذا التاريخ لازم ابن شداد السلطان الناصر في حله وترحاله وكان من الشاهدين على معارك صلاح الدين ضد الإفرنج، حيث كان قاضيا للجند وكثيرا ما كان يتلو على آذان السلطان أحاديث نبوية أو آيات قرآنية يثّبت بها قلبه ويزيده تمسكا وثباتا وصبرا.

ولكن بعد وفاة صلاح الدين تدهورت حالة ابن شداد بتدهور أحوال الدولة كلها وتوجه إلى حلب سنة (1194/591)، حيث عينه صاحبها الملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين وزيرا وقاضيا له، وحاول ابن شداد جمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين، حيث تنقل لأجل ذلك من حلب إلى القاهرة أكثر من مرّة سنوات (593-613-1196/629-1216-1231) سعيا وراء الإصلاح وجمع الكلمة وظل ابن شداد متمتعا بمكانة ونفوذ في حلب أيام الظاهر وابنه العزيز، فاعتنى بترتيب أمور حلب، وعمّر مدارسها ولمّا

---

[1]: ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة**، (ت) جمال الدين الشيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964، ص 85.

[2]:ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 85.

[3]: نفسه، ص 87.

بلغ الظاهر سن الرشد استقل بالحكم وسيطر عليه جماعة من الشبان وسيطروا على أمور البلاد، فلزم ابن شداد داره مع احتفاظه بوظيفته وأرزاقه، وأسمع النّاس الحديث إلى أن توفي بحلب[1].

2- السيـرة اليوسفيـة: المضمـون والمنهـج

سجل ابن شداد، في مؤلفه سيرة صلاح الدين الأيوبي، وقد ضمّنه الأحداث التي شهدتا الشام في الفترة الممتدة بين (1162/558و1193/589)، أي الفترة التي تبدأ بمشاركة صلاح الدين لعمه في الحملة الأولى على مصر، حتى وفاة صلاح الدين.

يبدأ الكتاب بديباجة كلاسيكية موجزة تتضمن الحمد والثنـاء والشـهادة والصـلاة والتسليم على سّيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- ثمّ ينطلق من ذلك إلى الحديث عن الباعث على هذا التأليف حيث يعلل ذلك بأنّ شخصية صلاح الدين، وأفعاله وما شاهده المؤلف مـن أمجاده، وسمو أخلاقه، هي التي دفعت به إلى هذا التأليف (فإني لمّا رأيت أيام مولانا السـلطان الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الصلبان)[2]، ويستطرد إلى أن يقول:(وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير با إخفاؤها، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى عنـه أخبارهـا وأنباؤها، ومسّني من رقّ نعمتها، وحقّ صحبتها وواجب خدمتها ما تعّين عليّ به إبـداء مـا تحققته من حسناتا، ورواية ما علمته من محاسن صفاتا..وأسميت هذا المختصر من تاريخها- أي تاريخ أيام صلاح الدين- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) [3].

قسّم القاضي باء الدين بن شداد مؤلفه إلى قسمين: أحـدهما في مولـده، ومنشـئه وخصائصه[4]، وأوصافه وأخلاقه وشمائله الراجحة ونظر الشرع الوفّية، والقسم الثاني في تقلبات الأحوال به، ووقائعه وفتوحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته [5].

---

[1]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 272.

[2]: ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق ص 3.

[3]: نفسـه، ص 4.

[4]: هناك عرض مفصّل عن ولادة صلاح الدين ونشأته، **انظر**: قدري قلعجي، **صلاح الدين الأيو**بي (قصة الصراع بـين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1992، ص 151.

[5]: ابن شداد، **النوادر** السلطانية، المصدر السابق، ص 4.

يبدأ القسم الثاني بدخوله مصر مع عمه شـيركوه وينتـهي بوفـاة السـلطان سـنة (1193/589)، وقد أوجز ابن شداد كثيرا في القسم الأول من سيرته والذي خصصه للحـديث عن صفات صلاح الدين وحميد أخلاقه، ويستفتح الحديث عن كل خصلة من هذه الخصـال بآية قرآنية، أو بحديث شريف، ليؤكد هذه الصفة أو تلك للسلطان صلاح الدين.

بدأ ابن شداد في القسم الثاني وهو الخاص بالحديث عن حروب صلاح الدين وفتوحاته، أي سيرته السياسية والعسكرية منذ مشاركته في الحملة الأولى على مصر حتى وفاته بعد صلح الرملة مع ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد، وهو ما يشغل معظم مساحة السيرة [1]، حيـث ينتهي القسم الأول عند ص34 من مجموع 348 صفحة، ويختم ابن شداد القسم الأول قائلا: (فهذه نبذ من محاسن أخلاقه و مكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإسـآم، ومـا سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به الثقة وحققته، وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسير مما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال، وحيث نجز هذا القسم نشـرع في القسم الثاني) [2].

فليت ابن شداد أعفى نفسه خوف الإطالة وأطال في القسم الأول وفصّل، ولم يسارع إلى الدخول إلى الجانب السياسي والعسكري من حياة مترجمه، إذ على الرغم من أهميـة هـذا القسم لمعاصرة ابن شداد له، فإنه هو غاية المؤرخين ومنتهى الكُتّاب، فكل أدلى فيـه بـدلوه وفصّل فيه وأعاد، ولكن الجانب الآخر من الشخصية وأحاسيسها ومزاياها الخلقية واتجاهـات تفكيرها ونبضات قلبها لم يتطرق إليه أحد من المعاصرين كثيرا غير (ابن شداد) بحكم ملازمته لمترجمه، وبعض نقول أبي شامة في مؤلفه الروضتين، وهو ما نحتاج إليه بشدّة لإيضاح صـورة المترجمين في أذهاننا وبخاصة العظماء، لأن التاريخ غالبا ما يحفظ لنا جليل أعمالهم، أما ما يحدث وراء الكواليس، حيث تتشكل دوافع التصرفات وظروف صنع القرار، فإنه لا يتطرق إليه عادة ولعلّ هذا الجانب هو ما يمّيز سيرة ابن شداد عن كثير مما كتب عن صلاح الدين[3].

---

(1): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 273.

(2): ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 34.

(3): جمال فوزي، المرجع السابق، ص 273- 274.

أتمّ ابن شداد جمع مادته يوم وفاة السلطان حيث يقول: (هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب- رحمة الله عليه- فرغت من جمعها يوم وفاته [1]، فإنه قد فرغ من تدوينه سنة (1228/626)، وكان قصده من وراء مؤلفه " حثّ النّاس على الترحم عليه، وذكر محاسنه، والله يحسن خلافته من بعده." [2]

على الرغم من أن ابن شداد قد كتب مسودات كتابه في حين وقوعها وفي أثناء حياة صلاح الدين، فإنه كتب مبيضاتا بعد وفاة صلاح الدين وفي السنوات الأخيرة من حياته، بعدما ترك العمل الرسمي، وتفرغ للتأليف، قبيل وفاته بأقل من ستة أعوام، فقد تأخر في تدوين ما جمعه من معلومات وانتظر شيخوخته حتى يفعل ذلك، فما الذي كان وراء تأخره حتى هذا التاريخ ليرى مؤلفه النور؟

لا يشير ابن شداد تلميحا ولا تصريحا إلى الدافع وراء تأخره، كما لا يذكر ما استجد له سنة (1228/626) ليتمّ تسجيل ما جمعه من مادة، وإن كان يستبعد ضمنا قدرته على إخراج مؤلفه في حياة الناصر، فقد فرغ من جمع مادته يوم وفاة هذا الأخير، فربما يكون المانع لابن شداد هو الحفاظ على كرامته بين الرعية كقاضي وإعطاء صبغة الموضوعية والمصداقية لمؤلفه.

هذا مع عدم استبعادنا لما يذكره في مقدمة كتابه، وما يفهم من سبب تأليفه وقصده من وراء ذلك كله، حيث نلمس من خلال كلامه أن الحنين قد شدّه إلى الأيام التي قضاها مع صلاح الدين، خاصة بعد الحال التي أصبحت عليها البلاد التي أفنى في سبيل إرساء قواعدها كل ما يملك ولم يدخر في تحقيق ذلك جهدا ولا مالا، فسوء تصرف خلفائه من بعده أضاع إلى حد كبير جهوده في سبيل إرساء سلطة قوية، ويبدو أن الرعية في ظل هذا الترهل والتدهور تناست أمجاد الناصر بالأمس، وقد تكون بالغت في تناسيها حتى حمّلته مسؤولية ماجرى من بعده فلم يكن أمام ابن شداد وهو ممن عاصر وعن قرب، وشهد على مسيرة السلطان من أقرب المواقع، إلاّ التذكير بمكانة الناصر وتمجيد مآثره والانتصار له، فنجد أن ابن شداد قد كتب كتابه بعدما

---

[1]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 247.

[2]: نفسه، ص 247.

سلم الملك الكامل بن العادل الأيوبي عام (1228/626) القدس [1] إلى قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور الألمان فريديريك، وأضاع جهود عمه صلاح الدين العظيمة في سبيل تحريرها.

النوادر السلطانية ليست سيرة كاملة وإنما هي لقطات من حياة رجل سجلها رجل معاصر له، ساعدت كثيرا على تكوين صورة لملامح شخصيته وإن كانت غير تامة، لأن ابن شداد تحدث عن صلاح الدين الشاب والكهل والسلطان والفارس والزاهد، ولم يتحدث عن صلاح الدين الشاب والصبي أو الفتى، ولم يتطرق إلى الحديث عن جو الأسرة وظروف النشأة والبيئة كثيرا، ربما لأنه يريد التركيز على الفترة الحاسمة في حياته وهي التي عاصرها معه [2].

لا يذكر ابن شداد المصادر التي اعتمد عليها في استقصاء مادته، بيد أن مؤلفه اشتمل على نوعين من المصادر اختص الأول بما قبل سنة (1188/584) وهي السنة التي التحق فيها باء الدين بخدمة صلاح الدين، وفي هذه الفترة كما سبق وأشرنا لا يذكر مصادر معلوماته، فيقول:"وجميع ما حكيته قبل إنما هو روايتي عمّن أثق به من مشاهده" [3]، أما الفترة الثانية أي ما بعد التحاقه بالخدمة الصلاحية فيقول:"ومن هذا التاريخ، لم أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبرا يقارب العيان" [4].

ومن أمثلة المشاهدات الحيّة التي وقف عليها ابن شداد قوله: "فكان يصوم وأنا أثبت ذلك" [5]، ويقول في نص آخر يثبت مشاهدته ومشاركته:" يحب - يعني صلاح الدين- أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرني في خلوته" [6]

---

[1]: ولكنها حررت ثانية بعد قليل عام (1239/637) بيد الملك الناصر الأيوبي أمير الكرك، ثمّ سلمها للصليبيين مرة أخرى الملك الصالح أيوب والملك الصالح إسماعيل عام (1243/641) ليحررها ثالثة الملك الصالح نجم الدين أيوب نفسه، الذي كان قد سلمها بمساعدة الخوارزمية عام (1244/642)، وهذا التسليم والتحرير المتكرر والسهل للقدس يدل على أن كلا الطرفين الأيوبي والفرنجي قد ضعف، وأن عهد الملوك الكبار قد ولّى **أنظر**: فوزي الهيب، **دراسة لمنهج ابن شداد في: كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، المرجع السابق، 2008، ص 02.

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، ص 274.

[3]**:** ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 87.

[4]**:** نفسه، ص 87.

[5]**:** ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 8.

[6]**:** نفسه، ص 10.

ويضيف في نص آخر:" ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف"[1]، وهـذا النص في معرض الحديث عن كرم السلطان، وفي نفس الموضوع يورد ابن شداد حديث آخـر يؤكد مشاهدته ومشاركته في الأحداث التي جرت مع صلاح الدين:" وأكثر الرسائل كانـت تكون في ذلك على لساني ويدي..."[2]، هذا النص يتعلق أيضا بكرم السلطان.

والنصوص التي تؤكد مشاهدة ومشاركة ابن شداد لصلاح الدين في جلّ الأحداث التي جرت معه منذ دخول هذا الأخير في خدمته كثيرة.

اعتمد ابن شداد إلى جانب الإطلاع الشخصي بدرجة كبيرة على السماع من الثقـات والمطلعين على الأمور يقول مثلا:" وقد سمعت من صاحب ديوانه – يقصد صـلاح الـدين- يقول لي..."[3]، " ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر، أعزّ الله أنصاره..."[4].

ويقول ابن شداد أيضا:" ولقد سمعت منه – صلاح الدين- يقول..."[5]، " وهكذا بلغني على ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الوقعة"[6].

واستعمل ابن شداد إلى جانب السماع والمشاهدة وثائق في مؤلفه من أمثلة ذلك نـص كتاب الكايفوكوس الأرمني إلى صلاح الدين وأوله:" كتاب الداعي المخلص الكافيكوس مـا أطالع به علم مولانا مالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان..."[7]، وهـو يكثـر مـن الاعتضاد بنصوص الوثائق من مراسلات بين المسلمين والفرنجة في المرحلة التي عالجها النـوادر مبثوثة في الكتاب، وقد يستعمل مضمونا دون إيراد نصها كقوله:" ولقد وقفت على كتـب بعض المخبرين بالحرب فقد حرز..."[8]،" ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه أنه ..."

---

(1): نفســه، ص 17.

(2): نفســه، ص 18.

(3): نفســه، ص 18.

(4): نفســه، ص 23.

(5): نفســه، ص 33 .

(6): نفســه، ص 28.

(7): ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 108.

(8): نفســه، ص 122.

[1]. لكن استعمال الوثائق لدى ابن شداد أقل كثيرا مما لدى العماد، ربما لأن الأخير زاول أعمال الديوان لذا مكنته من مطالعة الوثائق [2].

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية من أهم الكتب التي أرخت لصلاح الدين الأيوبي ولعصره، ولحروبه مع الفرنجة، وانتصاراته عليهم، ولتحريره للقدس وذلك لأن صاحبه كان من أقرب النّاس لصلاح الدين في السنوات الأخيرة من حياة السلطان، وهي سنوات حاسمة في الصراع الإسلامي الفرنجي.

لمّا كان المؤرخ يحتل منصبا رسميا فكثيرا ما كان كتابه يتخذ صفة المذكرات[3]، وقد عبّر ابن شداد عن هذا صراحة في بحثه عن صلاح الدين، وهكذا انقلبت الترجمة إلى مذكرات عن السنوات الخمس الأخيرة التي تحمل ثلاثة أرباع كتاب ابن شداد [4].

انتهج ابن شداد كغيره من المؤرخين الذين عنوا بحياة صلاح الدين المنهج الحولي أي ذكر الحادثة وما يتصل بها عن طريق السنين، وقسم كتابه- كما سبق وذكرنا- إلى قسمين: القسم الأول انفرد فيه عن باقي مؤرخي الفترة حتى ممن كان ملازما للسلطان كالعماد الكاتب، والثاني كان شاهدا على أحداثه، غير أن القاضي ابن شداد لم يقسم كتابه بذكر السنة عند بداية الحديث كما فعل غيره من معاصريه بل ذكر لكل فقرة الحادثة التي وقعت فيها وعند دخول السنة يذكرها ضمنّيا، وعمد إلى الاختصار دون إخلال أو إغفال لمجمل أحداث السنة، ويصبح أكثر دقة في الوصف في القسم الثاني لأنه شاهد وعن قرب الأحداث التي جرت مع صلاح الدين.

من خلال تصفح الكتاب ندرك أن للمؤلف عبارات وتراكيب لا غنى له عنها، كعبارات الترحم على السلطان "رحمه الله" " قدّس الله روحه" [5]، وعبارات اللعن عند ذكره للفرنج

---

[1]: نفسه، ص 122.

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، ص 276.

[3]: ومثلما أدرك المؤرخون العرب، كابن خلكان وأبي شامة وابن واصل وغيرهم مكانة الكتاب، فأكثروا من الاقتباس منه، أدرك الغربيون ذلك أيضا، فعنوا به، وطبعوه، وترجموه إلى لغاتهم منذ القرن الثامن عشر، **انظر**: أحمد فوزي، **دراسة لمنهج ابن شداد** في **كتاب النوادر السلطانية،** المرجع السابق**،** ص 1.

[4]: فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، ص 237.

[5]: ابن شداد، **النوادر السلطانية،** المصدر السابق، ص 6-7 -8 -9 17...إلخ.

الأحياء منهم والأموات "خذلهم الله" و"لعنه الله"[1] ولكن هذا لم يمنعه من إنصافهم ووصف شجاعتهم، وكلما ذكر مدينة أو حصنا أو قلعة قال "محروسة"[2]، وإن كانت خاضعة للفرنج نجده يقول "يسر الله فتحها "[3]، أما إن كانت تحت سيطرة السلطان وبمنأى عن كيد الأعداء يصفها بأنها محروسة، خاصة إذا كانت مدينة على قدر عال من الأهمية كدمشق أوحلب أو القاهرة.

3- ابن شداد: شاهد على عصر صلاح الدين

يتميز ابن شداد في عرضه مجملا بالدقة فقد ذكر اليوم والشهر والعام، أو الشهر والسنة التي وقعت فيه الحادثة، وربما ذكر الوقت صباحا كان أو مساء، أو بعد صلاة الفجر، وهذا يعني أنه كان يسجل الأحداث ويؤرخها يوما بعد يوم، أو ساعة بعد ساعة، كما تبدو دقته في نقله لعبارات كاملة لصلاح الدين أو لغيره – تصويره لبعض العادات والتقاليد لدى الطرفين مثل وصفه لمجلس العدل الذي كان يجلسه صلاح الدين يومين أسبوعيا ويحضره القضاة و الأمراء [4]، ومثل وصفه لبعض تقاليد الفرنج مثل قوله:" ومن عاداتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم، فأيّ شيء أشاروا به لا يخالفونه" [5]، وقوله في وصف علم الفرنجة:" وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهو عال كالمنارة خرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل صلبان" [6].

لم يكتف ابن شداد في الفترة بين (584/1188 -589/1193) بعرض السجل العسكري لما شاهده من أحداث، بل إنّه بفضل مكانته باعتباره صديقا للناصر صلاح الدين

---

(1): نفسه، ص 10- 38.

(2): ابن شداد، **النوادر السلطانية،** المصدر السابق، ص 83- 103.

(3): نفسه، ص 132- 171.

(4):ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 13.

(5): نفسه، ص 12.

(6): نفسه، ص 149.

الأيوبي وملازما له في كل تحركاته حتى يوم وفاته، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في إدراك الحوافز، التي أثارت صلاح الدين في كثير من القرارات الخطيرة [1].

لمّا كان ابن شداد ممن يهتمون بالصيغة والشكل، فقد دوّن سيرة صلاح الدين، بأسلوب بسيط خال من الأساليب الأدبية، بل يقترب أحيانا من العامية العادية، فنجده مثلا يقول:" ولقد قلب في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس." [2]، فقد خلى من السجع والمحسنات البديعية إلاّ في قليل من المواضع، خاصة في وصف معارك الظفر، حيث يعمد إلى شيء من السجع، ولولا وجود بعض الألفاظ الأعجمية التي كانت سائدة أنذاك مثل المنجنيق، والبطسة [3]،...وغيرها من الألفاظ لكان الكتاب يبدو من حيث الأسلوب وكأنه لكاتب معاصر تقريبا، ولقد أثر ابن شداد بأسلوبه السهل هذا على تلاميذه وغيره مثل ابن خلكان وابن واصل وأبي شامة [4]، وبشكل عام يمكن اعتبار أسلوبه كأسلوب كاتب ديواني عادي مرافق للجيش.

4- رفعة مكانة صلاح الدين

بعد هذه القراءة السريعة والمختصرة في مؤلف ابن شداد، نلحظ محاولته الإلمام بالموضوع، باستغلال قربه من ساحة الأحداث، حيث نجده يحاول الإحاطة بكل الجوانب والجزئيات المتعلقة بمسيرة صلاح الدين، في أدّق تفاصيلها من خلال محورين أساسيين –كما سبق وأن أشرنا- الأول بذكر ما ّاتصف به الّناصر والمؤهلات التي مكّنته من إكمال ما أسس له الزّنكيون، وهو ما تضمّنه المحور الثاني حيث تّتبع ابن شداد أعمال السلطان، حتى تحقّق على يديه ما كان إلى وقت قريب يعد من الأحلام التي تنوي الأّمة تحقيقها، وقد علق معاصرو

---

(1): يسري عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن** 12 هـ، المرجع السابق، ص 104.

(2): ابن شداد، **النوادر السلطانية**، المصدر السابق، ص 8.

(3): معناها السفينة الكبيرة تستخدم أصلا للحرب، وقد تستخدم لنقل التجار، انظر: ابن شداد، **النوادر السلطانية**، ص 49.

(4): أحمد فوزي، **دراسة لمنهج ابن شداد**، المرجع السابق، ص 4- 5.

صلاح الدين من المؤرخين على الدوافع التي كانت تحركه بصورة مختلفة. بالنسبة لمقربيه كبهاء الدين وعماد الدين فإن صورة المجاهد في سبيل الله تظهر جليّة [1].

وكما هو واضح فقد ركّز القاضي بهاء الدين على العمل العسكري لصلاح الدين، في الجبهة الإفرنجية بشكل خاص فكانت الفترة بين (583/1187-588/1192) الأكثر تغطية في الكتاب، وفي هذه السنوات انحسر التّواجد الفرنجي عن أهم المعاقل الإسلامية وعلى رأسها القدس.

وللتوضيح أكثر نقول أن السنوات من (584/1188 حتى 589/1193) احتلّت أكثر من نصف الكتاب، وهو ما يعني عناية ابن شداد بالأحداث التي عايشها وكان عليها من الشّاهدين، ففي هذه المدة لم يفارق القاضي مولاه، الذي كان يعمل على ترسيخ ما حقّقه من انتصارات، بتوجّهه إلى سائر المعاقل والأوكار الفرنجية واستكمال مسيرة تطهير الساحة الشّامية من الفرنج، حتى يضمن عدم العودة إلى نقطة البداية، ولا يتيح للعدو فرصة لرصّ صفوفهم وتوحيد قواهم، وذلك ببقائه على نفس الإصرار والعزيمة في تواتر الضربات والهزائم على الفرنج رغم وصول المدد إليهم من وراء البحر.

ذلك المدد الذي كاد يسبب للمسلمين الانكسار والخذلان لولا إرادة السلطان القوية وبسالة أتباعه الذين آثروا مواجهة الخطر في مهده، وعدم انتظار انتشاره وخروجه عن نطاق السيطرة ولا أدل على ذلك ممّا وقع على أسوار عكّا.

وأمام هذه الصلابة والإرادة الجامحة لم يجد الفرنج سوى اللجوء إلى الحل السياسي – الدبلوماسي- والخروج من المعركة بأقل الخسائر، فعقد صلح الرملة بين الطرفين بعد مداولات عدّة، استقرّت في الأخير على هذا الصلح بين الملك الانجليزي، الذي وجد نفسه في مواجهة أناس لم يكن له سابق عهد بهم، والسلطان صلاح الدين الذي ورغم إدراكه لصعوبة الموقف خاصة بعد الكسرة التي تلاقّها على أسوار عكّا، إلا أنه لم يكن من المتساهلين أو المراوغين بل كان واضحا غاية الوضوح في ردوده على الطلبات المتكرّرة من ملك الفرنج بخصوص الصلح، وحتى عندما استقر الأمر لم يكن ذلك على حساب ممتلكات المسلمين والمقدّسة منها على وجه الخصوص في رأي القاضي ابن شداد.

---

[1] Françoise Micheau, *op. cit.*, p. 56.

واستجابته لطلب الفرنج في امتلاكهم للساحل الشامي لا يمكن اعتباره من باب التساهل، بل يعدّ استجابة لما أملته الظروف الآنية آنذاك، وتعاملا ايجابيّا مع المستجدّات الطارئة، وبعد هذا الصلح لّبى السلطان نداء ربه بعد أن أدى واجبه على أكمل وأنبل وجه .

يبدو من الصواب القول أن عظمة الحاكم والأثر الذي يتركه في تاريخ عصره يتناسب طرديا مع كمية مترجميه المعاصرين ونوعيتهم [1]، ولقد كان صلاح الدين من بين السلاطين الذين تركوا آثارا واضحة في الساحة السياسية والعسكرية والتمعية بشكل عام عند عامة الناس والنخبة منهم، لذا نجد أن شعور بهاء الدين نحو صلاح الدين هو شعور الروح المنتمية إلى أسرة واحدة [2].

يكتب بهاء الدين في حسّ سليم وصدق هما على غاية الرزانة، و لا يستطاع العثور في كتابه على شيء حتى ذلك" التحيّز الشخصي والإغراق في الغلو الشرقي" اللذين وجد لين بول أنه من الضروري الاعتذار عنهما، ولكّنه لم يتصل مع صلاح الدين مباشرة إلا في سنة (1184/580) كواحد من سفراء الموصل، ولم يلتحق به أخيرا كقاض للجيش حتى كانت سنة (1188/584)، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، أي خلال الحملة الصليبية الثالثة بأكملها فهو لا يقدم سجلا أمينا للأحداث كما رآها فحسب، بل يعطينا كذلك، عبر مركزه كمؤتمن على أسرار صلاح الدين وصديق حميم له، تبصّرا ثاقبا (كما ليس بوسع أي تاريخ عادي أن يفعل) في الدوافع التي حركت صلاح الدين على اتخاذ العديد من القرارات الحاسمة. أما بالنسبة للتسعة عشر عاما الممتدة بين عامي (565- 1169/584- 1188) فإن بهاء الدين لا يستطيع الرواية، من جهة أخرى، إلا بطريقة غير مباشرة، وغالبا ما يكون على خطأ بالنسبة للتفصيلات الوقائعية والتسلسل الزمني [3].

حرص ابن شداد على بيان تصرفات وأخلاق ومعاملات صلاح الدين، وعدم منافاتها للقواعد الدينية، ومراعاتها للهدى النبوي، فكأّنه أحّبه من خلال تلك الشمائل واجتمع به بدافع من تلك الفضائل، ومن مظاهر ذلك وتصديقا له يذكر من ضروب كرمه ما يحقق ذلك،

---

(1): فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، ص 236- 237.

(2): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 94.

(3): جب هاملتون، **صلاح الدين الأيوبي،** المرجع السابق، ص 70 .

ويتحدث عن ضروب جهاده وكفاحه في سبيل الله ونصرة الإسلام، فكان صلاح الدين في نظر ابن شداد نموذجا للمسلم الشرعي الملتزم أو الإنسان الذي تحققت فيه إرادة الله من ذرء الإنسان على وجه الأرض، والحق أنه قريب من أن يكون كذلك [1].

يبرز ابن شداد كل التصرفات والوقائع في عهد صلاح الدين، بأنه بذل فيها الوسع ولم يكن وراء ذلك طاقة أو مزيد، حتى إن كان حال هزيمة أو اضطرار لصلح فإن مرد ذلك عنده لظروف قاهرة قادرة، يقول" ولم يزل أي- صلاح الدين- مصابرا للصليبيين وهـم في العـدّة الوافرة، على أن ظهر له ضعف ولكنهم يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح، وظهر ذلك لمّا أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنوناتا ويبلغ من حماس ابن شداد لإبراء ساحة صلاح الدين من أي شبهة في جهاد الصليبيين، أنه بعد حديثه عن تمام صلح الرملة سنة (1162/558) بين المسلمين والفرنجة، يعلق عليه قائلا:" والله العظيم إن الصلح لم يكـن من إيثاره فإنه قال لي في بعض محاوراته للصلح أخاف أن أصالح وما أدري أي شـيء يكـون منّي، ويقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ...لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة... وكان الصلح توفيقا وسعادة له" [2].

لقد قام ابن شداد برسم صورة مثالية لصلاح الدين، ليس في عموم نظرته، وإنما تحدث أحيانا عما كان يعتور شخصه من قصور بشري، وتتجاوز في الكتاب شخصية المؤلـف مـع شخصية صلاح الدين بحكم صحبته له، ويتميز حديث ابن شداد عن نفسه بالصراحة وعـدم التكلف وادعاء ما ليس فيه.

عرض ابن شداد مادة كتابه الخبرية بأسلوب سهل لا التواء فيه وصوّر فيـه شخصـية صلاح الدين الإنسان تصويرا يعز أن يبلغه أي من وصف تاريخي عام، غير أنه لم يكن مأخوذا بعبادة الأبطال وإنما كان إعجابه إعجاب صديق نزيه قويم الطريقة لا يكتم صديقه شيئا دونه، ولا ريب في أن باء الدين لم يتعمد إخفاء أي حقيقة أو تحريفها، وهو يقصّ سيرة صلاح الدين خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته، بل شدّه الحنين إلى الأيام التي قضاها رفقة السلطان مما جعله يتغاضى عن ذكر بعض الأحداث، لكنّ وجود مثل هذا المرجع عن تاريخ أمـير مـن

---

[1]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 277.

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام**، ص 278.

أمراء العصور الوسطى أمر نادر في الواقع، إلا أن الصورة التي يقدمها المؤلف لنا هي صورة صلاح الدين في أوج انتصاراته وفي صراعه المستميت ضد الحملة الصليبية الثالثة، ولهذا فإن السيرة تمدنا بقسط يسير من الشواهد المباشرة على الكفاح الشاق الطويل الذي بذله صلاح الدين وهو يشيد صرح سلطانه [1].

يتفق ابن شداد مع ابن الأثير في موصليته ونشأته وتدينه وخدمته للأتابكة، ويختلف عنه في التصنيف موضوعا ونحجا، فلم يؤلف تاريخا عاما كابن الأثير، ولم يكن ناقدا أو حزبيا مثله، بل كان واقعيا يدوّن ما يقع تحت سمعه وبصره، تدوينا يعبّر تعبيرا صادقا عن مشاعر صلاح الدين وإحساساته، باسطا خططه السياسية والعسكرية.

صوّر ابن شداد في هذا الكتاب الكفاح الطويل المرير الذي مارسه صلاح الدين لبناء قوته الداخلية، ويتتبّع فن قيادته في مراحل جهادها، مع رجال الحملة المعروفة بالثالثة بنوع خاص، ولم يخدع فيه بعبادة البطولة، كما فعل ابن الأثير في مديحه للمواصلة، ولذا يندر العثور على مصدر تاريخي لأي أمير من أمراء العصر الوسيط، يشبه في قيمته التاريخية السيرة الصلاحية لابن شداد.

لقد نظر ابن شداد إلى صلاح الدين على أنه رجل مكتمل الصفات تتوفّر لديه جميع المؤهلات، فكان عنده بطلا حكيما، بطل بما حقّقه من انجازات فعلى يديه قضى الله على دابر الفرنج، وحكيم بالسبل التي اتخذها لتحقيق ذلك كلّه. لكّنه بالغ في تصوير بطله الحكيم، وإن أراد إنصافه كما نعتقد، ولا شكّ في أن صحبته لصلاح الدين أثّرت عليه تأثيرا بالغا، بل إن ابن شداد يقول مؤكدا :"وكان الله قد أوقع في قلبي محّبته منذ رأيته وحب الجهاد " ويبدو أن هذا الحب قد بلغ به درجة عالية من الافتتان، وهو ما حال بينه وبين إضفاء الموضوعية على ما أورده حول النّاصر الأيوبي، ونقصد بذلك المثالية التي طغت على نقله للأخبار جلّها حتى وإن كانت تتعلّق بمن نحب. كان ابن شداد محل ثقة عند السلطان وقد قدم صلاح الدين على أنّه صديق حميم، وكان يعامله أحسن معاملة فبهاء الدين لم يكن منتقدا لكّنه لم يكن كاذبا، حيث كانا أمينا في روايته لآخر خمس سنوات من حياة صلاح الدين[2].

---

[1]: هاملتون جب، **دراسات** في **حضارة الإسلام**، (ت) إحسان عباس وآخرون، بيروت دار العلم للملايين، 1979، ص 123.

[2] Sir hamilton gibb,The life of saladin, *op, cit*, p.05.

فممّا لا يختلف عليه اثنان أن صلاح الدين قد سطّر اسمه على صفحات التاريخ الإسلامي المشرقة منها والمظلمة، بيد أن هذا لا يعني بأيّ حال من الأحوال الغلو إلى درجة إغفال بعض المواقف التي يؤاخذ عليها.

فمن غير المعقول أن لا يشير القاضي إلى زلة من زلات بطله، بل حاول إخفاءها وما لم يتمكن من إخفائه نصّب نفسه فيه مدافعا ذائدا، كتحميل المسؤولية لغيره فيما وقع بعكّا، وخروج حفيده عن طوعه أثر في السلطان وهو من تسّبب في ذلك.

وأكثر من ذلك إذ نجده يضفي على الأحداث معان أخرى فمبادرة صلاح الدين إلى قتل شاور ثمّ قطعه للخطبة الفاطمية يعّبر عن شجاعته لا عن سعيه إلى الملك الذي أثبتته الأيام اللاحقة وتجسّد أكثر في استخلاف نسله وأقربائه من بعده، حتى وإن لم يكن سعيه لذات الملك.

ودوافع ابن شداد في ذلك كثيرة، ولا ندري كيف كان سيبدو كتابه لو تمكّن من كتابته في حياة النّاصر صلاح الدين، فبالرغم من أنّه فعل ذلك في وقت متأخر من حياته وبعد انقضاء أمد عن رحيل السلطان، إلا أنه لم يستطع التّحلي بالمصداقية كعادة مؤرخي البلاط، فكان كتابه كتاب مدح انتصر فيه لمن أنعم عليه وقرّبه، غير أن هذا لا ينفي أهمية النوادر كمصدر أساسي لهذه الفترة من تاريخنا الإسلامي خاصة، والإنساني على العموم لأهمية الفترة المتحدّث عنها.

حقا لقد مدح ابن شداد صلاح الدين بصراحة، وتماشّى مع النظرية الدستورية الحديثة القائلة بأن الملك لا يخطئ، وأخلص بحق لواجب وظيفته، وكتب بوضوح ما رآه تماما، وفكر تفكيرا عميقا فيه قبل أن يكتبه، حتى حملت كتابته طابع الصدق في عمومها، والبعد عن التعصب، هذا هو ابن شداد الفتى في صياغة معاهدات الصلح، والدبلوماسي في سفاراته، والمؤرخ المدقق في سيرته، والمربّي الفاضل في أستاذيته، والعادل في قضائه، والمراسل الأمين في مشاهداته وأخباره[1].

إنه ليتعين علينا القول أن سيرة ابن شداد تعدّ من أهم وأوثق ما وصلنا عن شخص صلاح الدين، في مختلف جوانب حياته نظرا لعدم إغراقها في المدح والتحيز، مع عدم إغفال بعض المثالية والحنين للسلطان وأيامه حين قراءة السيرة وتحليل ما جاء ضمن أحداثها، وخلفيات

---

(1): أحمد فوزي، **دراسة لمنهج ابن شداد**، المرجع السابق، ص 6.

تدوينها زمانا ومكانا، وهذا يمثل جانبا من جوانب الكتابة التاريخية الرسمية يدين صاحبها للبلاط بالولاء والطاعة، إضافة إلى المنصب والعلاقة التي تربط شخصه بالسلطان صلاح الدين.

علق معاصرو صلاح الدين من المؤرخين على الدوافع التي كانت تحركه بصورة مختلفة. بالنسبة لمقربيه كبهاء الدين وعماد الدين فإن صورة المجاهد في سبيل الله تظهر جليّة [1].

[1] Françoise Micheau, *op. cit.*, p. 56

الفصل الثالث:

كتابات ما بعد المؤرخين المعاصرين، والحنين لعصر صلاح الدين

ويشتمل على أربعة عناصر:

1- ابن العديم: المؤرخ المحلي يكتب عن صلاح الدين

2- ابن خلكان: المعجب والمادح للسلطان صلاح الدين

3- أبو شامة: العالم الموسوعي والحنين لعصر صلاح الدين

4- ابن واصل: مؤرخ الدولة الأيوبية

I- ابن العديم المؤرخ المحلي يكتب عن صلاح الدين

ما كتبه ابن العديم عن صلاح الدين في مؤلفه "زبدة الحلب " مجرد إشارات عن الحملات التي شارك فيها رفقة عمه شيركوه ضد مصر، وخلافه مع نور الدين محمود، ولم يزد على ذلك سوى مقتطفات عن جهوده العسكرية، في حين تعرض للأحداث المتعلقة بالسلطان في مؤلفه "بغية الطلب في تاريخ حلب" في إطار التاريخ المحلي في لحلب.

1- ابن العديم : مؤرخ حلب وسفيرها

أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله من بني أبي جرادة العقيلي، ولد سنة (1192/588)، وتوفي سنة (1262/660)، وهو من أسرة واسعة الثراء، صاحبة منزلة عالية في العلم والفقه والقضاء والأدب في حلب، نشأ مؤرخا وتعلم في حلب على يد والده وعمه وعديد من العلماء وتعلم الخط وأحسنه. ورحل برفقة أبيه وهو فتى يافع إلى دمشق والقدس والعراق والحجاز، وجالس منذ شبابه الأمراء والعلماء وعمل بالتدريس شطرا كبيرا من حياته، ورحل لمصر وبغداد مرات كان في بعضها سفيرا لملوك حلب، ووصل إلى مصر قبل وصول المدّ المغولي إلى مدينة حلب سنة (1258/657)، فلما هزم المغول في عين جالوت سنة (1259/658)، عاد إلى بلده ولكنه فجع بما حلّ به من دمار فبكاه بقصيدة دامعة ولم يقو على المقام به فرحل عنه إلى مصر ليموت بها بعد سنتين، ويدفن بسفح المقطم[1].

ارتقى ابن العديم إلى مرتبة عالية لدى الملوك والأمراء[2]، ويذكر بروكلمان أنّه وزّر لبعضهم[3]، وبلغ مكانة عظيمة في العلم والفقه- وفق المذهب الحنفي- والأدب والتأليف، ومّا له إلى جانب شعره كتب منها: الدراري في ذكر الذراري، والأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة، وضوء المصباح في البحث على آل السماح، وكتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروسه، وكتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري،

---

(1): جمال فوزي محمد عمار، **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 226.

(2): انظر: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، نسخة الكترونية، ص 16.

(3): بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، المرجع السابق، 75/6.

وتذكرة ابن العديم، وكتابه الشهير" بغية الطلب في تاريخ حلب"[1] وهو على التراجم وأخيرا "زبدة الحلب من تاريخ حلب"[2].

2- منـهـج الكتـاب ومصـادره

لقد أعطى ابن العديم نقطة انطلاقة حسنة لمؤرخي حلب في المراحل اللاحقة، وكان أثره واضحا حتى القرن التاسع الهجري/الخـامس عشـر المـيلادي. وقـد ألـف سـبط ابـن العجمي(484/1480) تكملة لكتاب ابن خطيب الناصرية سماه "كنـوز الـذهب في تـاريخ حلب"، فيه وصف ممتع جدا لحلب وتأريخها. ويمكن اعتبار كلامه عن بعض مساجد حلـب وصفا تاريخيا للفن هو أكمل ما يؤمل من مؤرخ يسير على نمط العصر الوسيط الإسـلامي. ثمّ ألف ابن الشحنة عن تاريخ حلب كتاب" الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلـب"، واعتمـد في تأليفه على مواد من ابن شداد ومن مؤرخين حلبيين آخرين، وكذلك من مقدمة ابن العديم[3].

دوّن ابن العديم التاريخ السياسي لحلب في كتاب زبدة الحلب في تـاريخ حلـب، ولا شك أن كتاب ابن العديم الرئيس هو تاريخ ديني لحلب[4]. يبدأ كتاب زبدة الحلـب بفاتحـة قصيرة يتحدث فيها المؤلف عن دافع التأليف، وعلى غير عادة الكتاب والعلماء في تلك العصور والذين كانوا غالبا يقومون بإهداء مؤلفاتم للأمراء والملوك، على غير هذه العادة يبيّن ابن العديم دافعه لتأليف الكتاب وهو طلب ربما جاء من قبل الملك " العزيز بن الظاهر بن الناصر صـلاح الدين الأيوبي" وأتابكه، وذلك في إهداء عادي غير متكلف إلى حدّ ما مقارنة بغيره. ثمّ يبـيّن المؤلف بعد ذلك سرّ تسمية الكتاب فيقول:" ووسمته "بزبدة الحلب من تاريخ حلـب"، لأنـه

---

[1]: بغية الطلب كتاب ضخم، وضعه ابن العديم في (40) مجلدة، إلا أن الذي وصلنا منه عشر مجلدات، بخطه. أرخ فيـه لحلب منذ الفتح الإسلامي حتى عصره، وترجم فيه لكل من سكنها أو مر با من الأعلام والأعيان. صدر في اثني عشـر مجلداً، والثالث عشر مجلد كبير للفهارس ، وصدر عن دار الفكر في بيروت سنة 1988م بتحقيق سهيل زكار، ولم أتمكن للأسف من الحصول عل كتاب "بغية الطلب فقد سعيت جهدي لذلك".

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 226. اطلعت على الجزء الأول والثـاني مـن كتاب زبدة الحلب ولم نتوصل للجزء الثالث الذي يتحدث عن الفترة التي عاشها صلاح الدين الأيوبي، ابتداء مـن سـنة 569 إلى سنة 589.

[3]: فرانز روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، ص 234.

[4]: نفسـه، ص 214.

منتزع من تاريخي الكبير للشهباء المرتب على الحروف والأسماء"[1] وهو يقصد " بغية الطلب"، ثمّ يبدأ بقسم يذكر فيه أخبار حلب في قديم الزمان، فيتحدث عن تسميتها واشتقاقها وأوّل من بناها وأحوالها ومن ملكها قديما، ثمّ ينتقل إلى تاريخها في أول الإسلام حتى سنة (1233/631) في شكل موجز غالبا، ويبدو أنّه كان ينوي إكمال الكتاب إلى ما بعد ذلك، حيث توفي سـنة (1261/660)، فهو يفصح عن هذه النية بقوله:" عن ما نذكره في سـنة اثنـتين وأربعـين وستمائة"، ولكن يبدو أنّ مشاغله ومهامه السياسية قد أخذته بعيدا عن إكماله[2].

تضخمت أخبار الفترة التي عاصرها المؤلف في الكتاب إلى حدّ ما عمّا سبقها حيـث تبلغ حوالي 54 عاما شغلت حوالي سدس حجم الكتاب بينما هي زمنيا تمثل جزءا مـن 12 جزءا- غير قسم ما قبل الإسلام حتى الهجرة من الفترة الزمنية التي عالجها الكتـاب، ويسـير الكتاب على الطريقة الموضوعية حسب الحكام في سياق مرتب زمنيا.

استخلص كتاب "الزبدة" من البغية، وقد ذكر المؤلف مصادره بصورة وافية في البغية، ولهذا فقد أغفل كثيرا النص على مصادره في الزبدة لكنّه أشار إلى بعض مصـادره السـماعية والكتابية بشكل صريح أحيانا ومبهم أحيانا أخرى ونوّع في ذلك فيقـول: " قيـل إن بيـت لاها.."[3] "وقيل إنّ ابراهيم عليه السلام.."[4] "وذكر بعضهم أنا..."[5] ويفصح عنها مصادره أحيانا فيقول:" قال القاضي أبو غنائم قاضي حلب..."[6] " وأخبرني والدي رحمه الله –أن... "[7].

---

[1]:ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، دار الكتاب العربي، 1997، 31/1.

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 227.

[3]: ابن العديم، المصدر السابق، 33/1.

[4]: نفســه، ص 34.

[5]: نفســه، ص 35.

[6]: نفســه، 228/2.

[7]: نفســه، 283/2.

وذكر بعض المصادر الكتابية مبهمة أحيانا، كقوله:" وشاهدت على ظهر كتاب عتيق من كتب الحلبيين بخط بعضهم..." أو " وقال بعض المؤرخين من المسيحية..."[1]، وقد يحدد مصدره إلى حدّ كبير فيقول:" وذكر يحي بن جرير التكريتي في كتاب له ضمّنه أوقات بناء المدن..."[2].
أما بالنسبة للوثائق فلا يكثر المؤلف من إيرادها على الرغم من صلاته ومكانته مما يتيح له يسر الإطلاع عليها، ولعله أورد كثيرا منها في البغية، ومن أمثلة استخدامه لهـا قولـه:" وكتـب الإخشيد في هذه السفرة إلى عبده كافور الخادم إلى مصر..."[3] ويقول أيضا في حديثه عـن توقيع الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى أهل حلب :" وكتب لأهل حلب توقيعا بإطلاق المكـوس والمظالم..."[4].

عاصر المؤلف كثيرا من الأحداث أواخر كتابه، فضلا عن أنه شارك في حياته في كـثير من الأحداث وقام بمهام كبيرة لدى الملوك والسلاطين والأمراء ممّا يجعله هو نفسـه مصـدرا أساسيا حيّاً فريدا خاصة في الأقسام الأخيرة من كتابه، ولا شـك أنّ المعاصـرة والإطـلاع الشخصي يضفيان قوّة على الخبر التاريخي المروي[5].

بحكم اهتمامات ابن العديم التفصيلية بأخبار حلب ومجاوراتا فإّنه كـثيرا مـا ينفـرد بروايات لم ترد في غيره من المصادر المعاصرة له، ومن أمثلة ذلك:" خبر سنان والإسماعيليـة" " وإشارة وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين عليه بالقبض على عمّه الملك العادل بن أيوب سنة (1193/590) في حلب"، وأخبار المهام السياسية التي قام با المؤلف نفسه وتفـرد بروايـة أخبارها وتفاصيلها، فقد روى أخبار حوالي سبع مهمات وسفريات قام با للصلح والتوفيق بين الملوك والأمراء، ويفصّل ابن العديم كثيرا فيما أوجزه مؤرخ كابن الأثير من خبر الخلاف بـين الإخوة أبناء صلاح الدين بعد وفاته[6].

---

[1]: ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، المصدر السابق، 39/1.

[2]: جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 229.

[3]: ابن العديم، **زبدة الحلب**، المصدر السابق، 110/1.

[4]: نفســه، 189/1.

[5]: جمال فوزي، المرجع السابق، ص 230.

[6]: نفســه، ص 232.

لا يخلو الكتاب من الالتفات إلى الجوانب الحضارية والبيئية في حلب وسوريا الشمالية في غمرة اهتماماته السياسية السريعة المتوالية، يقول مثلا:" ووقع الوباء العظيم بحلب حتى أنه مات في رجب من هذه السنة (1066/459) زهاء عن أربعة آلاف فضلا عن سائر الشهور"[1] " وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط، ثم تدارك فأخضب الزرع واستغل الناس..."[2] " وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر حدثت زلزلة شديدة ثمّ أتبعتها أخرى..."[3].

ويقول في سنة مقتل عماد الدين زنكي سنة (1146/541):" وكانت الأسعار في السنة التي توفي فيها رخية جدّا..." [4].

كان ابن العديم يولي اهتماما واسعا بالحياة الثقافية والمدارس وجهود نور الدين بن زنكي في بنائها وتجديدها واستقدام شيوخها، ويتحدث كذلك عن المدائح والإنشاد ومجالسه، وعن مشاركاته الاجتماعية ووكالته في عقود زواج عن أمراء حلب وعن أرقام الصداق، وعن الاحتفال بميلاد أحد الأمراء وحفلات الختان، وتلك الاجتماعيات الحيّة بحكم مشاركته ومعاصرته[5].

حديث المؤلف عن الوفيات قليل موجز ربما لطابع الإيجاز في كتابه ككل، ويشير في بعض المواضع القليلة إلى إحدى الوفيات، ويتطرق إلى الحديث عن عائلته ليبيّن مكانتها الواضحة في مدينة حلب وعراقتها، فهو يتحدث ولو بصورة عارضة ضمن رواياتم عن مناصبهم وبخاصة في القضاء، وصلاتم بالأمراء وأرباب الأمور وقيامهم بالتراسل بين الملوك[6].

تبدو الروح العدائية من المؤلف تجاه الصليبيين وقد جاء ذلك جليا في عبارات مثل: لعنهم الله، لعنة الله، لعين.

تتميز أحداث كتاب "زبدة الحلب" بالدقة الزمنية، التي بلغت من التحديد أن أرخ المؤلف لأحداث الساعة من اليوم، وكان ابن العديم مؤرخا دقيقا حين يوضح درجة يقينية ما

---

(1): ابن العديم، **زبدة الحلب**، المصدر السابق، 10/2.

(2): نفسه، 217/2-218.

(3): نفسه، 270/2-280.

(4): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 232.

(5): نفسه، ص 234.

(6): نفسه، ص 234.

يرويه في كثير من الأحيان، فإن كان واثقا من صحة روايته جزم بما يقول، وإن لم يكن متأكدا خفف من درجة يقينه وجزمه في الرواية.

كتاب زبدة الحلب يختلف في منهجه عن كتاب البغية، وهو يشبه من بعض الوجـوه تاريخ دمشق لابن القلانسي وكتب الحوليات، ولا شك أنه أهم مصدر في بابه ظهر فيه ابـن العديم بمظهر المؤرخ الأصيل(1).

كتب ابن العديم مؤلفه بأسلوب سهل عادي، استشهد فيه بالشعر قليلا علـى شـكل قصائد طويلة، ولكنه يستشهد بأبيات قصار كثيرا في مواكبة الأحداث والمناسبات، وتتجلـى خبرة المؤلف الأدبية بأحوال الشعر المنحول منه والأصيل.

3- أخبـار صـلاح الديـن عنـد ابـن العديـم

أخذ على ابن العديم في الزبدة مآخذ تعلقت بالمادة التي قدمها عن عصر صلاح الـدين فوقع بعض الخلط والخطأ التاريخي من ذلك: "حصار صلاح الدين لبلد الإسماعيلية (مصـياف) وانسحابه منه بعد توسك خاله شهاب الدين الحارمي سنة (1175/571) ويقول ابن العديم:" ثم صالحهم... وسار بعساكره إلى مصر وكان في شروط الصلح أن يطلق عز الدين جورديـك وشمس الدين علي بن الداية وأخوه سابق الدين وبدر الدين. وهذا ليس من شروط الصلح مـع الإسماعيلية، وإنما كان من شروط الصلح مع الموصليين والحلبيين الذين احتجزوا أولئك الرهائن لصداقتهم لصلاح الدين(2).

كذلك يعمد ابن العديم إلى نقل الحوار الذي وقع بين عماد الدين زنكي أمير سنجار مع جنده سنة (1183/579) عندما كان صلاح الدين محاصرا لحلب وينسبه لصلاح الدين ليوهم القارئ أن العسكر الأيوبي لم يشأ مقاتلة الحلبيين أو دخول حلب. هناك مآخذ أخـرى علـى كتاب "الزبدة: منها أن استخلاص الكتاب من البغية والاقتصار فيه على أخبار حلب وسورية الشمالية بشكل موجز، أعطى الكتاب سمة الغموض والإيجاز المخل أحيانـا، ويظهـر هـذا الغموض والإيجاز بجلاء أحيانا كثيرة في أخبار الصليبيات بعيدا عن حلـب وشمـال سـوريا

---

(1): ابن العديم، **زبدة الحلب**، المصدر السابق، ص 21.

(2): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 238.

كفلسطين مثلا، وذلك على عكس مؤرخ بلداني آخر كابن القلانسي الـذي يتميـز كتابـه "الذيل" بشيء من التوسع خصوصا في الأقسام الأولى من كتابه، وقد يكون هذا – بغض النظر عن غموض الأخبار- إلى حدّ ما دقة منهجية من ابن العديم حيث اقتصر غالبا علـى أخبـار حلب- وقد يكون السبب في إيجاز ابن العديم مقابل توسع ابن القلانسي، إلى جانب الاختصار من البغية، وأن الأول عالج تاريخ حلب من قديم الزمان حتى عصره، وأما الثاني فقد عالج تاريخ دمشق في سنوات محددة سبق تبيانا، ويختصر المؤلف أحيانا بعض الأخبار اختصارا مخلا، ويثبت ابن العديم في كتابه بعض الأمور التي تشابه الأساطير والخرافات دون أن يعلق على الرواية المثبتة لديه بنقد أو توجيه(1).

أرخ ابن العديم في كتابه زبدة الحلب في جزئه الثاني للفترة الممتدة ما بين سنة (457-1173-1064/569) وهي السنة التي توفي فيها نور الدين محمود بن زنكي، وقسم ابن العديم الجزء الثاني من مؤلفه الزبدة إلى أقسام متعددة وخصص كل قسم للحديث عن من تعاقب على حكم حلب بذكر خصاله، ومختلف أعماله، إلى أن يصل إلى القسم الرابع والعشـرين وهـو القسم الأخير من كتابه خصصه للحديث عن حلب أيام الملك نور الدين محمود(2).

بدأ ابن العديم في حديثه عن صلاح الدين بذكر حملة شيركوه على مصر والحصار الذي ضرب على صلاح الدين من طرف شاور والصليبيين بشكل موجز، ثم ينتقل للحـديث عـن وزارة صلاح الدين وقطعه الخطبة للفاطميين، والوحشة التي كانت بين نور الـدين وصـلاح الدين بعد حصار حصني الكرك والشوبك، وعزم نور الدين على قتال صلاح الدين(3).

لم يخالف ابن العديم إلى هذا الحد من الأحداث حول صلاح الدين مـن سـبقه مـن المؤرخين خاصة ابن الأثير في الكامل، إلا أن أخباره جاءت مختصرة وبأسلوب سهل وميسّر.

تحدث ابن العديم عن أيام صلاح الدين الأولى في مصر إلى حين توليه الوزارة، وذكـر بعض أعماله وجهوده وخلافه مع سلطانه نور الدين محمود، وغيرها من الأحداث التي جاءت مجملة للغاية، ولم يأت ابن العديم على إيراد تفاصيل الأحداث، في ظل عدم توصـلنا للجـزء

---

(1): جمال فوزي، **التاريخ والمؤرخون** في **بلاد الشام**، المرجع السابق، ص 243.

(2): ابن العديم، **زبدة الحلب**، المصدر السابق، 326/2.

(3): نفسـه، 338/2.

الثالث من كتاب زبدة الحلب، ومؤلفه بغية الطلب وعدم إطلاعنا عليهما. لهذا لا نعرف طبيعة الأحداث التي رواها والمصادر التي اعتمدها، وتوجهه تجاه تلك الأحداث المتعلقة بصلاح الدين بشكل خاص، وما يمكن أن يكون قد تفرّد به أو أضافه عن المؤرخين السابقين له، المعاصـرين لصلاح الدين الأيوبي.

II- ابن خلّكـان المعجب، والمــادح للسلطـان الناصـر

يمكن وصف ترجمة ابن خلكان لصلاح الدين بالترجمة المطولة، والتي لم يورد فيها شيئا من عنده، كونا بنيت على روايات شيخيه باء الدين بن شداد وابن الأثير، ويبدو أنه أعجب بجهود السلطان لغلبة ما نقله قاضي عسكر السلطان ابن شداد على ما ذكره مناوءه ابن الأثـير الجزري.

1- ابن خلّكــان: مـن الشـام إلى مصـر

شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الأربلي الشافعي [1] ولـد بالمدرسة المظفرية التي كان أبوه يدرّس فيها بمدينة إربل سنة (1211/608) [2].

كان أكبر مجال ثقافي لأحمد بمدينة إربل بعد المدرسة المظفرية مجلس أبو البركات شرف الدين بن المستوفي، فسمع في شهور سنة (1224/621) صحيح البخاري عن أبي جعفر بـن هبة الله الصوفي البغدادي [3]، وكان أحمد كثير الترداد من إربل إلى الموصل حتّى أنه زار هـذه المدينة أكثر من عشر مرّات [4].

لمّا تجاوز ابن خلكان الثامنة عشر بقليل رحل من إربل إلى الموصل رفقة أخيه طلبا للعلم، وكان أمله في قصد حلب [5]، وفي مستهل ذي القعدة (1225/626) دخل ابن خلكان مدينة حلب

---

(1): الحنبلي، **الشذرات**، مج3، 372/5.

(2): ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 344/2.

(3): نفســه، 226/3.

(4): نفســه، 391/5.

(5): نفســه، 311/5.

[1]، وكانت هذه الأخيرة بفضل نشاطات القاضي بهاء الدين بـن شـداد (ت 1234/632) مقصدا للفقهاء وطلاب العلم.

تلقى ابن شداد ابن خلكان وأخوه بترحيب وأنزلهما في مدرسته وقرر لهما مرتبا عاليـا بسبب صحبته لوالدهما، ومن رعاهما من بعده مظفر الدين كوكبري صاحب إربل[2]، **وكـان** ابن شداد يعقد مجالس الحديث في داره عقب صلاة الجمعة وقد أفاد ابن خلكان مـن مجلسـه فوائد كثيرة[3]، وحرص ابن خلكان على تعلم اللغة والنحو فاتجه إلى شيخ الجماعـة في الأدب موفق الدين ابن يعيش، وابتدأ بقراءة اللمع لابن جنّي في أواخر سنة (1229/627) [4]، وكان همّه أن يلتقي المؤرخ والإخباري الكبير ابن الأثير (ت 1232/630) الذي كان يقيم في المدينة، فتردد عليه أحمد وأكرمه ابن الأثير لعلاقة وثيقة كانت بين ابن الأثير ووالد ابن خلكان [5].
انقطع تردده إلى حين سافر ابن الأثير إلى دمشق سنة (1230/628) فلمّا عاد إليها عاد ابـن خلكان يلازمه غير أنه لم يقم طويلا وسافر إلى الموصل [6].

يبدو أن لوفاة ابن شداد (1234/632) أمر مباشر في رحيل ابن خلكان من حلب إلى دمشق بحيث دخلها في شوال سنة (1234/632) وأقام بها عاما كاملا، فأخـذ عـن ابـن الصلاح أحد المتضلعين في الحديث والفقه في عصره [7].

بعد اكتمال عام في دمشق عاد ابن خلكان إلى حلب إلى المدرسة البهائية [8]، ثمّ اختار وجهة أخرى بعد إقامته بالشام ما يقرب عشر سنوات حين أزمع الرحلة إلى مصر، فغادر حلب في عام (1237/635) [9]، ولم يكن لابن خلكان في مصر شيخا مميزا سوى عبد العظيم المنذري

---

[1]: ابن خلكان**، الوفيات،** المصدر السابق، 139/6.

[2]: نفسـه**،** 90/7.

[3]: نفسـه، ص 91.

[4]: نفسـه، ص 46- 48.

[5]: نفسـه، 349/3.

[6]: نفسـه، 349/3.

[7]: نفسـه، 243/3.

[8]: نفسـه، 251/6. نسبة لمؤسسها بهاء الدين ابن شداد.

[9]: نفسـه، 100/7.

صاحب التكملة، ثمّ اتجه بعدها إلى الإسكندرية فمكث بها خمسة أشهر من عام (1238/636) [1]، وفي ذي القعدة نجد ابن خلكان في القاهرة [2]، أين لقي بهاء الدين زهير أحد كبار رجال الدولة الأيوبية، فأعجب بشعره، وبسبب صلة ابن خلكان بشخص البهاء وليّ نيابة القضاء بمصر ولا ندري متى بالضبط [3].

لا نعلم بعدها عن أخباره شيء إلاّ بعد سنوات حتى شوال (1158/656)، حينها كان ابن خلكان يشغل نفسه بتأليف كتاب في التراجم، ثمّ وقع عليه الاختيار من طرف السلطان الظاهر بيبرس ليكون قاضيا للقضاة في بلاد الشام [4].

لم تتضح وتتحدد نشاطات ابن خلكان في هذه الفترة الشامية التي امتدت عشر سنوات، وكان حينها يقيم علاقة بأناس يستطيع أن يجد لديهم الأخبار والتجارب منذ كان نائبا في القضاء بالقاهرة، فهؤلاء كانوا يمثلون مصادره السماعية والشفوية [5].

في سنة (1270/669) دخل بيبرس دمشق فعزل ابن خلكان عن القضاء فغادر إلى مصر، وليس في المصادر إشارة لسبب العزل[6]، ورغم الضائقة التي ألمت به بعد عزله (7سنوات) [1] مضى في إتمام كتابه، وقراءة كتب أخرى ليستمد منها معلوماته.

---

[1]: نفسه، 318/4.

[2]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 85/5.

[3]: نفسه، 262/6- 266.

[4]: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، المصدر السابق، 124/2. ففوّض إليه سنة (1270/669) الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية، وفوض إليه التدريس في سبع مدارس هي: العزراوية ، العادلية، الناصرية، والفلكية والركنية، والأقبالية، والبهنسية، وكان أبو شامة ممن حضر قراءة هذا التقليد، وتنازل له ابن خلكان فيما بعد عن المدرسة الركنية في سنة (1261/660) ، ثمّ عيّن أبو شامة بعدها مدرّس بدار الحديث في أواخر جمادى الآخرة (1263/662) ، ويبدو أن القاضي ابن خلكان استطاع أن يكسب ثقة المؤرخ، **انظر**: أبو شامة، **ذيل الروضتين**، المصدر السابق، 214، 215، 216،217، 229.

[5]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 46/7. فمن معارفه محاسن بن الصوري (ت 1264/663) عريف سوق الكتب ولا ريب في أن ابن خلكان كانت له علاقة وثيقة بالوراقين ودلالي الكتب ومجالسة أكبر تجار دمشق ابن سويد التكريتي ليستمع إلى أقاصيصه ، وتعرف بدمشق على شمس الدين قزا أوغلي وهذه الصلة كانت فاتحة لإفادته من كتابه (مرآة الزمان)، انظر: أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص 234، ابن خلكان، الوفيات، 247/6، اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، 42/1.

[6]:اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، المصدر السابق، 452/2.

أعيد ابن خلكان لمنصبه وكتب له التقليد بقضاء دمشق وأعمالها على مثـل حالـه السـابق (1268/667)، ولمّا أعيد إلى القضاء بدمشق كان قد انتهى من تدوين أكثر ما كان قد أرجأه بسبب شؤون القضاء [2].

عمل ابن خلكان في منصبه الجديد ثلاث سنوات إلى حدود سـنة (1270/670) ثم عـزل بسبب فتنة سنقر الأشقر، ثمّ أعاده السلطان المنصور قلاوون، وأضاف له منطقة حلب وأعمالها إلى جملة ما كان تحت يده [3].

لم يمرّ أكثر من شهر ونصف على إضافة منطقة حلب حتى جاءه العزل عن القضاء سنة (1281/680) وتولية عزّ الدين بن الصائغ مكانه [4]، ولا تذكر المصادر أيضا سبب العـزل، وبقي في يده المدرسة الأمينية إلى أن مات سنة (1282/681) بالنجيبية جوار المدرسة النورية ودفن بسفح قاسيون [5].

2- كتـابـات ابن شـداد وابـن الأثيـر: مصدر روايـات ابن خلّكـان

تعتبر ترجمة ابن خلكان المطولة لصلاح الدين من بين المصادر المعتمدة في التـأريخ لـه لتوفر شرط المعاصرة، ولأن التراجم لون آخر من الكتابة التاريخية التي تسلط الضوء على جانب من جوانب شخصية ما، ولهذا النوع من أنواع الكتابة التاريخية دور مميز في التأريخ لمختلـف الوفيات بشكل خاص.

لقد كانت كتب التراجم ومحتوياتا متباينة جدا، تبعا لموضوع البحث والناحيـة الـتي يعالجها المؤلف منه، والعنصر المشترك الوحيد المنتظر وجوده في التراجم كافة، ما عدا أقـدمها، هو تواريخ وفيات الأشخاص المترجمين التي كانت عادة معروفة أو يمكن استنتاجها [6].

---

(1): ابن العماد الحنبلي، **الشذرات**، المجلد الثالث، 372/3.

(2): **انظر**: ابن خلكان، **الوفيات**، 49/7.

(3): ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 52/7.

(4): ابن كثير، **البداية والنهاية**، 291/13.

(5): ابن شاكر، **فوات الوفيات**، المصدر السابق، 110/1.

(6): روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، 143.

ولا يصح حذف التراجم من أيّ بحث تاريخي حتى لو كان هذا الحذف ممكنا، وتبدو التـراجم أثبت صور التعبير التاريخي، ثمّ إن الكتب التاريخية الراقية تميل دائما نحو التـراجم [1]، ومـن الواضح أن التراجم أسهمت في كتابة التاريخ الإسلامي منذ بدايته، واستطاعت بمرور الزمن أن تظفر بمكانة رفيعة، ويرجع هذا إلى عدّة أسباب خاصة منبعثة من المحيط الإسلامي[2].
وقد أصبح التاريخ في أذهان كثير من النخب المسلمة مرادفا تقريبا للتراجم وسـيّر الرجـال، وأعطت التراجم المؤرخين أعظم فرصة ليصبحوا مفيدين عمليا وليجدوا لهم عملا في المجتمـع الإسلامي [3].

ويعد كتاب ابن خلكان في التراجم (الوفيات) من بين أقوى المؤلفات في هذا الجانب إذ لقي عناية وحظوة على مرّ الزمن، سواء كان ذلك بالتنويه بشأن الكتـاب أو الإكثـار مـن استنساخه أو جعله مركزا لدائرة كبيرة من المؤلفات التي ذيلت أو ألحقت به، أو الاقتباس منـه والاعتماد عليه، وتميز هذا المعجم بخصائص ومميزات أنه جعل عاما جامعا وذلك ميزة في غيره تتحول إلى نقيصة أحيانا وقد جاء معجما متوسط الحجم يسهل نسخه والرجوع إليه بخـلاف المؤلفات ذات الأجزاء الكبيرة [4]، وعرف ابن خلكان بـ اهته في النقل والحكم على من ترجم لهم، ويتميز كتابه أيضا بدقة فائقة لا من حيث الاختبار والانتقاد فحسب، بل مـن حيـث الضبط لكل ما يظن المؤلف أن القارئ بحاجة إلى ضبطه وهذا ما يجعل الوفيات مصدرا هامـا لضبط الأعلام وأسماء الأماكن [5].

انعكست على الكتاب صفتان من صفات المؤلف، أولاهما الروح الأدبية ولهذا كانـت التراجم موضعا لا اع بين روح المؤرخ وروح الأديب، ويظهر جليا أن الروح الأدبية أو ميـل ابن خلكان إلى جانب المحسنات لم يستطيعا أن يكبلا روح المؤرخ الناقد لديه، فهو حصـيف شديد التنبيه في هذه الناحية [6].

---

(1): روزنتال، **علم التاريخ عند المسلمين**، المرجع السابق، ص 141.

(2): نفسـه، ص 142

(3): نفسـه، ص 142.

(4): ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 77/7.

(5): نفسـه، ص 78.

(6): نفسـه، ص 79.

اعتبر عدد من كتاب التراجم والمؤرخين ترجمة صلاح الدين في كتاب الوفيات مطولة، واعترف ابن خلكان نفسه بذلك حين قال: " وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيهـا، إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير..."[1]، "وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي:
وقد أطال ثنائي طول لابسه = إن الثناء على التنبال تنبال"[2].
والتنبال: هو الرجل القصير.

لا ترتقي هذه الترجمة إلى المؤلفات التي اختصت بالتأريخ للسـلطان الناصـر نظـرا لاختصارها " مع أني لم اذكر إلا ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه وأضربت عن الباقي"[3].

اعتمد ابن خلكان في تحريره لهذه الترجمة بشكل رئيس ومباشر على شيخه عز الدين بن الأثير في " الباهر والكامل" خاصة لمّا انتقل صلاح الدين إلى الشام وعلاقته بالزنكيين، وابـن شداد في "سيرة صلاح الدين، المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" في نسب صـلاح الدين ومرحلة الجهاد الأعظم منذ سنة (1188/584)، وأفاد أيضا من تاريخ حلـب لابـن العديم، والمشترك وضعا المختلف صقعا" لياقوت الحموي، وبعض مؤلفات عماد الدين الكاتب عن فتح القدس، وسبط ابن الجوزي في تاريخه، وبعض الرسائل والمسودات التي يقول عنـها" رأيت في بعض المسودات التي بخطي ولا أعلم من أين نقلته"[4]، ونقل أيضا رسـالة القاضـي الفاضل التي كتبها باسم السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي.

وبخصوص المواضيع التي تطرق لها ابن خلكان من حياة صلاح الدين وضحتها عبارتـه القائلة:" بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخـره إن شاء الله تعالى"[5]، " والمقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى لـه من أول أمره إلى آخره"[6]، فالمجال الزمني والمكاني الذي تناوله ابن خلكان في هذه الترجمة هو

---

[1]: ابن خلكان، **الوفيات**، المصدر السابق، 195.

[2]: نفسـه، ص 205.

[3]: نفسـه، ص 195.

[4]: نفسـه، 148/7.

[5]: نفسـه، ص 145.

[6]: نفسـه، ص 151.

من مولد صلاح الدين إلى وفاته (1193/589-1137/532)، حيث قام باختصار مادة ابن شداد وابن الأثير في الغالب.

حاول ابن خلكان الالتزام بعدم انقطاع الكلام وهو يترجم لصلاح الـدين إذ قـال:" فأحببت ذكر ذلك على سّياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر" [1]، إلا أنه كان يترجم في معرض النص لمشاهير تلك الفترة ثم يقول رجعنا إلى ما كّنا عليه، أوعدنا إلى تمـام الكـلام الأول" [2]، فلم يؤثر هذا الانقطاع لأن ابن خلكان لم يعتمده كثيرا.

مما يلاحظ أيضا قول ابن خلكان في مواضع كثيرة من نص الترجمة:" وقلت" وهو في ذلك ينقل عن ابن شداد أو ابن الأثير على أكثر تقدير.

ما قام به ابن خلكان في ترجمته لصلاح الدين مجرد اختصار لما جاء في المصادر الأخرى، إذ لم ينفرد بإيراد أحداث لم يذكرها غيره سوى إجماع المؤرخين عن مولد صـلاح الـدين، وخروج أهل صلاح الدين من تكريت حين يقول:" وأخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته هـل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال سمعت جماعة من أهلنا يقولون: أنم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فشاء الله به وتطّيروا منه فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون: فكان كما قال"[3]، إضافة إلى انفراده بذكر بعض الأخبار الثانوية غير المهمّة.

يمكننا اعتبار عمل ابن خلكان من المصادر الثانوية التي لم تقدم لنا مادة يمكن أن نظيف منها إلى ما ورد في المصادر التاريخية الأخرى، إلاّ أن أهمية عمله تظهر في معاصرته للأحـداث والاختصار الذي قام به، والمقارنة التي عقدها بين بعض روايات شيخيه ابن شداد وابن الأثير في بعض المواضع.

لم يكلل عمل ابن خلكان فيما اختص به صلاح الدين بالنجاح التام، فهـو لم يبـذل جهدا في توسيع دائرة المصادر التي استقى منها مادته على الرغم من تحركاته بين حلب ودمشق ومصر، ومنصبه كقاضي للقضاة الذي يمكنه أو يسمح له على الأقل بالإطلاع علـى أمهـات المصادر والرسائل الديوانية، وهذا ما يؤاخذ ابن خلكان عليه إذ يعد تقصيرا من جانبه.

---

(1): ابن خلكان، **الوفيات**، ص 151.

(2): نفســه، ص 143/7 -154 -196-203-205-212.

(3): نفســه، ص 145.

لم يخصص ابن خلكان حديثا كافيا عند تطرقه لنور الدين محمود بل اكتفى بعبـارات قصـيرة للغاية، فخالف بذلك شيخه ابن الأثير، ويبدو أن الصورة التي رسمها لصلاح الدين كان فيهـا معجبا به تبعا لما أورده ابن شداد لأن ابن خلكان لم يقدم رأيا خاصا حول ما نقله، وإنما يفهم ذلك من منتخباته من سيرة صلاح الدين لابن شداد على وجه الخصوص.

لقد نبع إعجاب ابن خلكان بصلاح الدين من النصوص التي نقلها ابن شداد، وكذا الوضـع الذي آلت إليه دار الإسلام آنئذ من ضعف وتفكك في الوحدة السياسية ومختلـف الجوانـب الحياتية، فسلك بذلك مسلك شيخه في الإعجاب بالجهود التي بذلها صلاح الدين مـن أجـل خلافة قوية وموحدة.

III- أبـو شامـة العالم الموسوعـي، والحنيـن لعصـر صـلاح الديـن

يشكّل كتاب الروضتين بمنتخباته وبراعة صاحبه في الانتقاء والتلخيص أهم المصادر التي عنت بالتأريخ لدولتي نور الدين وصلاح الدين الأيوبي، فأبو شامة لم يضف شيئا إلى ما نقله من المصادر المعاصرة لصلاح الدين إلا بعض الشروح والتمحيص والنقد في مواضع مختلفة، وقـد اعتمد مجموعة من المصادر الرئيسية التي اجتمعت في رسم صورة صلاح الدين خاصة المفقـود منها ما جعل مؤلفه ينال مكانة متقدمة عند المتأخرين من دارسي السّيَر.

تناول كتاب الروضتين كامل فترة حياة صلاح الدين، وأكثر أبو شامة من الاستشهاد فجاءت مادة الكتاب ثريّة قارن فيها بين الروايات وأبان مقصود المؤرخين خاصـة روايـات العماد لما فيها من سجع وترصيع.

1- أبـو شامـة: الفقيـه المـؤرخ

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل، حيث يقال أن جده هو أبـو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي، المقرئ الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، وقد استشهد عند دخول الإفرنج بيت المقدس سنة (1021/412) [1].

وإثر الغزو الإفرنجي لبيت المقدس انتقل ابنه إلى دمشق، وأقام بدرب الفواخير بنـواحي الباب الشرقي، أين كثر الله نسلهم ومسكنهم. وولد أبو شامة عام (1202/599)، في أسـرة متواضعة لا تكاد تتميز عن غيرها بتفوق خاص في أي مجال من المجالات، عدا عمه عبد الرحمن الذي كان يشتغل بتعليم الصبيان بالجامع الأموي (ت 1208/605)، أما والده إسماعيـل (ت 1240/638)، وشقيقه إبراهيم المولود عام (1194/591)، فلم يحظيا بدرجة عالية من العلم ولم يكن لهما شأن في الحياة السياسية، وهو ما نلمحه من خلال رؤيا يقصها أبو شامة عن أخيه [2]، بل إن أباه كان يعجب من حبه للكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف مـن

---

[1]: أبو شامة، **الذّيل الروضتين، أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع** إلى نهاية الكتاب، عرف الكتـاب وتـرجم للمؤلف وصححه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، بيروت: دار الجيل، 1974، ص 38.

[2]: الذي رأى والدهما يقول له: "عليك بالعلم، انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرائي يمشيان في أسفله" **انظر**: **الذّيل الروضتين**، ص 39.

عادة الصبيان، وكانت دهشته كبيرة، حين علم بأنه- أبو شامة- قد ختم القـرآن، وعمـره حينئذ عشر سنوات، ثم أخذ في تعلم القراءات السبع والفقه والعربية والحديث، حج مع والده سنة (1223/621) وأيضا في السنة التي بعدها، كما زار بيت المقدس سـنة (1226/624) زيارة عابرة، ثم سافر إلى الديار المصرية سفرة تعليمية سنة (1230/628)، وأخذ عن شـيوخ هذا البلد[1] آنذاك بمصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية[2].

وقد برع في علوم الحديث والقراءات والفقه والعربية، يترجم له في طبقـات الحفـاظ والفقهاء والقراء واللغويين بالثناء البالغ عليه، وكان التاج الغزاري الفقيـه الشـافعي يقـول: "عجبت من أبي شامة كيف قلد الشافعي" يقصد أنه بلغ رتبة الاجتهاد، ويدل هذا على تنـوع ثقافته وتعدد مجالاتها، ما أهله للمساهمة في جلّ العلوم خاصة المتعلقة منها بشرع الله، ويضـعه ضمن زمرة العلماء المبرزين، ويتأكد لنا هذا من خلال الوقوف على تنوع مؤلفاته وكثرتها [3].

لقد كان اهتمام أبي شامة بالتاريخ دراسة وتأليفاً في المرحلة الأخيرة من مراحل رحلته العلمية، ويبدو أنه لم يكن يريد النبوغ والبروز في هذا الميدان بقدر ما كان يسـعى لـذلك في المجالات الشرعية واللغوية، وبالتالي فإن الغاية التي كان يسعى إليها من وراء عنايته المتـأخرة في هذا الفن، هي التمكين لدراساته الشرعية واللغوية [4].

---

[1]: ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم يذكر: " الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الفرج الثقفي، أبي طاهر بركات بن إبـراهيم الخشوعي وغيرهم. **انظر**: **مذيل الروضتين**، ص 39.

[2]: نفسـه، ص 37.

[3]: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، 1/04- 05. يذكر أبو شامة مؤلفاته الكثيرة، فيتأكد ما ذهـب إليـه كتـاب التراجم في وصفهم لنشاطه العلمي في علوم اللغة العربية والقراءات والتفسير والحديث والفقه، ومن هذه المؤلفات: "شرح القصائد النبوية "، "إبراز المعاني من حرز الأماني"، "نور المسرى في تفسير آية الإسراء"، "شرح الحديث المقتفى في أحاديث النبي المصطفى"،" وضوء الساري إلى رؤية كلام الباري"، "والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول"، "وكتاب البسملة"، "والباعث على إنكار البدع والحوادث"، وكتاب "السواك، وكشف حال بني عبيد" و"مفردات القراء"، "مقدمة في النحو والألفاظ المعربة"، "نظم مفضل الزمخشري"، "رفع النزاع بالرد إلى الإتباع"، "والمذهب في علم المذهب"، وبعضها شرع في تأليفها لكنه لم يكملها: "كشرح لباب التهذيب"، "الأرجوزة في الفقه"، "مشكلات الآيات ومشكلات الأخبار" وكتاب "القيامة وشرح أحاديث الوسيط" وغيرها، **انظر**: أبو شامة، **مذيل الروضتين**، المصدر السابق، ص 39، 40.

[4]: وهو ما يتأكد من قوله: « بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتنـاص الفرائـد الأدبية عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه » ، ويعزو ذلك إلى الاقتداء بمـن سـلف

ولكن رغم هذا التأخر، إلا أنه ترك مؤلفات خلدت اسمه في هذا الميدان، نذكر منها: " تذيب تاريخ دمشق " الذي صنفه ابن عساكر[1]، في ثمانين مجلدا، فـأخرج أبـو شـامة في صورتين كبرى في خمسة عشر مجلدا، وصغرى في خمس مجلدات، و" كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" "النورية والصلاحية "، ومختصره الذي سماه " عيون الروضتين "[2]، وتكملتـه الـتي سماها " المذيل على الروضتين " فوصل بالحوادث ما بين (1193/590)، وقد أكثر فيه مـن التراجم ولكنه ذكر أحداث تلك الفترة الكثيرة القلق والاضطراب في حدود ما عرف وشـهد سنة بعد سنة، لكن الذيل أقل قيمة تاريخية من الروضتين، بالإضافة إلى عدة أعمال " ككشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد " وهو ضد الفاطميين ذكـر فيـه تفصـيل أحوالهم من وجهة النظر العباسية، واعتمد فيه على مصادر عديدة ذكرها في كتابه الروضـتين وقد فقد هذا الكتاب مع مصادره[3]، و" مختصر تاريخ بغداد "، وكتاب " جامع أخبار مكـة والمدينة وبيت المقدس " شرفهن الله تعالى والذي لم يكتب له إكماله[4].

بذه الثقافة المتنوعة، لا يعد أبو شامة أن يكون صورة متكررة لعلماء عصـره، الـذين أخذوا من كل علم بنصيب، تأثرا بالنهج العام الذي تميزت به الحياة العلمية آنذاك، فقد كانت

حيث يقول: « اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى » ويبرز تأخر اهتمامه به تبريرا دينيا: « ففي كتـاب وسـنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبر لـذوي البصـائر »[4]، والإمـام الشافعي درس أيام الناس والأدب عشرين سنة ولم يرد بذا إلا الاستعانة على الفقه، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، المصـدر السابق،ج1، ق1، ص 2.

[1]: " هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، نشأ على حب العلم، عاش 72 سنة، حفل معظمها بالتلقي والتحديث والتأليف، تصدر دار السنة ولم يبلغ بعد الخامسة والثلاثين من عمره، قربه نور الدين زنكي الذي بنى له دار السنة، وأجله صلاح الدين الأيوبي ولزم مجالس تدريسه، وحضر جنازته إلى حيث دفن بالباب الصغير بدمشق.كثرت تآليفه وتنوعت موضوعات كتبه، ولكن تاريخه الكبير يكاد يكون أجلها شهرة، وقد سماه "تاريخ مدينة دمشق ، وذكـر فضلها وتسمية من حلّ با من الأماثل واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها"، ألف على مراحل ثم وكل أمر تبييضه إلى ابنه القاسم: "ابن عساكر، **مختصر تاريخ دمشق**، تحقيق: رياض عبد الحميـد مـراد، وآخـرون، دمشـق، دار الفكـر (1984/1404)، 10/1.

[2]: أبو شامة، **مذيل الروضتين**، المصدر السابق، ص 39.

[3]: مصطفى شاكر، **التاريخ العربي والمؤرخون**، المرجع السابق، 3/267- 268.

[4]: أبو شامة، **مذيل الروضتين**، المصدر السابق، ص 40.

الدراسة نسبة الطابع مستندة إلى مذهب من المذاهب السنّية الأربعة، وكان اهتمام السـلاطين والأمراء ورجال الدولة بالتعليم، وتخصيصهم الأوقاف الكثيرة لطلاب العلم والمعلمين على حد السواء، وتنافسهم في إنشاء المدارس والمكاتب وتقريبهم للعلماء، كل هذا كان عـاملا مـن عوامل انتشار الثقافة وتنوعها، وحافزا على طلب العلم والإقبال عليه.

المتتبع لحياة العلماء في هذه الفترة يجد أن كثيرا منهم كان يعتمد اعتمادا كـبيرا علـى الأوقاف والمدارس في حياته اليومية، مستفيدا بمواردها في فترة طلب العلم، ثم متقلدا منصـب الأستاذية بمدرسة من المدارس، أو مشرفا على وقف من الأوقاف بعد اجتياز مرحلة الطلب، بل نجد البعض منهم يجمعون بين التدريس والإشراف على عدد كبير مـن الأوقـاف، ووسـيلة للتقرب من الأمراء الحاكمين أو من السلاطين [1]. وإذا تتبعنا حياة أبي شامة لاستبيان وضـعه الاجتماعي، وجدنا الغموض يلف حياته في جميع مراحلها، إلا في بعض الفترات القصيرة الـتي يعطينا أبو شامة عنها إشارات موجزة مختصرة فتلقى الضوء على هذه المراحل من حياته، وأول هذه الإشارات يرجع إلى سنة (1218/615) ففي هذه السنة نجده مقيما في المدرسة العزيزيـة في دمشق ثم لا نلبث أن نجد إشارة أخرى إلى أنه أتم دراسة القراءات في السنة الموالية وقد يفهم من هذا أن صلته بذه المدرسة انقطعت منذ نجح في إتمام دراسته لهذا الفرع من العلـوم، ثم لا نجد بعد هذا شيئا يذكر عن حياته[2].

وبسبب هذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة، تخفى عنا الوظائف التي كان يشغلها ويعتمد عليها في حياته، بيد أننا نجده يشير إلى وقوع الاختيار عليه سنة (1237/635) ليكون أحـد المعدلين بدمشق، ويذكر أن نائبه في الصلاة بالمدرسة العادلّية هو الشيخ شمس الـدين محمـود النابلسي (ت 1257/656) وقد ناب عنه مرتين لم يحدد تاريخهما، الأولى في مرضه، والثانيـة مدة انصرافه إلى بساتينه [3].

---

[1]: أبو شامة، **الروضتين**، مقدمة المحقق، المصدر السابق، ج1، ق1، ص 6.

[2]: نفســه، ص 06.

[3]: إلا إشارات مقتضـبة في سـنوات: "(1236/634، 1246/644، 1250/648، 1255/654، 1257/656)" وكلـها إشارات غير مباشرة وردت في أثناء تسجيله لبعض الحوادث أو الوفيات، ويمكن الاستدلال بها على أنه كان يقيم في هذه السنوات بالمدرسة العادلية بدمشق، ولا ندري إذا كان أبو شامة قد استمر مقيما بها بعد سنة (1257/656) حتى انتقـل منها سنة (1261/660) إلى المدرسة الركنية عندما عين مدرسا لها، كما أنه من غير الممكن القطع بتـاريخ انتقالـه مـن

وعندما بلغ أبو شامة الستين من عمـره (1260/659 أو 1261/660)، تـولى التـدريس بالمدرسة الركنّية، وبقي فيها حتى عيّن مدرّسا للمدرسة الأشرفّية سنة (1263/662)، واستقر بها ثم أضيفت إليه مهمة الإقراء بالتربة الأشرفّية، واستمر ذلك حتى وافاه الأجل [1]. بيد أن هذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة لا يعني أنه كان شخصية مغمورة في الحياة الحكوميـة، ولا يدل على نقص في الكفاءة أو المؤهلات جعل رجال الدولة يعرضون عنه، ولا يسـندون إليـه الوظائف والمناصب الهامة، بل إننا نجد فيما يتحدث به أبو شامة عن بعض أسـاتذته الأعـلام الذين أعرضوا عن التزلف إلى ذوي السلطان، ما يدل على أنه اتخذهم قدوة له وجعل منـهم مثالا يحتذي، فكان ينهج نهجهم ويترسم خطاهم، فقد صحب أبو شامة أستاذه السخاوي مـا يقرب من ثلاثين سنة بين (1217/614و 1245/643)، وقد كان السخاوي متعففا زاهـدا مقتنعا باليسير، وشمل زهده صحبة رجال السلطة [2].

كما تتلمذ على عز الدين بن عبد السلام، الذي أخرج من دمشق سنة (1241/639) لقـوة شخصيته وخوف حاكمها منه، فارتحل إلى مصر وأقام بها حتى تـوفي سـنة (1261/660)، والسبب المباشر في إخراجه من دمشق إسقاطه اسم حاكمها- الصالح إسماعيل- عن الخطبة، لما استعان بالإفرنج وأعطاهم مدينة صيدا، ولما توفي قال الظاهر بيبرس سلطان مصر: " اليوم استقر لي ملكي، فلو أمر عز الدين في شأني بما أراد لأطاعوه مبادرين [3].

اقتداء بمشايخه عزف أبو شامة عن المناصب الحكومية، وترفع عن التكالب على أمـوال الأوقاف، واعتمد على بساتينه في حياته اليومية، فأغنى بيته وأسعد أهله، وصان وجهـه عـن

المدرسة العزيزية التي كان مقيما بها سنة (1218/615) إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقراره بها سنة (1236/634) ويبدو أن إقامته بهذه الأخيرة بين عامي (1236/634، 1257/656) كانت متصلة، لم يقطعها إلا مدة انصرافه إلى بساتينه أو حرفة مهنية أو تجارية، **انظر**: **الروضتين**، ج1، ق1، ص 6.

(1): نفسـه، ص 07.

(2): خرج السخاوي مرة بمعية أبي شامة لزيارة المقابر، وفي هذه الزيارة لفت نظر أبي شامة بيت كتب على قبر الفقيه ابن الشاخوري يقول: ما كنت تقرب سلطانا لتخدمه ** لكن غنيت بسلطان السلاطين، انظر: أبو شـامة، **الروضـتين**، المصدر السابق، ص 08.

(3): نفسـه، ص 08.

الناس وأحس بالحرية والاستقلال، كما يقول في المذيل [1]، في قصيدة تضمنت مائـة وثمانيـة أبيات [2]، إلا أن التدريس في مدارس السلطة هو كذلك تقرب منها.

لكن بالنظر إلى شخصية أبي شامة التي تحمل ملامح الزهد والـورع، يبقـى تسـاؤل مطروح، هل عرض عليه منصب أو وظيفة ورفضها ؟ حتى وإن كان يذكر أبياتا نقـرأ مـن خلالها عزوفه عن التشكي لولاة الأمور[3].

ويقتدي جلال الدين السيوطي بأبي شامة وبغيره، فهو " أزهدهم وأورعهم" بيد أن قطب الدين اليونيني يتخذ موقفا آخر، فيذكر أن أبا شامة " كان كثير الغضب مـن العلمـاء والأكـابر والصلحاء، والطعن عليهم والتنقيص بهم، فقدح الناس فيه وتكلموا في حقه فسقط بذلك مـن أعين الناس" [4].

---

[1]: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، ج1، ق1، ص 09.

[2]: أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص 222، مما جاء في القصيدة:

أيها العاذل الذي إن تحرى　　　قال خيرا ونال بالنصح أجرا

لا تلمني على الفلاحة واعلم　　　أننا من أحل كسب وأثرى

كيف لا ألزم الفلاحة باقي　　　عمري لازال حصدا وبذرا

وبها صنت ماء وجهي عن الناس جميعا وعشت في القوم حرا

إذ بها صار مـ لي ذا غلال　　　مع عيال من بعد ما كان قفرا

اتخذ حرفة تعيش بها يا　　　طالب العلم إن للعلم ذكرا

لا تنه بالاتكال على الوقف　　　فيمضي الزمان ذلا وعسرا

[3]: فقد وقع له حادث توفي بعده بشهرين ونصف، حيث تعرض لهجوم اثنين عليه لم له يذكره أبو شـامة: " وفي عـام (1266/665) جرت لي محنة بداري بطواحين الأسنان، فألهم الله الصبر وفعل الله تعالى فيها من اللطف ما لا نقدر على التعبير عنه بوصف، وكان قيل لي: قم واجتمع بولاة الأمر، فقلت: قد فوضت أمري إلى الله فما أغير ما عقيدته مـع الله وهو يكفينا سبحانه ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ونظمت في ذلك ثلاث أبيات:

قلت لمن قال أما تشتكي　　　ما قدر جرى فهو عظيم جليل

يقضي اله تعـالى لنـا　　　من يأخذ الحق ويشفي الغليل

إذا توكلنا عليه كفـى　　　فحسبنا الله ونعم الوكيـل، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السـابق، ج1، ق1، ص 240.

[4]: صدور هذا الطعن من معاصر لأبي شامة يقتضي معرفة نوع الصلة بين الرجلين، فأبو شامة شافعي، بينما كان اليونيني من قادة الحنابلة وابنا لإمام من أئمتهم ببعلبك، وهو الشيخ محمد الحنبلي اليونيني (ت 1258/657)، وذكر أبو شـامة نبـأ

عموما يمكن أن نقول أن أبا شامة كان يحيا حياة سهلة مطمئنة بمنأى عن الصـعوبات والصراعات التي تخرج الحياة عن استقرارها وهدوئها، عدا ما تعرض له قبل وفاته، وما يذكره هو ضمن أحداث (1259/658) [1].

وبما أن مولد أبي شامة كان سنة (1202/599) أي بعد وفاة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، فلم تكن له علاقة مباشرة بصلاح الدين وحكومته، ولما كانـت نفـس أبي شامة تأنف العمل الحكومي ولا تحبذه فإنه لم تكن له أيضا صلة بخلفاء صلاح الـدين، إلا أن افتتانه وإعجابه المنقطع النظير بكل من نور الدين وصلاح الدين ظاهر، نلمسه من مقدمة كتابه "الروضتين" حيث يقول: "... الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره وسمعت من أخباره مع تأخر زمانه وتغير خلانه... سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين- رضي الله عنهما- في المتقدمين، فإن كل من الفريقين حذا حذو مـن تقدمه في العدل والجهاد واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهاد " [2].

بل يجعل منهما حجة وقدوة وجب التأسي والاقتداء بما في تسيير شـؤون الـبلاد والعبـاد، ويلفت النظر إلى نكتة بينهما ما سبقه إليها أحد [3].

وفاته في المذيل، وعلق أنه ألف- محمد الحنبلي- كتابا في الإسراء مليئا بالخطأ الفاحش، فرد عليه أبو شامة بكتاب يفنـد مزاعم اليونيني ويصحح أخطاءه، وسمى كتابه "الواضح الجلي في الرد على الحنبلي"، وبصورة عامة لم يكن الحنابلة علـى علاقة طيبة بأئمة المذاهب الأخرى خاصة الشافعية منهم، فأبو شامة يمدح أستاذه الحافظ ابن عساكر لأنه " كان لا يمـر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسببهم له، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، مقدمة المحقق، ج1، ق1، ص 10.

[1]: وهي سنة دخول التتار إلى دمشق، حيث استدعاه نائب التتار وأهانه، بل وهدده بضرب رقبته فاضطر أبو شـامة أن يعطيه مبلغا كبيرا من المال لقاء إطلاق سراحه، وقد هزم التتار بعد هذه الحادثة بعشرة أيام في موقعـة عـين جـالوت، فاعتبرت الهزيمة كرامة لأبي شامة وسجلت في بعض الأشعار، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، مقدمة التحقيق، ج1، ق1، ص 11.

[2]: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، ج1، ق1، ص 05.

[3]: فيقول: " هذان الملكان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين، فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السـيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل غي، وظهرت بما من خالقهما العناية فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية، وهذه نكتة قل من فطن لها ونبه عليها، ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها، وذلك أن نور الدين- رحمه الله- ولد سنة (1117/511) (ت 1173/569) وولد صلاح الدين- رحمه الله- سنة (1137/532) وتوفي سنة (1192/589) فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفقـا، فـبين وفاتهما عشرون سنة، وبين مولدهما إحدى وعشرون سنة، وملك نور الدين دمشق سنة (1154/549) وملكهـا صـلاح

تدل حوادث التاريخ على أن عوامل الضعف بدأت تدب في الدولة الأيوبية عقب وفاة مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك جراء الصراع على مصالح شخصية وتحقيق مآرب فردية بين خلفائه، متناسين العدو الإفرنجي الذي ما يزال مرابطا على الساحل الشامي، متجاهلين الجهود التي بذلها صلاح الدين في توحيد الجبهة ضد الإفرنج.

وإن تمكن أن يجمع غالبية الصفوف ويوجد معظم القوى حوله، ونقصد بالبعض: الملك العادل وابنه الكامل من بعده، غير أن الطرق التي سلكوها لتحقيق هذه الغاية، لم تكن خالية في الغالب الأعم من المآخذ، فلكي يستطيع العادل توحيد القوى تحت رايته عمد إلى إذكاء نار الفتنة بين الإخوة الثلاثة: العزيز صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر صاحب حلب، وهم أولاد أخيه، حتى يستغل الاضطراب لتحقيق مطمعه، وحتى يتسنى للكامل رص الصفوف تحت سلطانه، واجه جميع منافسيه الذين اتحدوا ضده ليحدوا من جبروته، ولم يتوان عن التحالف مع الملك فردريك ملك الإفرنج وتسليمه بيت المقدس سنة (1228/626) دون قتال، حتى يتفرغ لحصار دمشق وطرد الملك الناصر الأيوبي منها [1]، فحتى جهود الوحدة كان وراءها دافع حب الزعامة أكثر من أي غاية أخرى.

في هذا الجو المشحون بالحروب والانقسامات بين الإخوة، ولد أبو شامة وشب واكتمل، وكان يحز في نفسه أن يرى مثل هذه التصرفات من قبل أمراء وملوك تجمع بينهم رابطة الإسلام قبل عرى الدم والقرابة، وفي أثناء دراسته التكميلية للتاريخ استرعى عاطفته، ولفت انتباهه تلك الجهود العظيمة التي بذلها نور الدين، ومن بعده صلاح الدين في تخليص البلاد من الهوان الذي لحقها والفوضى التي عمتها جراء غزو الإفرنج وتكاسل أمراء تلك الفترة، حيث يقول في معرض حديثه عن تاريخ دمشق لابن عساكر: « ومر بي فيه من الملوك

الدين سنة (1174/570) ، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة وفي السلطنة الصلاحية تسعة عشر عاما، وهذا من عجيب ما اتفق في العمر والمدة في الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين، مع قرب النسبة بينهما في سيرتهما، والفضل للمتقدم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله والإرشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد لأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد، لكن صلاح الدين أكثر جهادا وأعم بلادا، صبر وصابر، ورابط وثابر، له من الفتوح أنفسه، وهو فتح الأرض المقدسة، **انظر**: أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص 06- 07.

[1]: أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، ج1، ق1، ص13- 14.

المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين... فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريض لهما والتعريف والغاية من ذلك، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك »[1].

2- كتاب الروضتين مؤلف سلالاتي

يتكون كتاب الروضتين من جزأين، ينتهي الجزء الأول بحوادث سنة (1177/573)، وينتهي الجزء الثاني بحوادث سنة (1197/594)، ويبدأ الكتاب في تكوينه العام بمقدمة قصيرة ضمّنها أبو شامة البواعث التي دفعته إلى تأليفه، بالإضافة إلى ذكره للمصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها في تدوينه.

ثم عقد فصلا خاصاً ضمّنه الدولة النورية، ويتحدث فيه عن قضايا عامة لها صلة مباشرة بنور الدين محمود، وبصفاته الشخصية التي أهلته ليكون حاكما ممتازا، يحظى بالحب والتقدير، ومن هذه الصفات: عدله ورحمته وجهاده وشجاعته وسياسته، ويستشهد عند ذكر كل صفة بمثال يؤكد به تميز شخصيته نور الدين محمود[2].

ويتبع أبو شامة هذا الفصل بفصل آخر، جمع فيه كثيرا من المدائح الشعرية المنشدة في نور الدين محمود، وهذه القصائد هي لمحمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأبو الحسن محمد بن منير، وأبي المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي، وبانتهاء هذا الفصل ينتهي الحديث العام المجمل عن الدولة النورية المصطبغ بصبغة عاطفية[3].

ثم يشرع في تفصيل الحديث، ويبدأه بذكر أصل البيت الزنكي، فيتحدث عن عماد الدين زنكي وجهاده وأعماله حتى وفاته سنة (1146/541)، ثم يعود إلى الحديث عن نور الدين الذي يظفر بحلب ويجد نفسه في وجه الإفرنج، ويقع عليه جهادهم وتوحيد كلمة الشام، ويثبت نور الدين جدارته وقدرته على هذه المسؤولية، فيزداد اهتمام أبي شامة بهذا الحديث

---

(1): أبو شامة، **الروضتين**، المصدر السابق، ج 1، ق1، ص 05.

(2): نفسه، ص 09 إلى ص 44.

(3): نفسه، ص 44 إلى ص 57.

ويتتبع أعماله بالتفصيل على ترتيب السنين، ابتداء من سنة (1146/541) وهي السنة التي تولى فيها حلب، معتمدا في ذلك على المصادر المعاصرة، مؤيدا حديثه بكل ما يمكن من الحصول عليه من وثائق أو قصائد شعرية سجلت مراحل جهاده وتتبعت معاركه بالتفصيل، ولا ينسى إفراد فصول خاصة طويلة كانت أم قصيرة لبعض الحوادث التي رآها تستحق الإفراد في إطار النظام الحولي[1].

ويستمر أبو شامة في حديثه عن نور الدين بهذه الطريقة، ثم عن عصر صلاح الدين، الذي لقن في بلاط نور الدين دروس الجهاد، ثم حمل المشعل بعده، في إكمال توحيد الجبهة وجمع الشتات ومواجهة القوى الإفرنجية، إلى وفاته سنة (11192/589)، بعد انتهاء معركته مع جموع الإفرنج في ثالث حملاتم بشهور قليلة. حيث يتعامل بنفس الطريقة من حيث تتبع أعماله ومعاركه على تتابع السنين، ابتداء من سنة (1173/569) وهي السنة التي توفي فيها نور الدين محمود، وخلى الجو لصلاح الدين ليبرهن عن إمكانياته في استكمال مسيرة الجهاد والتوحيد التي بدأها عماد الدين زنكي غير أن أبا شامة لا يفرد فصلا- كما فعل مع نور الدين محمود- يتحدث فيه عن الصفات الشخصية التي مكّنت صلاح الدين من الظهور على مسرح الأحداث وبوأته مكانة متميزة بين أعلام التاريخ الإسلامي[2].

كما أنه لا يتحدث عن أصل البيت الأيوبي، إلا عندما يجد الفرصة لذلك، ونعني بهذا أنه يتطرق للأصل البيت الأيوبي عند ذكره لوفاة أعلامه في الفترة وهم أسد الدين شيركوه وشقيقه نجم الدين أيوب، ولو أنه يركّز أكثر على عوامل وكيفية التحاقهم بالزنكيين، بالإضافة إلى عدم إيراده لمولد صلاح الدين، إلا في معرض حديثه عن وفاته حيث يخصص فصلا يتحدث فيه عن مولده وأخلاقه [3].

---

[1]: خصص أبو شامة لبداية الدولة النورية ونشاطاتا جزء كبيرا من مؤلف يبدأ من الصفحة 57 من الجزء الأول – القسم الأول- إلى حدود صفحة 589 من الجزء الأول – القسم الثاني .

[2]: اال الذي خصصه أبو شامة للحديث عن صلاح الدين وانجازاته يبدأ بداية الجزء الأول – القسم الثاني- ص 329، والجزء الثاني من مؤلف الروضتين.

[3]: انظر: **الروضتين**، ج1، ق2، ص 405، 534، 535.

من بين هذه المؤلفات يحظى كتاب الروضتين في الحياة العلمية بمكانة متميزة، تمنحه في صدارة المصادر التي يرجع إليها الباحثون في فترة هامة من فترات تاريخ الإسلام، تلك الفتـرة التي طبعت بطابع الصراع بين الإسلام وأمم الإفرنج، واصطلح على تسميتها باسم الحـروب الصليبية.

ويدل عنوان الكتاب على أن صاحبه يتعرض في موضوعه إلى زمن محدود بعصري نور الـدين وصلاح الدين، ولأمكنة محددة بإطار دولتيهما ومناطق نفوذهما، ويبدو أن الحنين قد شـدّ أبي شامة الذي ولد بعد وفاة صلاح الدين بعشر سنين إلى اختيار هذه الفترة لتكون موضوع كتابه ومناط دراسته ؟ [1].

لكي نعرف إلى أيّ حدّ نجح أبو شامة في عرض صور صادقة عن الـدولتين النوريـة والصلاحية يجدر بنا تحديد الإطار الزمني والمكاني لكتاب الروضتين.

بالنسبة للإطار الزمني ابتدأ أبو شامة بذكر نشاطات عماد الدين زنكي ومساهمته في ردّ العدوان الصليبي منذ توليه الموصل سنة (1127/521) إلى وفاته (1146/541)، قرب قلعة جعـبر، فخلفه كل من ابنه نور الدين محمود بحلب، وسيف الدين غازي بالموصل، وما لبث أن جمـع نور الدين جميع ما كان تحت يد والده واستمر في توحيد المسلمين ومواجهة الصليبيين منذ سنة (1146/541) إلى وفاته (1173/569) [2].

في سنة (1168/564) وليّ صلاح الدين الوزارة بمصر للخليفة الفـاطمي العاضـد، وبوفاة نور الدين خلى له الجو فسعى إلى توحيد الجبهة الإسلامية واستكمال مسيرة الجهاد ضد الصليبيين حتى وفاته (1193/589)، فالمدة التي حكم فيها هؤلاء السلاطين الثلاثة منذ سـنة (1127/521) إلى (1193/589) هي المجال الزمني الذي يتعرض لـه كتـاب الروضـتين بالحديث والوصف.

وبخصوص المجال المكاني فيشمل نشاط عماد الدين زنكي في مراحلـه الأولى، ثم يتـدرج في الشمول والاتساع مع امتداد سلطانه وسلطان خليفته من بعده حتى تنتهي في أوسع مدّ لها عند

---

(1): أبو شامة، **الروضتين،** ج1، ق1، ص 13.

(2): نفســه، ج1، ق1 ص 58، إلى ق2، ص 550.

حدود الجزيرة والعراق وآسيا الصغرى ومصر والحجاز واليمن والنوبة وإفريقية المؤمنية، أي عند حدود المجال الجغرافي الكبير الذي رفرفت عليه راية صلاح الدين الصفراء [1].

أما الأحداث الأخرى الخارجة عن الإطارين الزمني والمكاني لا نجد لها مجالا في كتاب الروضتين عدا ذكر وفاة خليفة وتنصيب آخر لكون الخلافة المؤسسة الرسمية التي تستمد منها شرعية الحكم ولأجلها ناضل هؤلاء السلاطين الثلاثة، أو التعرض لبعض وفيات العلماء البارزين كنتيجة طبيعية تمثلت في حبّ أبي شامة للعلم والعلماء، أو عند حديثه عن إفريقية لمّا توغل فيها قراقوش مملوك تقي الدين ابن أخ صلاح الدين، ولم يكن ذلك قصده وإنما كان يريد التعرض لشخص وثيق الصلة بالأسرة الأيوبية، وكذلك الخطاب الذي أرسله صلاح الدين إلى يوسف بن عبد المؤمن[2] يسأله فيه المساعدة أثناء حصار الصليبيين لعكا لم يتعرض له أبو شامة إلا لأنه صادر عن الشخص الذي قصده أبو شامة بالتأليف والكتابة [3].

إن مجمل المواضيع التي تحدث عنها أبو شامة في كتاب الروضتين داخل هذين المجالين الزمني والمكاني تتعلق بالجانب الحربي أكثر من أيّ شيء آخر، ولم يكن إعجاب أبو شامة المواطن الدمشقي بنشاط نور الدين وصلاح الدين الحربي فحسب بل كان لعدالتهما بين النّاس

---

(1): أبو شامة، **الروضتين،** ج1، ق1، ص 18- 19.

(2): هناك مصادر لا تذكر أكثر من رسالة كتبت عن صلاح الدين إلى المنصور الموحدي، ومن النصوص التي توحي بأحادية الرسالة ما ورد في نص الروضتين "...سلام مودّة ما وفد الغرب قبلها مثلها"، وهناك ما يفيدنا بوجود مراسلتين فصاحب "صبح الأعشى" أرّخ الرسالة التي أوردها (585/1189) بينما تحمل رسالة "الروضتين" في نصها تاريخ 28 شعبان (586/1190)، ومن حيث المحتوى نجد رسالة " صبح الأعشى " تتوقف أحداثها قبل الأحداث التي تنتهي عندها رسالة الروضتين، وقد اختلفت مضامين الرسالتين في بعض المواضع، غير أنه يفهم من مسألة الألقاب في الرسالتين وجود عداوة كامنة بين الطرفين،= = أو على الأقل رفض الأيوبيين سياسة الدولة الموحدية في ادعائها بأحقية الخلافة على جميع المسلمين، فالأيوبيون تابعون شكليا للخلافة العباسية ويمارسون في الواقع استقلالا عنها. تكثر عبارات التبجيل في رسالة صبح الأعشى للخليفة الموحدي، أمّا رسالة الروضتين فلم تعترف للمنصور الموحدي بلقب الخلافة، فلهذا قيل إن المنصور رفض تقديم الدعم للأيوبيين. **انظر**: **رسائل موحدّية**، تحقيق أحمد عزّاوي، منشورات كلّيّة الآدب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 2/61- 64.

(3): أبو شامة، **الروضتين،** ج1، ق1، ص 15- 16.

وإلغاء الضرائب وإنشاء المدارس والوقف عليها نصيب أوفر من تكوين الصورة الجميلـة الـتي انتزعت إعجاب أبي شامة، فأراد أن يكشف عنها لملوك عصره علّهم يقتفون أثر بطليه [(1)].

يعد كتاب الروضتين سجلّ مفصل لتاريخ الدولتين السياسي، أما الجانب الاجتماعي فلا ذكر له إلا أخبار عرضية لها صلة مباشرة بنور الدين وصلاح الدين. يبدأ كتاب الروضتين في تكوينه العام بمقدمة أشار فيها أبو شامة إلى البواعث التي دفعته إلى تأليف كتابـه، وذكـر المصـادر الرئيسية التي اعتمد عليها، ثمّ عقد فصلا خاصا عن الدولة النوريّة يبدو تمهيدي تحدث فيه عـن قضايا عامة لها صلة بنور الدين وصفاته التي اتسم بها، ثمّ يتبع ذلك بفصل جمع فيه الكثير مـن أشعار والمدائح لشعراء عصره، ثم يبدأ بالحديث المفصّل عن عهد نور الدين ويفرد لأصل بيتـه ونشأته ثلاثة فصول قصيرة، ويعود بنا بعدها للحديث عن عماد الدين زنكي وعصره وجهاده حتى وفاته، وحديث أبو شامة عن الدولة النورية يبدو عاطفي مال فيه إلى تمجيد أعمال نـور الدين وخصاله [(2)].

لقد التزم أبو شامة في هذا القسم من كتابه بنظام الحوليات الذي اتبعه غالبية مـؤرخي عصره، وعامل بطله الثاني (صلاح الدين الأيوبي) بنفس الطريقة التي عامل بها نور الدين فعقد فصلا خاصا تحدث فيه عن الصفات الحميدة التي اتسم بها وما جرى معه بالتفصيل، ليختم أبو شامة كتابه بالحديث عن تطورا الأوضاع بعد وفاة صلاح الدين خاصة ما جـرى بـين أولاد صلاح الدين وعمّهم العادل، وهنا لم يلتزم أبو شامة بالتسلسل التاريخي إلا فيما نقلـه عـن (خطفة البارق وعطفة الشارق) للعماد الأصفهاني بحيث يعود للنظام الحولي في اختصار شديد، وبذا تنتهي أحداث الروضتين وتختتم [(3)].

---

(1): نفسـه، ص 16.

(2): أبو شامة، **الروضتين**، ج1، ق1، ص 19.

(3): نفسـه، ص 19.

3- مصـادر أبـي شامـة في الـروضتيـن

تنوع المصادر التي اعتمد عليها أبو شامة في كتابه تبّين قيمة مؤلفه التاريخية ومبلغ دقته في تصوير العصر الذي تعرض له، وبراعته في الاقتباس وقد جعل مهمة معرفة هـذه المصـادر ميسّرة حين ذكرها في مقدمة كتابه ليعيد ذكرها في الجزء الأخير من مؤلفه أيضا.

نجد أن مصدرا هاما اقتبس منه أبو شامة ويعدّ من مصادره الرئيسية غير أنه لم يـذكره بالاسم كما فعل مع المصادر التي اقتبس منها ولو مرّة واحدة وهو السيرة الصلاحية لابـن أبي طيّ الشيعي، ويبدو أن الموقف الرسمي من الشيعة هو الذي حدا بأبي شامة إلى هذا الفعـل، أو أن أبا شامة قام بذلك لسبب شخصي أو مذهبي ولا يمكن أن يكون قد غفل عنه نظرا لأهمية ما نقل، والكم المعتبر من الاقتباسات التي ساهمت في تشكيل مادة كتاب الروضتين[1].

تنوعت المصادر التي اعتمدها أبو شامة في كتابه الروضتين إلى مصادر رئيسية والأخرى ثانوية، تفاوتت في عدد الاقتباسات والأولوية، نظرا لتخصص كل مؤلف بمرحلة زمنية ووحدة موضوعية في الغالب، فكان من بين هذه المصادر الرئيسة ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة بن أسد الدين التميمي (ت 1160/555)، حيث يذكر أبو شامة سرّ اعتماده على هذا الكتـاب فيقول:" شمل قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية"[2]، ويشمل كتاب أبي يعلى حـولي 14 عاما من عهد نور الدين محمود، ففي هذه المدّة يعتمد أبو شامة اعتمادا شبه كليّ على أبي يعلى الذي كان من الرجال الرسميين في دمشق، وليس هناك أولى منه في معرفة تاريخ دمشق في هذه الفترة.

لكونه عاصر فترة الانتقال التي مرّت بها مصر من الحكم الفاطمي إلى الأيـوبي كـان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت 1199/596) من الرجـال الـرسميين في حكومـة الدولتين الفاطمية ثم الأيوبية بمصر، ومن خاصة صلاح الدين يستشيره في كل ما يتعلق بشؤون دولته وحتى أخص شؤونه العائلية حتى قال فيه: " ما فتحت البلاد بالعساكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل"[3]، فلا عجب في أن يتخذ أبو شامة من رسائل[1] القاضي الفاضل مادة معتبرة يعتمد

---

[1]: كل النقول التي يوردها أبو شامة كان يسبقها بـ: قال يحي بن أبي طيء وهي كثيرة، انظر علـى سـبيل المثـال: **الروضتين**، ج1، ق1، ص 86.

[2]: أبو شامة، **الروضتين**، المرجع السابق، ج1، ق1، ص 21.

[3]: نفســه، ص 22.

عليها في كثير من تقريراته عن الأمور التي حدثت في عهد نور الدين، على حين يتعلق بقيمتها بعصر صلاح الدين، وتبلغ هذه الوثائق ستا وتسعين ومائة وثيقة، أورد أبو شامة في الجزء الأول من كتابه الذي ينتهي بنهاية سنة (1178/574) أربعين وثيقة، واقتبس الجـزء الثـاني مـن الكتاب.

ويشارك إلى جانب القاضي الفاضل كمصدر رئيسـي لكتـاب الروضـتين العمـاد الأصفهاني والقاضي بهاء الدين بن شداد، ذلك لأن هؤلاء الثلاثة قاموا في أيام صلاح الـدين على شئون العمل الحكومي والإداري على درجات متفاوتة قربا من صلاح الدين وطـولا في فترة الخدمة، وتعتبر المؤلفات التي كتبها كلّ منهم في المرتبة الأولى مـن الأهميـة، كمصـادر معاصرة محلية، فيقتبس أبو شامة من الرسائل التي كتبها العماد باسم السلطان إلى الولاة ومختلف الجهات، ويقتبس أيضا من الفتح القسي في الفتح القدسي، وكتاب البرق الشـامي، وكتـاب تاريخ دولة آل سلجوق، وخريدة القصر وجريدة العصر، وبعض الرسائل الأخـرى القصـيرة بالإضافة إلى بعض أشعاره المنقولة من ديوانه [2].

أما ابن شداد فيقتبس من مؤلفه الوحيد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، وهو مـن المصادر الرئيسية صغير الحجم إذا ما قورن بالمصادر الأخرى اعتمده أبو شامة خاصة في الفترة التي اتصل فيها بصلاح الدين منذ (1188/584) إلى وفاة صلاح الدين سنة (1193/589) [3].

في أثناء حديث أبي شامة عن الجزيرة وحوادثها يعتمد بشكل كبير على ابن الأثـير في كتابه الباهر في تاريخ أتابكة الموصل الذي يشمل الفترة ما بين (477-1084/607-1210)، ومؤلفه الشهير الكامل في التاريخ ويشمل هذا المؤلف الفترة التي تحدث عنها كتـاب البـاهر

---

[1]: لم يتضح في كون هذه الرسائل هي المتجددات (المياومات) أو أن كل منها مؤلف مستقل، وقد رجح محقق الروضتين محمد حلمي محمد أحمد أن المياومات أو التعليقات أو المتجددات أسماء لمؤلف أو مؤلفات غير المجلدات (الرسائل) الـتي اقتبسها أبو شامة في كتابه، فالمياومات هي كتاب في التاريخ سجل فيه القاضي الفاضل الأعمال التي قام بها وأشرف عليها مدّة رئاسته لديوان الإنشاء **انظر**: **الروضتين**، ج1، ق1، 22/1- 23.

[2]: أبو شامة، **الروضتين**، المرجع السابق، ج1، ق1، ص 26-27.

[3]: نفسـ ـه، ج2، ابتداء من ص 300 إلى نهاية المؤلف.

وكثيرا ما نجد شبها بين الكتابين في العبارات والألفاظ والتقارير مع بعض الزيادات لمحلية الأول وعالمية الثاني[1].

أما ابن أبي طئ فقد نشأ في حلب في وسط شيعي، ويبدو أن لتوجهه هذا مـانع مـن تقلده منصب حكومي، أو التدريس في أحد مدارس حلب ومساجدها، وفقدت كل مؤلفاتـه للسبب نفسه، وقد كتب في عدّة فنون ومن مصادره التاريخية ك الموحدين في سيرة صـلاح الدين، وكتاب معادن الذهب في تاريخ حلب وذيله، وكتاب سيرة ملوك حلب، وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، وكتاب مختار تاريخ المغرب، ولا ندري على وجه التحديد أي هذه المصادر اقتبسه أبو شامة وذلك لتنوع المقتبسات وضياع كل مؤلفاته مما يجعل من الصعوبة بمكان تعيين معرفة المصدر المقتبس منه، وقد اقتبس من كتاب ك الموحدين مـرّة واحدة بالاسم[2].

وهناك مصادر ثانوية اعتمد عليها أبو شامة مرّة أو مرتين في إشارات عابرة، وهي: تاريخ إربل لابن المستوفي الإربلي، وتاريخ حلب لكمال الدين بن العديم، وكتاب المعارف المتأخرة لمحمـد بن عبد الملك الهمذاني، ذيل تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني، تذييل تاريخ ابن الجوزي لابـن القادسي، وتاريخ الغرباء الذين دخلوا مصر لأبي سعيد بن يونس، وسيرة نور الدين لأبي الفتح بن بنجة الأشتري، والنكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية لعمارة اليمني، وكتاب الاعتبـار لأسامة بن منقذ؛ كتاب الوشي المرقوم لضياء الدين بن الأثير الجزري؛ كتاب الإفصاح ليحـي بن هبيرة؛ ومن مصادره الشفوية نجده يذكر أبا الحسن السخاوي، والأمير أبـا الفتـوح ابـن العاضد، والشيخ تاج الدين الكندي[3].

---

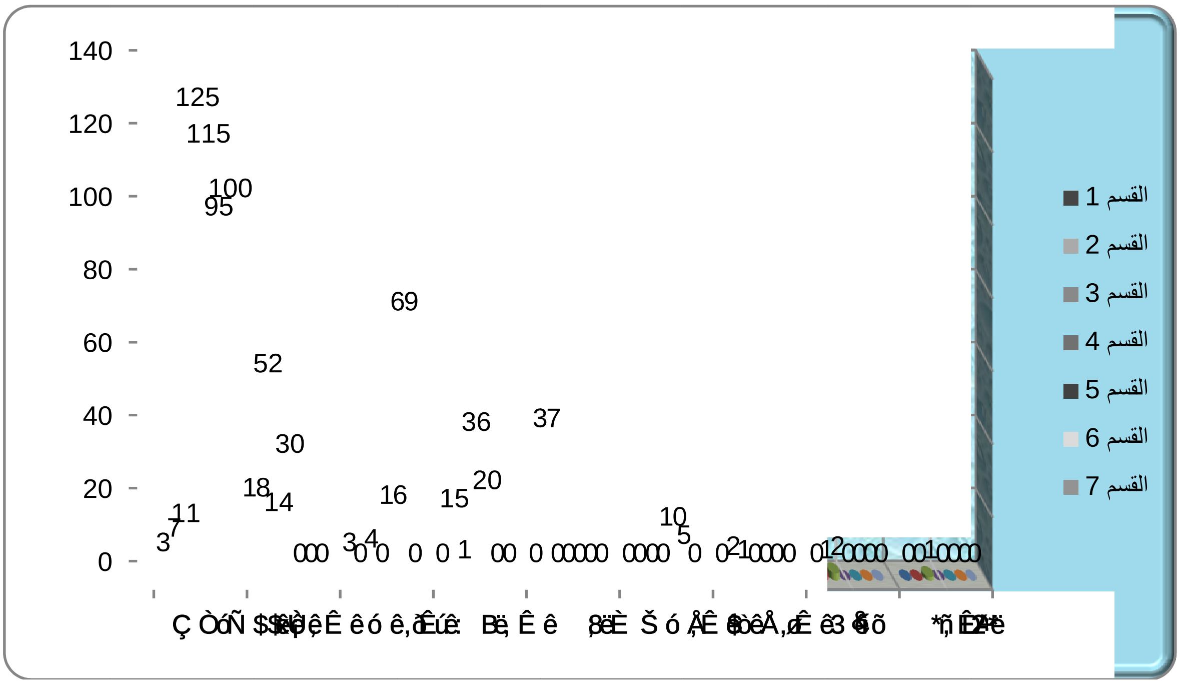
[1]: نفســه، ج1، ق1، ص 84- 89- 222...إلخ.

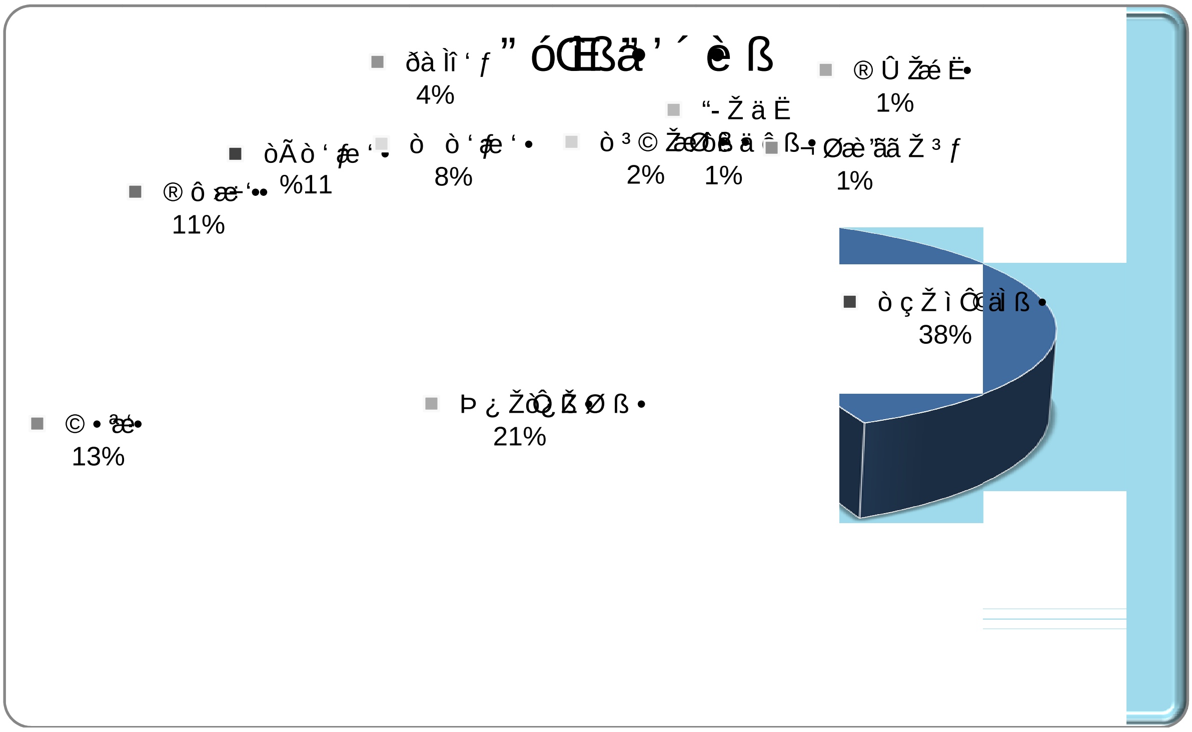
[2]:أبو شامة، **الروضتين**، المرجع السابق، ج1، ق1، ص 31.

[3]: أبو شامة، **الروضتين**، المرجع السابق، ج1، ق1، ص 32.

4- جدول المصادر التي اعتمدها أبو شامة في كتابه الروضتين

المكان	الفترة (القسم)	المؤلف	المصدر	الاقتباسات
- الموصل وأعمالها خاصة وبلاد الشام عامة.	- من أول الكتاب إلى تعيين عماد الدين زنكي بولاية الموصل (1127/521)	- ابن الأثير - ابن شداد -العماد الكاتب	- الكامل و الباهر في تاريخ أتابكة الموصل - السيرة الصلاحية - لم يذكر مؤلفا بعينه	18 - 03 - 03 -
- الموصل ودمشق وحلب (الجزيرة وجنوب الشام، وشماله)	- ولاية زنكي للموصل (1127/521) إلى حوادث (1160/555)	- ابن الأثير - أبو يعلى - ابن أبي طي -العماد الكاتب - ابن عساكر - عمارة اليمني	- تاريخ أتابكة الموصل - ذيل تاريخ دمشق - لا يذكر مؤلفا بعينه. - البرق ومؤلفات أخرى - تاريخ دمشق - النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية	52 - 37 - 15 - 07 - 02 - 01 -
- الجزيرة وبلاد الشام	- من حوادث (1160/555) إلى سنة (1166/562) اتصال العماد بخدمة نور الدين محمود.	- ابن الأثير -العماد الكاتب - ابن شداد - عمارة اليمني -أسامة بن منقذ - ابن عساكر - ابن أبي طيّ	- الكامل و الباهر - البرق ومؤلفات أخرى. - السيرة الصلاحية - النكت العصرية - تاريخ دمشق - الاعتبار - لم يذكر مؤلفا بعينه.	14 - 11 - 04 - 02 - 01 - 01 - 01 -
- فلسطين ومصر ثم الجزيرة وبلاد الشام	- من سنة (1166/562) إلى انتهاء حوادث (1177/573) نهاية الجزء الأول	-العماد الكاتب - ابن أبي طيّ - ابن الأثير	- البرق ومصادر أخرى - لم يحدد المؤلف المقتبس - الكامل والباهر	125 - 36 - 30 -
- مصر والشام وفلسطين	- بداية الجزء الثاني حوادث (1178/574) إلى سنة (1188/584)	-العماد الكاتب - ابن شداد - ابن أبي طيّ - ابن القادسي	- البرق ومصادر أخرى - السيرة الصلاحية -ك الموحدين ومصادر أخ - تاريخه	115 - 16 - 20 - 10 -
- بلاد الشام والجزيرة ومصر	- من سنة (1188/584) إلى سنة (1193/589) وفاة صلاح الدين الأيوبي	-العماد الكاتب - ابن شداد - ابن القادسي	-البرق والفتح - السيرة الصلاحية - تاريخه	95 - 69 - 05 -
- بلاد الشام ومصر والجزيرة	- عهد خلفاء صلاح الدين	-العماد الكاتب	- العتبى والعقبى ونحلة الرحلة وخطفة الشارق.	04 -





½ ¢ ¦ò ºà óå¢ç Â Ï ¢ àñ[¸¡ èÂÏ çýÁ ¼ ¥ ÁÐ ¡? ¨ Ë¢¥ö ¬ ÿ ¡
ö ÿ Â ºú ¾ µ º Ð Å¢ ££Â ¡é ù ¢þ ùÅ ¢ ¦ ® ë ú¡§Á ¾ Ð ¢ë¡ ¡
Z º ¯ ú ¥¡¦ ð Á ¢ ¦þ ô é P¶¡ è¢ ¡? [ô ùr Âþ Å ïÂ¾ ë þ óÃ ÷
Â º ºþ è ù šð½ ¡ ú¾¥Ë Â ÿ ¢ ¡¢[¡è óš` Â ¬¡è¾Â¡» ÿÎ » À ó ¡

خصوصية في الحديث عن أحد بطلي كتاب الروضتين، ويتدرج الترتيب من حيث الكم إلى ابن أبي طيّ الذي كتب مؤلفات متنوعة أظهرت سعة اطلاعه وتفرغه للتأليف، ومن ثمّ نجـد أبـو يعلى الذي اعتمده أو شامة في الشق الأول من الكتاب لأنه أرخ لفترة من حكم الدولة النورية فقط، ثم يتتالى كل من ابن عساكر، وعمارة اليمني وأسامة بن منقذ، ذلـك لأن مؤلفـاتم لم تتناول الفترة بشكل مباشر بل أشارت لبعض الأحداث والوقائع بشكل عرضي.

5- الحنيـن إلى عصـر صـلاح الديـن في كتـاب أبي شامـة

من خلال الجدول نلحظ تركيز أبي شامة في حديثه على جهاد صلاح الدين للإفـرنج، فرغم أهمية المحطات التي مرّ با صلاح الدين والمؤهلة كلها لتكون في محل الصدارة إلا أنه أولى اهتماما بالغا بالجانب العسكري ويمكن تقسيم كتاب الروضتين إلى ثلاث مراحل هي:

المرحلـة الأولـى: [1] وهي تلك الممتدة بين سنتي (564- 1168/569- 1173) ففي هذه المرحلة برز صلاح الدين على الساحة الشامية عقب فتح عمه أسد الدين شـيركوه لمصـر في الحملة الثالثة، حيث يتولى صلاح الدين الوزارة المصرية بعد وفاته عمه، وقد تميزت هذه المرحلة بتوتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين خاصة وأن صلاح الدين لم يحضر إلى الشـوبك والكرك كما أمره بذلك نور الدين، والتأخر الذي كان من جانب صلاح الدين في قطع الخطبة للفاطميين وإعادتا للعباسيين، مما زاد في تعقيد الأمور بين الرجلين وتأزمها، وكاد نور الدين أن يغزو مصر لولا أن عاجله الموت في سنة (1173/569).

المرحلـة الثانيـة: [2] تشـتمل هـذه المرحلـة علـى الفتـرة الممتـدة بـين سـنتي (570و1174/582و1186) ، وفي هذه المرحلة يظهر صلاح الدين كزعيم ويفصـح عـن طموحاته في ضرورة إكمال مسيرة آل زنكي في جهاد الإفرنج، بعزمه على توحيـد الجبهـة الشامية التي أصبحت تعيش في جو مشحون عقب وفاة نور الدين وولاية ابنه الملـك الصـغير الصالح إسماعيل، الذي استفرد دونه الأمراء بتسيير شؤون الدولة وتناسوا جهد نور الدين ومن

---

[1]: يتحدّث أبوشامة عن هذه الفترة فيما يزيد عن المأتا صفحة، بدءا من الصفحة 386 حتى الصفحة 595 مـن الجـزء الأول.

[2]: ويتحدث عن هذه الفترة فيما يقارب مائتي صفحة من الجزء الأول، وفيما يزيد عن مائتي صفحة من الجزء الثاني.

قبله أبوه عماد الدين في استقرار الأمور بالشام، وتمكن صلاح الدين من توحيد مصر والشـام بعد استرجاعه لحلب سنة (1183/579) وأضاف لها إقليم الموصل عقب انتظام الصلح بينـه وبين أصحاب الموصل سنة (1186/582) ، وقد شهدت هذه الفترة بعض المناوشـات- إن صح التعبير- بين السلطان والإفرنج، يمكن اعتبارها جس للنبض وتمهيدا لما هو آت.

المرحلـة الثالثـة: [1] أو مرحلة الجهاد الأعظم وبداية النهاية للتواجد الإفرنجي ببلاد الإسلام، وتمتد هذه الفترة بين سنتي (583- 1187/589- 1192) ، فقد بـدأ السـلطان المواجهـة الحاسمة ضد أمم الإفرنج، وشهدت هذه المرحلة استرجاع السلطان صلاح الدين لجل المعاقـل الإفرنجية وأبرزها القدس الشريف، ولم يقف السلطان عند هذا الحد بل واصل مسيرته الجهاديّة في فتح معاقل أخرى واستكمال مسيرة تطهير الساحل الشامي من الإفرنج، وانتـهت بوفـاة صلاح الدين بعد الصلح مع ريتشارد قلب الأسد.

وتأكيدا لما ذهبنا إليه من تركيز أبي شامة على جهاد صلاح الـدين نـذكر أن سـنة (1187/583) تحتل مكان الصدارة بين السنوات المتناولة في كتاب الروضتين، حيث يتحدث عنها فيما يزايد على مائة صفحة بدءا من الصفحة 247 حتى 377 من الجزء الثاني.

غير أن ذلك لا يعني أنه يهمل سائر الموضوعات أو يقصر في تناولها، فقد حاول أبـو شـامة تسليط الأضواء على كل جوانب حياة السلطان صلاح الدين منذ مسيره في الحملة الثالثة بمعية عمه إلى مصر حتى وفاته، أما ذكره له فيما قبل هذه السنة فلا يعدو أن يكون على سبيل الإلمام بالموضوع أو الحدث ذاته.

لم يكن أبو شامة مؤرخ بلاط، أو قصر أو سلطان، فهو كان يتمتع بكثير من الحرّيـة فيما يدوّن، ولعل ما ساعد أبا شامة على الابتعاد عن الضغوط الرسمية هو أنّه لم يكن يـؤرخ لمعاصريه من ذوي السلطان فشخصيته الثانية وبطلها صلاح الدين توفي قبل أن يولد أبو شـامة بنحو عشر سنوات، وعلى سبيل الافتراض إنّ على أبي شامة مراعاة أبناء وأحفاد صلاح الدين

---

[1]: أما هذه الفترة فقد احتلت أوسع مكان في الروضتين بدءا من الصفحة 247 حتى ناية الكتاب.

الأيوبي الذين لا زالوا أصحاب السلطان في البلاد، لكن هؤلاء الأحفاد كانوا أنفسهم مثلا للتفرقة والخلافات[1].

أبو شامة لم يكتب عن بطليه نور الدين وصلاح الدين إلاّ من أجل هؤلاء محاولة منه لتنبيه هؤلاء الحكام من معاصريه إلى الخطأ الفادح الذي يقعون فيه لعدم امتثالهم سيرة الأب والجد: صلاح الدين وقبله نور الدّين زنكي[2]، وقد استطاع أبو شامة أن يرسم صورة بطليه في الإطار/الدائرة/ الذي اختاره، ويبدأ عند نقطة هامة في الحياة الإسلاميّة يومها وهي السّنّة كانت قاعدة الحياة الأولى وما عداها من الاتجاهات السلاميّة لا يستحق الاهتمام، فالحكم سّني والمدرسة النظاميّة سنّية ومدرسوها سنّيون، ومحتوى التدريس فيها ما تقبله السنة والجماعة، وعندما تمّ القضاء على الشيعة (الإسماعيلية) في مصر لقي قبولا عاما في بلاد الشام والعراق وغيرهما، وربما هذا العمل الذي قام به صلاح الدين في مصر كان أحد الأسباب الرئيسية في أن اختاره أبو شامة بطلا للكتابة عنه [3].

مع أن أبا شامة لم يكتب في الروضتين ومختصره[4] شيئا من عنده سوى بعض الأسطر والتعليقات الصغيرة بين المقتطفات المقتبسة إلا أنه استطاع في مهارة بارعة جدا أن يؤلف كتابا متوازنا كاملا شاملا في تاريخ الفترة بين مطلع العهد النوري حوالي (1145/540) إلى وفاة صلاح الدين (1192/589) وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار محبوكة الرصف بعضها وراء بعض اقتطفها من مختلف المصادر بمنتهى الذكاء والدقة. جاء الكتاب في حوالي تسعمائة وإحدى وستين قطعة مقتبسة أخذت عن اثنين وعشرين مصدرا، وبعض المصادر التي

---

(1): أبو شامة، **عيون الروضتين** في **أخبار الدولتين** (النوريّة والصلاحّية)، ، تحقيق أحمد البسيومي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991، ق1، ص 137.

(2): أبو شامة، **عيون الروضتين،** المصدر السابق، ق1، ص 137.

(3): نفسه، ص 138.

(4): يعتبر كتاب" **عيون الروضتين** في **أخبار الدولتين** (النوريّة والصلاحّية)" مختصر لمؤلفه الكبير " **الروضتين** في **أخبار الدولتين**"، فقد أدرك أبو شامة أن كتابه شامل يحتاج إلى تنقيح وتذيب فقام بتلخيصه إلى كتاب متخصص، والذي لا يختلف من حيث المضمون وكتاب" **الروضتين**"، فعلى وجه التقريب من تحديد نسبة الصفحة الواحدة في كتابه " الروضتين" إلى مثيلها في كتاب " عيون الروضتين"، فنجد أنّها في كتاب "الروضتين" تعادل ضعف مثيلها في كتاب "عيون الروضتين". انظر: **عيون الروضتين**، مقدمة المحقق، ق1، ص 151- 158.

اعتمدها أبو شامة ضائعة وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتمـاد علـى الوثائق وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى، ورغم المقتبسات التي لا تزيد على سطر أو سطرين، وبعضها يمتد صفحات تصل أحيانا إلى سبع وعشرين صفحة فإن أبا شامة واضح الشخصـية والوجود رغم هذه المقتبسات ينقد ويناقش ويضيف ويوضح في منتهى الإيجاز والدقة ويستشهد بما شاهد أو عرف أو سمع أو باللجوء إلى المنطق [1].

ولعل ما يؤخذ على أبي شامة هو اكتفاؤه بنقل المعلومات من مضانا مـع تعليقـات وتحاليل مقتضبة، ويبدو أن السبب في ذلك يتجاوز تملصه من المسؤولية التي لا تنفى عنه، وإنما نضيف تعصبه لشافعيته وصلاح الدين شافعي، ناهيك عن الظروف التي ألف فيها كتابه فلـم يكن يريد أن يذكر أي عثرة لصلاح الدين حتى وإن وجدها، لذا عمل على إبراز- وفي كـثير من الأحيان تضخيم- الجوانب الإيجابية في شخص صلاح الدين و هو ما يتضح من خلال تتبع المؤلفات التي اعتمدها أبو شامة والنظر في اقتباساته التي استوفى فيها المعلومات العامة للواقعة مع أنه ابتعد عن نقل ما يسيء لصلاح الدين وإن فعل فهو لا يخوض فيه، ولا يقدم رأيه أو نظرته.

انتزعت عدالة نور الدين وصلاح الدين إعجاب أبي شامة، ومن جهة أخرى نجـد أن بطليه لم ينتزعا هذا الإعجاب من المواطن الدمشقي لنشاطهما الحربي فحسب، بل للعدالة التي أشاعاها بين النّاس والمكوس التي أزالاها، والمدارس التي نشرا بها العلم بين المواطنين نصـيب في تكوين الصورة الجميلة التي انتزعت إعجاب أبي شامة، فأراد أن يكشف عنها، ولم يمـل أبـو شامة فيما كتبه بعاطفته لصلاح الدين يوسف أكثر ممّا يميل إلى نور الدّين الزنكي، والحقيقة أنّه ساوى بين الشخصيتين ولم يفضّل أحدهما على الآخر، والفارق بين القسم الذي يتحدث فيـه عن نور الدين والقسم الذي خصصه لصلاح الدين هو فارق اقتضته الأحداث وزخمها في عهد الناصر صلاح الدين[2].

لقد نشأ أبو شامة في ظروف صعبة تمثلت في التراجع السياسي والعسـكري للقـوى الإسلامية في مرحلة ما بعد صلاح الدين، فدفعت به إلى استصدار مؤلفه الروضتين وهـو مـا

---

[1]: حسن عاصي، **مؤرخي العرب والإسلام، المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين النورية والصـلاحية**، بـيروت، دار الكتب العلمية، 1991، ص 127- 128.

[2]: أبو شامة، **عيون الروضتين،** المصدر السابق، ص 138.

حاول من خلاله دعوة الحكام إلى اقتفاء أثر بطليه نور الدين وصلاح الدين، لرد الاعتبار للوحدة الإسلامية، والحنين إلى تلك المرحلة التي يعتبرها مثالية إذا ما قورنت بالمراحل التالية لها.

IV- ابن واصل: مؤرّخ الدولة الأيوبية

يعدّ ابن واصل أول المؤرخين الذين كتبوا تاريخا سلالاتي عن الدولة الأيوبية منذ نشأتها، إلى نهايتها وقيام دولة المماليك بعدها، فأبدع في هذا المؤلف الشهير حين أكثر من الاعتماد على الروايات المختلفة المعاصرة للحادثة، وتدخل بنقده مبديا رأيه فيها، وهو ما جعل مؤلفه يلقى القبول عند أكثر المؤرخين الذين تلوه، يضاف إلى ذلك إتقانه اختصار الأحداث دون الإنقاص منها، وقد كسب كفاءته من تفوقه العلمي خاصة في العلوم العقلية، ومعاصرته احتضار الدولة الأيوبية وقربه من أحد سلاطينها ما مكنه من التدقيق في نقل الأحداث والإحاطة بالأخبار.

وبخصوص حياة الناصر صلاح الدين فقد نقل ابن واصل أحداثها من أولها إلى منتهاها بشكل مفصّل معتمدا في ذلك على سابقيه من المؤرخين المعاصرين الذين قارن وفاضل بين رواياتهم في الغالب.

1- ابن واصل: شاهد على نهاية الدولة الأيوبية

ابن واصل، جمال الدين (1208/604-1298/697): فقيه شافعي ومنطقي ومؤرخ وأديب من أهل حماة. هو أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي، ولد في حماة وطاف في بلاد الشام فأقام بالقدس رفقة أبيه سنة (1224/622) [1]، واتصل في مصر بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب، وشهد الحملة الصليبية التاسعة واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك، كما عاصر غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد واتصل بالظاهر بيبرس الذي أرسله سفيراً إلى منفرد بن فريدريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. له مؤلفات كثيرة ضاع معظمها وبقي بعضها مبعثراً في مكتبات مختلفة. من آثاره الباقية: "تجريد الأغاني"، "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" في تاريخ الأيوبيين، و"نخبة الفكر" في المنطق.

---

[1]: ابن واصل، **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، دار الفكر العربي، مقدمة المحقق، ج2، ص 407.

عاصر ابن واصل السلطان الأيوبي المنصور ناصر الدين محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب وله ألف كتاب" مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، وشغل ابن واصل قضاء حماة وكان إماما عالما بعلوم كثيرة خصوصا العقليات مفرطا في الذكاء مداوما على الاشتغال والتفكر في العلم حتى كان يذهل من يجالسه، وصنف مؤلفات كثيرة في الحكمة والمنطق والعروض والطب والأدبيات، توفي بحماة يوم الجمعة (697/1297) [1].

2- مُفرّج الكروب في أخبار بني أيُّوب: تاريخ حولي

لابن واصل مؤلفات كثيرة في الأدب والهندسة وعلم الهيئة والطب والتاريخ، ضاع معظمها وبقي معظمها مبعثرا في مكتبات العالم المختلفة، ولعل أهم مؤلفاته جميعا كتابه التاريخي الكبير" مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" الذي أرخ فيه للدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها في تفصيل واف وتحليل شامل دقيق، وقد اتصل بمعظم ملوكهم في الشام ومصر، وبمعظم أدباء الدولة وعلمائها، والحوادث التي يرويها - خاصة في القسم الثاني- يرويها عن مشاهدة حينا وعن مشاركة فيها حينا آخر، ولهذا كان كتابه الأصل والمرجع الذي أخذ عنه كل المؤرخين اللاحقين له في القرون التالية (الثامن والتاسع والعاشر) عند تأريخهم للدولة الأيوبية [2].

موضوع كتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " كما يتضح من عنوانه ومحتوياته من الجزء الأول إلى الخامس التأريخ لدولة بني أيوب منذ قيامها إلى زوالها، وقد سبق ابن واصل مؤرخون آخرون أرخوا لصدر الدولة وسنواتها الأولى.

وأرّخ للدولة الأيوبية حتى سنواتها الأخيرة ونهايتها من المؤرخين من عاصروا ابن واصل، كسبط ابن الجوزي في: " مرآة الزمان "، وكمال الدين بن العديم في: "بغية الطلب في تاريخ حلب "، وأبو شامة في: " الروضتين في أخبار الدولتين، ومذيل الروضتين "، غير أن ابن واصل بتأريخه لكامل دولة بني أيوب امتاز عن باقي المؤرخين السابقين له والمعاصرين، وذلك لأن بعض هذه الكتب أرخ لبدايات الدولة وتأسيسها، والبعض الآخر لم يقصد مؤلفوه إلى التأريخ

---

[1]: ابن العماد، **شذرات الذهب**، المصدر السابق، 5/438.

[2]: ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، 1/ 4- 5.

لبني أيوب قصدا، وإنما هي تواريخ مدن، أو تواريخ عامة للعالم الإسلامي وما تضـمنته مـن تاريخ بني أيوب هو جزء من كل.

" مفرج الكروب " كتاب ضخم مفصّل، وهو بحق أوفى تاريخ لبني أيوب من حيـث شموليته لأن ابن واصل أفاد من أغلب من كتبوا قبله، وأضاف مشاهداته ورواياته عن المعاصرين الذين شهدوا الحادثة، أما الذين أرخوا للدولة الأيوبية بعده فقد نقلوا عنه واعتبر مفرج الكروب أصل رواياتم لمعاصرته ونقل الأحداث مفصلة تفصيلا. نذكر منهم على سبيل المثال مؤلـف مجهول عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي وعنوان كتابه: "غاية المطلـوب في تاريخ بني أيوب " وهو مفقود يوجد ملخص له " تاريخ نزهة الناظر وراحة الخاطر "، وهـو مجهول أيضا اعتمد فيه صاحبه على ابن واصل، والمؤلف الأخر هو للقاضي أبو البركات أحمـد بن إبراهيم الكناني العسقلاني القاهري (ت 1471/876) أخذ عن المقريزي والعيني، وعنـوان كتابه "شفاء القلوب في مناقب بني أيوب "، يختلف في منهجه عن ابن واصل لأنه جعل كتابـه كتاب تراجم لا حوليات، فقد قسم ملوك بني أيوب طبقات وترجم لهم، وقد اعتمد في ذلـك اعتمادا كبيرا على ابن واصل [1].

لا شك في أن مفرج الكروب هو أكبر مؤلف والأسبق في التأريخ للدولة الأيوبية منـذ قيامها إلى زوالها، غير أنّ ما يختص بأخبار الناصر صلاح الدين لا يعدوا أن يكون ابن واصـل ناقلا غير شاهد على ما حدث وهذا ما يدعونا إلى اعتبار مفرج الكروب مصدرا تاليـا مـن حيث القيمة التاريخية للمصادر التي دونت فيها حياة الناصر صلاح الدين من وحي المشـاهدة ومعايشة الأحداث.

ذكر كتاب ابن واصل: مفرج الكروب، كارل بروكلمان في: " تاريخ الأدب العـربي "[2] تحت عنوان، " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب "، وهو العنوان الذي ذكره ابن واصل في مقدمة كتابه، وعرف في بعض المؤلفات الحديثة باسم " تاريخ الواصلين ".

بدأ ابن واصل في الجزء الأول من تاريخه الكبير الحديث عن نسب الأيوبيين ونقل مختلف الآراء منها ادعاء بعضهم عروبة الأيوبيين، وقد اعتمد على سيرة ابن هشام فيما أورده، أما ما

---

(1): ابن واصل، **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**، المصدر السابق، 6/1.

(2): كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف، 33/6.

تلا ذلك من تاريخ الدولة النورية وأخبار نجم الدين أيوب، وأخيه أسد الدين شـيركوه، فلـم يصرّح بالمصدر الذي نقل عنه والظاهر أنه اعتمد على الكامل لابن الأثير الجـزري كمصـدر رئيسي بحكم قربه من هذه الدولة واهتمامه بذكر أدق تفاصيل تاريخها [1]، ومؤرخ آخر ذكره دون أن يسمي مؤلفه وهو مؤيد الدولة سرير بن الأنباري (ت 1163/558)، وقد قـرر ابـن واصل في ذكره للأحداث منهجا يضمن له الاطلاع على روايات متعددة والجمع بينـها مـن خلال النقل المختصر والمفصل من مصادر عديدة في الحادثة الواحدة دون أن يصرح في الغالب بالمصدر الذي ينقل عنه، بحيث لم يكن يقتنع بالرواية الواحدة حتى لو كان راويها أبوه نفسـه، بل كان يقارن بين روايات المؤرخين المختلفين كلما وجد خلافا بين هذه الروايات [2].

سلك ابن واصل مسلك سابقيه من الذين أرخوا للأيوبيين عندما يذكر بداية السنة وما جرى فيها من أحداث على سبيل المنهج الحولي، وينفرد عن سابقيه من المؤرخين عند سـوق أخبار مدينة حماة بتفصيلات لم ترد عند مؤرخ آخر لأن حماة مسقط رأسه، وقـد لاحظنـا عنايته الدائمة بذكر تاريخها مفصلا كلما سمحت له الفرصة لذلك [3].

خدم المؤلف السلطان المنصور (1244/642- 1284/683)، والذي عيّنـه قاضـي قضاة حماة وله ألف هذا الكتاب، وقد أتبع ذكره بدعاء «خلد الله دولته» ومنه نستبين أن هذا الجزء من الكتاب كتب بعد سنة (1244/642) وهي السنة التي ولي فيها المنصور الثاني حكم حماة [4].

ونجد نصا آخر يشير إلى أن المؤلف كان يكتب هـذا الجـزء (الأول) مـن الكتـاب سـنة (1263/662)[5]، ثم في سنة (1264/663) [6]، أما النص الذي يقطع فيه كل الشّك قوله أنه بدأ يؤلف كتابه في سنة (1272/671) للسلطان المنصور:« فقد مضى من مدّة ملكه وملـك آبائه إلى يوم تأليف هذا الكتاب، وهو سنة إحدى وسبعين وستمائة نحو من سبعة وتسعين سنة

---

[1]: ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، ص 12 إلى 18.

[2]: ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، 75/1.

[3]: نفسـه، 42/1.

[4]: نفسـه، 113/1.

[5]: نفسـه، 35/2.

[6]: نفسـه، 413/2.

[1]، ويشير نص آخر إلى كتابة هذا الجزء بعـد تـولي قـلاوون الحكـم أي بعـد سـنة (1279/678) [2]. وفي ثاني تصريح له بمصادره يذكر ابن واصل قول باء الدين بن شداد في حملة شيركوه على مصر، وينفرد بإشارته إلى ميل أهل الإسكندرية إلى أهل السنة وهو ما جعله يختصر الحديث عن استبسال أهلها في مواجهة الفرنج وشاور بقيادة صـلاح الـدين نتيجـة التقارب المذهبي الحاصل [3].

عند حديث ابن واصل عن إربل يصل إلى امتلاك الخليفة المستعصم لها ثم أخذها مـن طرف التتر وهذا يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء (الثاني) من كتابـه بعـد سـنة (1257/656) وهي السنة التي استولى فيها هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم، وأخذ إربل [4].

لجأ ابن واصل إلى نقل المناشير والرسائل مختصرة وكان يعرض عن ذكرها كلها لطولها، وتعامل بنفس المنهج مع القصائد والأشعار، وواصل نقله عن ابن الأثير وابن شداد وأضـاف العماد في أخبار وزارة صلاح الدين بمصر[5]، واعتمد على صديقه الحميم حسام الدين بن أبي على من كبار قواد الدولة في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب في نقل الكثير من أسـرار الدولة خاصة في عهد هذا السلطان[6]، وحول وفاة العاضد ينقل عن صاحب الروضتين أبـو شامة ويشير إلى مؤلفه التاريخ الكبير، وقد ألف ابن واصل مؤلفين اثـنين: أحـدهما مفـرج الكروب هذا، والثاني ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب وسّماه" التاريخ الصالحي"[7] لأنه كان ينوي تقديمه إليه، وهو تاريخ عام أرّخ فيه للعالم الإسلامي منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم- إلى سنة (1239/637) وهي السنة التي تولى فيها الصالح عرش مصر[8].

---

(1): نفسـه، 75/2.

(2): نفسـه، 127/2.

(3): ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، 152/1.

(4): نفسـه، 145/1.

(5): نفسـه، 165/1.

(6): نفسـه، 12/1 إلى 18.

(7): **انظر**: كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، المرجع السابق، 33/6.

(8): ابن واصل، المصدر السابق، 202/1- 204- 211.

خصص ابن واصل كامل الجزء الثاني من مؤلفه لحياة صلاح الدين (569/1174-589/1193) أي من وفاة نور الدين محمود واستقلال الناصر بمصر وهو الجزء الأكبر والأضخم من بين أجزاء كتابه المشكل من خمسة أجزاء في تاريخ الأيوبيين، وتتحدد دولة صلاح الدين في كل من بلاد مصر والشام والجزيرة وبرقة واليمن وبلاد العرب، وقد تضمن هذا التاريخ فصولا كثيرة منها فصول عن بقايا البيت الزنكي في حلب والموصل ونزاعهم مع صلاح الدين، وفصول عن اليمن وحكامه من البيت الأيوبي وأحواله الداخلية وعلاقاته بمصر، وأخبار عن حملات تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين في برقة وجهة المغرب وموقف صلاح الدين من ذلك، إضافة إلى الإشارات الكثيرة للخلافة العباسية التي تظهر علاقتها مع صلاح الدين والفتور الذي شهدته في عصره.

أشار ابن واصل في هذا الجزء إلى الرسائل التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ونقل بعضها بنصها الكامل أو المختصر في أكثر الأحوال، والرسائل التي بعثها للخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يسأله المدد بمختلف رواياتا، وأشار أيضا إلى العلاقة الطيبة التي قامت بين صلاح الدين وإمبراطور بيزنطة الذي أقام له الخطبة بالمسجد الذي ببلاده، وفي المقابل تحدث عن العداء والخصومة بين صلاح الدين والإمارات الصليبية وملوك أوربا الذين قادوا الحملة الصليبية الثالثة.

اختص ابن واصل بدقته في ذكر المناطق والأماكن وكان كتابه يحوي إشارات هائلة للمنشآت والعمائر والمباني في مختلف المدن التي يتربع عليها سلطان صلاح الدين، وهذا المؤلف سجل قيّم لدراسة حياة كبار رجال دولة صلاح الدين، والحملات العسكرية التي قادها السلطان رفقتهم أو تحت إشرافه، وتميز ابن واصل في وصفه الدقيق للأسلحة وأسمائها وأشكالها عند كل من المسلمين والصليبيين، كما ركز في مؤلفه على الشام خاصة مدنه الكبرى كحلب وحمص والقدس وبعلبك وحماة مدينته التي ولده فيها ونشأ، وانفرد بقوله أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله كان شيعيا بعكس ولده وولي عهده أبا نصر محمد [(1)]، وتحدث عن كثرة الوفود التي شاركت في الحملة الصليبية الثالثة بسبب تعدد لغاتم وصعوبة استجوابم من طرف

[(1)]: ابن واصل، **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**، المصدر السابق، ج2، ص 181.

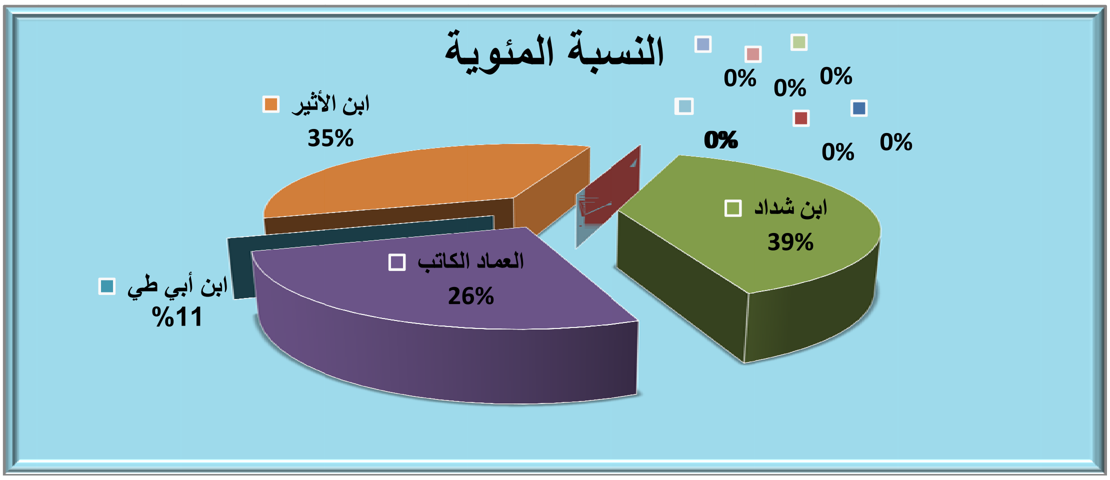
جنود صلاح الدين، وأشار إشارات قيّمة للجيش والأسطول في عصر صلاح الـدين، وأدوات القتال عند الفريقين.

3- مصـادر ابـن واصـل فـي مفـرج الكـروب

لم يكن ابن واصل معاصرا لحوادث الجزء الثاني المتمثلة في أخبار صلاح الدين فنقل عن غيره من مصادر قليلة ومحدودة صرح ابن واصل بالنقل عنها، وهي مصادر معاصرة للحادثة لها أهميتها وقد جاءت مرتبة كالتالي:

المؤلف	المـوضـوع	المرحلة الزمنيـة	الاقتباس
	- مخالفة ابن شداد لأمراء صلاح الدين حول قتال نور الدين.	- حوادث سنة(1179/575) -	
	- دخول صلاح الدين بلاد الأرمن.	" " " " "	
	- إرسال عز الدين صاحب الموصل الرسل للخليفة العباسي لبحـث الصلح مع صلاح الدين.	- حوادث سنة (1180/576)	
	- وقوع الصلح بين المواصلة وصلاح الدين.	- حوادث سنة (1185/581)	
ابن شداد (النـوادر السلطانية)	- أسرى حطين.	- " " " " "	
	- فتح حصن أنطرسوس.	- " " " " " "	
	- فتح حصن دربساك.	- حوادث سنة (1186/582)	
	- حديث عن المركيس صاحب صور.	- حوادث سنة (1188/584)	أكثر مـن 23
	- حصار عكا	- " " " " " "	
	- خسائر حرب عكا	- " " " " " "	
	- انتقال صلاح الدين إلى الخرّوبة وانتظار قدوم العادل من مصر.	-حوادث سنة (1189/585)	
	- رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة العباسي يخبره بقدوم ملك الألمان لحربه، ويكاتب ملوك الأطراف للقتال.	- " " " " " "	
	- ما جرى لجيش الألمان بعد موت ملكهم.		
	- رغبة العساكر الإسلامية في العودة لبلادهم.	- " " " " "	
	- هدم عسقلان من طرف صلاح الدين.	- حوادث سنة (1190/586)	
	- تحضير صلاح الدين لجيشه من اجل قتال الفرنج لمنعهم من حصار القدس.	- " " " " " - " " " " " "	
	- رجوع الفرنج عن حصار القدس.		
	- صلح صلاح الدين مع الفرنج وعقد الهدنة.	- " " " " " "	
	- حديث عن رأي ابن شداد في الصلح	- " " " " "	
	- رحيل السلطان إلى القدس.	- حوادث سنة (1190/587)	
	- خدمة ابن شداد للسلطان ولقاء الحجاج وأسفه على تضييع الحج.	- " " " " " "	
	- وفاة السلطان وتغسيله وتكفينه ودفنه.	- حوادث سنة(1191/588)	
		- حوادث سنة(1192/589)	
	- وفاة نور الدين محمود زنكي.	- حوادث سنة (1173/569)	

- العماد الكاتب (البرق الشامي)	- اجتماع الحلبيين لأجل قتال صلاح الدين. - بناء السور الدائر على مصر والشام. - سفر صلاح الدين إلى الإسكندرية. - مرض صلاح الدين أثناء حصار الموصل. - وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه. - عدد قتلى وأسرى الفرنج في حطين. - انفاق صلاح الدين لأموال كثيرة في حصار صور. - فتنة عرفة بين أصحاب الخليفة العباسي والسلطان صلاح الدين. - بناء السور وعمارة عكا من طرف باء الدين قراقوش. - فتح حصن صهيون. - وصف المنهزمين بعكا. - حديث عن المستشهدين بعكا. - غضب ابن الشهرزوري بسبب إرسال باء الدين بن شداد رسولا إلى الخليفة العباسي دون إرساله هو. - محاولة السلطان مكافأة الشباب الذين أحرقوا أبراج الفرنج. - كرم السلطان صلاح الدين وعطاياه. - وصف بديع للسلطان صلاح الدين.	- حوادث سنة (1175/571) - حوادث سنة (1176/572) - حوادث سنة (1179/575) - حوادث سنة (1185/581) - " " " " " " - حوادث سنة (1186/582) - حوادث سنة (1187/583) - حوادث سنة (1188/584) - حوادث سنة (1188/584) - " " " " " " " - حوادث سنة (1189/585) - " " " " " - " " " " " - حوادث سنة (1190/586) - حوادث سنة (1192/589) - " " " " "	أكثر مـن 31
- ابن الأثير (الكامل والباهر)	- انزام عسكر الموصل وحلب أمام صلاح الدين. - حصار بعلبك. - نبذة عن سيرة الخليفة المستضيئ. - بيعة الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. - الحرب بين قلج أرسلان صاحب قونية وصلاح الدين. - رغبة صاحب سنجار عماد الدين في الاستيلاء على حلب. - وصية سليمان بن جندر لصلاح الدين بتولية أولاده في حياته. - وقعة حطين. - استيلاء السلطان على بيروت. - فتح القدس.	- حوادث سنة (1175/571) - حوادث سنة (1178/574) - حوادث سنة (1179/575) - " " " " " " - " " " " " " - حوادث سنة (1180/576) - حوادث سنة (1186/582) - " " " " " " - " " " " " " - حوادث سنة (1187/583)	أكثر مـن 34



احتلت السيرة اليوسفية لابن شداد المرتبة الأولى بالنسبة للمصادر التي استقى منها ابـن واصل معلوماته، وركز على نقل شهادات ابن شداد على مختلف الحوادث التي رافـق فيهـا السلطان بعد الاتصال به سنة (1188/584)، وهي نقول تصل إلى أسطر قليلـة في بعـض المواضع، وتتجاوز الصفحتين في مواضع أخرى، إلى جانب معلومات من مصـادر اعتمـدها، وهذا ما يعكس تدخل ابن واصل في الأخذ من أكثر من مصدر في الحادثة الواحدة وتدوين ما يراه صحيحا بعد المقارنة والتحليل.

حلّ البرق الشامي للعماد الأصفهاني الكاتب في المرتبة الثانية، وقد اعتمده ابن واصـل منذ وصول صلاح الدين للوزارة بمصر إلى وفاته لأنه يغطي تقريبا كامل حياة صلاح الدين عن قرب ومشاهدة، وبخصوص الأحداث المتعلقة بأخبار الدولة النورية وأيام صلاح الـدين الأولى فقد ركز ابن واصل النقل على ابن الأثير في مؤلفيه على ما يبدو "الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية"، وكان عند نقله عن هذه المصادر يقول: قال، أو حكى ثم يورد القول، لكن الكمّ الأكبر من المعلومات لم يصرح بالمصدر الذي نقل عنه، ويبدو أنه مزج بين مصـادر كثيرة اكتفى ابن واصل بالتصريح ببعضها لاقتباسه نصوصا كاملة منها دون تغيير، ولم يصرح بالمصادر الأخرى التي اعتمدها وشكلت مادته التاريخية المميزة.

4- صلاح الدين: شخصية مُكتملة الجوانب

نج ابن واصل منهج النقد والمقارنة والمفاضلة بين النصوص، واختيار الأفضل والأوثق، بحيث أنه لا ينقل أخبار الحادثة الواحدة عن مرجع واحد بل ينقل سطورا عن مرجع ويتبعها بأخرى من مرجع آخر، ثم مرجع ثالث ورابع، ويقارن النصوص ويشير إلى الفروق بين المؤرخين، ويأخذ بالرأي الذي يراه صحيحا [1].

هذا الجزء (الثاني) مليء بالمقطوعات الشعرية للشعراء المعاصرين من أمثال العماد الأصفهاني، وعلي بن مفرج المنجم المصري، وأبي علي الحسن بن علي الجويني، وبهاء الدين أبي الحسن علي بن الساعاتي، وسبط بن التعاويذي، وابن سناء الملك وغيرهم، وقد خالف ابن واصل أبا شامة في الأبيات المقتبسة من القصيدة من حيث عدد الأبيات وأنواعها، كما تضمن هذا الجزء (الثاني) عددا كبيرا من الوثائق الرسمية، معظمها بقلم الفاضل أو العماد الكاتب بين صلاح الدين والخلافة العباسية، وإخوته في مصر واليمن، وبينه وبين أفراد البيت الأيوبي وإمبراطورية بيزنطة، والخليفة الموحدي. نقل هذه الوثائق بنصها كلها في مواضع واقتبس منها فقرات هامة في مواضع أخرى، وحوى هذا الجزء أيضا مصطلحات إدارية وحربية واجتماعية كثيرة كانت مستعملة في ذلك العصر [2]، وحديثا مقتضبا عن الوفيات من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يذكر شيئا من سيرتم بعد وفاتم [3].

لا شك في أن ابن واصل قد أفلح في رسم صورة واضحة لصلاح الدين المجاهد، والإنسان، والزاهد المتعبد، والمحصل للعلم، والراعي للعلم والعلماء، ومع أنه لم يكن شاهدا على حياته والأحداث التي جرت معه، إلا أنه أعجب بجهوده وبشخصه حين قال:" فرحم الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين، وشكر سعيه، فما كان أشدّ ذبّه وقيامه بنصرة الدين" [4]، وفي موضع آخر لمّا اغرورقت عيناه لنصيحة الفاضل " فمثل هذا فليكن السلطان، ومثل القاضي الفاضل فليكن الوزير المشير، فرحمهما الله وقدّس أرواحهما " [5]، كما ساهم اختياره الموفق

---

[1]: ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، مقدمة المحقق، 04/2.

[2]: نفسه، 8/2.

[3]: نفسه، ص 165.

[4]: نفسه، ص 274.

[5]:ابن واصل، **مفرج الكروب**، المصدر السابق، ص 277.

للمصادر القريبة من الحدث والمعاصرة له، والأخذ منها بعد المقارنة والمفاضلة، واعتماده أسلوبا سهلا، ودقة في ذكر المواقع والأماكن والوسائل المستعملة في الحرب، والمفاوضات بين السلطان الناصر والفرنج، في جعل مؤلفه يلقى اعتمادا كبيرا عند المؤرخين اللاحقين، الـذين أرخـوا للأيوبيين عامة ولصلاح الدين على وجه الخصوص.

خـــاتمـــــة :

إنّ موضوع الكتابة التاريخية بوجه عام من المواضيع الشائكة التي تُبنى علـى مـوروث معرفي وارد في صورة ذاكرة جماعية وعلى خلفيات إيديولوجية تتطلب دراسـتها جملـة مـن المقاربات لاستجلاء غوامضها والغوص في دقائقها بمعرفة وسـائلها وأشـكالها، وأسـاليبها وطرائقها، والعوامل التي تحكمت في توجيهها وتباينها، والأهداف المنشودة من ورائها، لكشف ما يبدو أنّه مقدّسًا وثابتًا رسمت ملامحه الكتابة التراثية.

لا يختلف بحث الكتابة التاريخية حول الشخصيات التي تبدو مهمّة من الناحية التاريخيـة كصلاح الدين الأيوبي مع المقاربات السابقة للكتابة التاريخية العامة، وقد تبّين لي في بحثيَ هـذا أنّ التاريخ من خلال النماذج المدروسة لم يكنُ يكتب من طرف بعض المـؤرخين بموضـوعية واحترافية من حيث الالتزام بمقتضيات الكتابة التاريخية وشروطها، بل كانُ يكتب تعبيرًا عـن ميولات وأهواء مستندة إلى ظروف خاصة ميزتا.

لم تتخلص الكتابة التاريخية العربية حول صلاح الدين الأيوبي في القرنين (6-7هـ/12-13م) من نتائج المغالبة السياسية والمذهبية، فالمؤرخ العربي المسلم لم تكن تخونه - حقا - الآلية الموضوعية في الكتابة التاريخية بقدر ما كان ضحية لـ اعات سياسية ومذهبية وربما إثنية، وهو ما يدعونا إلى إعادة النظر في الكتابة التاريخية حول صلاح الدين الأيوبي بعيدا عن مؤثرات فن الملل والنحل لتحرّ الصواب، وإظهار ما وجد فيها من إبام وغموض.

تعتبر الكتابة التاريخية حول صلاح الدين الأيـوبي في القـرنين (6-7هـ ـ/12-13م) محدودة للغاية، وعند عدد قليل من المؤرخين ُعد المعاصرون منهم من قـرر صـورته ورسـم معالمها، لأنم كتبوا من موقع المشاهد والقريب من الأحداث، ومن جاءوا بعدهم أضافوا بعض الأخبار وأبدوا بعض الآراء والنقد من خلال انتقائهم للروايات الواردة في المصـادر المعاصـرة لصلاح الدين، أما ما تلا هؤلاء من المؤرخين فلا يعدو أن يكون ناقلا عن كتاباتم.

عن طريق دراسة المصادر التي أرخت لصلاح الدين خلصت إلى أن كتابات المـؤرخين الأولى في القرن (6هـ ـ/12م) لم تكن متخصصة، كما لم يقصد بعض مؤلفيها التأريخ لصلاح الدين، فابن القلانسي كان كتابه أول المصادر العربية عن الحروب الصليبية، وسيرة نور الـدين محمود الذي تربى صلاح الدين في كنفه ونشأ، بحيث تعرض للمجال المكاني الذي أنشأ عليـه صلاح الدين دولته، دون أن يأتيَ على الإشارة إليه بالرغم من معاصرته لطفولتـه، وإحاطتـه

بالأسرار السياسية والإدارية عند توليه رئاسة ديوان دمشق زمن الزنكيين، في حـين اسـتطاع المؤلف المجهول صاحب "البستان الجامع" تغطية كامل الفترة التي عاشها صلاح الدين غير أنه لم يُقدّم رؤية واضحة يرقى من خلالها إلى مستوى المؤرخ الناقد، وجمع المنصور محمد أحد الملوك الأيوبيين مادة تاريخية عن صلاح الدين أحاطت بالكثير من زوايا حياة السلطان وأمرائه، لكنّها لم تشمل حياة الناصر ككل وتغاضت عن التعرض للكثير من الأحداث التي أشارت لأخطـاء صلاح الدين في التقدير، أمّا الرحّالة ابن جبير فدوّن معلومات وجيزة عن صلاح الدين أظهـر فيها إعجاب الوافد بالحاكم الذي أحسن استقبال الوافدين المغاربة أبناء بلاده، ورفـع عنـهم المكوس، فأدرجت كتابته ضمن مشاهدات الطريق وإقامته في مصر.

الكتابات المتخصصة كان أصحابها المؤرخون المعاصرون والمرافقون لصلاح الدين وهم من قرر صورته ورسم ملامحها، ومن جاء بعدهم لم يضف إلى ما نقلوه شـيئا إلا مـا تعلـق بالشرح والاختصار أو الجمع بين روايات المؤرخين واعتماد مصادر مفقودة عاصرت صـلاح الدين، كما فعل أبو شامة في مؤلفه " الروضتين في أخبار الدولتين "، وابن واصل " في مفـرج الكروب في أخبار بني أيوب".

لا شك أن معاصرة المؤرخ لأحداث زمانه تطبع روايته التاريخية بطابع الصدق والدقّة، فالمؤرخ الذي يعيش في زمن قريب من الزمن الذي دارت فيه الأحداث التي يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بألوانها الحقيقية، ذلك لأنّ الكتابـة التاريخيـة المعاصرة لزمن الأحداث تعتمد كثيرا على المعاينة والمشاهدة والسماع ومن مصادر متنوعة، وقد نجح المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين في بلورة ملامح صورته، واستطاعوا الإحاطة بكلّ مـا جرى معه، وأبدعوا في وصفه ونقل أخباره جيّدها وسيّئها في حلّه وترحاله.

غير أنّ غالبيتهم انحازوا للسلطان وتزلفوا إليه بغرض الدعاية، ولم تكشـف كتابـاتهم الستار عن كلّ ما يسيء لصلاح الدين بوجه من الوجوه، فرئيس ديوانه بعد القاضي الفاضـل العماد الأصفهاني الذي عرف بالكاتب لاشتغاله الكامل بها، وبراعته الأدبية التي جارى فيهـا سيّده القاضي الفاضل ونافسه، كان الأكثر انحيازا للسلطان وملازمة له، حيث شكّلت كتابته التاريخية " البرق الشامي" و" الفتح القسّي " المصدر الرئيسي الأولّ لحياة صلاح الدين. هذا ما أثبته عملي وأكدته منتخبات أبي شامة باحتلاله الصدارة في عدد الاقتباسـات بنسـبة 38%، يعقبه الوزير الأوّل والأنا الآخر لصلاح الدين القاضي الفاضل الذي رأى في السلطان الحـاكم

المستحق للرئاسة دون غيره من أقرانه، وأيّد كلّ ما ذهب إليه، بل كان صاحب قرار وسـلطة إلى جانبه، ولا يعدل السلطان عن رأيه في أكثر أحواله.

التحق ابن شداد بصلاح الدين متأخرا سنة (1188/584)، وشغل قاضـي عسـكره وابتداءا من هذا العام يحتل مؤلف ابن شداد السيرة اليوسفية المرتبة الأولى في تتبع أخبار صلاح الدين.

مع أن بهاء الدين بن شداد رأى في صلاح الدين مثلا أعلى للحـاكم المسـلم الملتـزم بعقيدته والمنصرف للجهاد، فإنّه لم يخترع شخصية بطله أو حاول صقل صورته، بل حنّ كثيرا له ولإنجازاته خاصة لمّا عايش صراعات خلفائه من أبنائه وغيرهم، فتمنى عودة تلك الأيام الـتي قضاها رفقة قائده المفضل.

في حين خالف الإخباري ابن الأثير الجزري ما ذهب إليه معاصروه من التقرب لصلاح الدين، وأيّد سياسات مناوئيه الزنكيين الذين نشأ في كنفهم مع عائلته، وساهم في تشويه صورة صلاح الدين من خلال اتهامات وجهها له، وتوظيفه بعض الأخطاء وقيامه بقلـب الروايـات وطبعها بالطابع الذي يرضيه ويخدم سادته آل زنكي. أمّا المؤرخ الشيعي ابن أبي طيـئ الـذي فقدت جُلّ مؤلفاته بسبب تشيعه، وبقي منها ما نقله أبو شامة من منتخبات في كتابـه، قـد أنصف صلاح الدين وخصه بمؤلف " ك الموحدين في سيرة صلاح الدين" الذي لم يذكر فيـه ما يسيء له، بل مال إلى مدحه وتمجيده أحيانا.

يندرج ضمن فترة ما بعد المؤرخين المعاصرين (7هـ/13م) كلّ من المؤرخ الحلبي ابـن العديم الذي درسته من خلال مؤلفه" زبدة الحلب في تاريخ حلب"، وتعرض لحياة صلاح الدين في موسوعته" بغية الطلب في تاريخ حلب" والتي تعذر علي دراستها وتحليل أخبارها. يلي ابـن العديم نوع آخر من الكتابة التاريخية وهو كتاب تراجم لابن خلّكان" الوفيات" الذي ترجم فيه للسلطان، وأطال في ذلك معتمدا على شيخيه القاضي بهاء الدين بن شداد، وابن الأثير الجزري بعد المقارنة بين أخبارهما دون أن يضيف شيئا من عنده، أو من مصادر أخرى.

كتب المؤرخ الموسوعي الجامع أبو شامة مؤلفاً سلالاتي مع أنّه لم يكتب فيه شيئا مـن عنده سوى بعض الأسطر والتعليقات الصغيرة بين المقتطفات المقتبسة، إلا أنه استطاع في مهارة بارعة أن يؤلّف كتابا متوازنا كاملا شاملا، أحاط فيه بحياة صلاح الدين عـن طريـق جمـع مقتطفات ومنتخبات حسنة الاختيار، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة لصلاح الدين الـتي

وصلتنا والمفقود منها، بمنتهى الذكاء والدقّة، وصرح في مؤلفه غير مرّة أنه فعل ذلك لأجل أن يقتديَ خلفاء صلاح الدين من الحكام الأيوبيين اللذين عاصرهم ببطليه نور الـدين محمـود، وصلاح الدين الأيوبي اللذين وجد في سيرتما عزّ الأمة وقوتا، فحّن لهم ولمرحلتـهم نظـير صنيعهم. أردف أبو شامة في طريقة تأليفه ولو بصورة عامة ابن واصل الحموي الذي كان لـه فضل السبق في تخصيص مؤلف للدولة الأيوبية منذ بدايتها إلى منتهاها، واحتلت سيرة صـلاح الدين في موسوعته مجالا واسعا اعتمد في خطّها على مصادر مختلفة أبان من خلالها براعة في نقد الروايات، والجمع بينها، وأظهر إعجابه بصلاح الدين نتيجة دفاعه عن المقدسات الإسلامية.

وفي الختام يمكن القول أن سيرة صلاح الدين وصورته المقررة اليوم صنعها ثلـة مـن المؤرخين الذين عاصروه وهم: كاتبه العماد الأصفهاني، ووزيره الأول القاضي الفاضل، وقاضي عسكره بهاء الدين بن شداد الموصلي، ومؤيد منافسيه في الحكم ابن الأثير الجزري، والمـؤرخ الإسماعيلي الموسوعي ابن أبي طيء، وأبو شامة وابن واصل من خلال منتخباتم الـتي حـوت روايات مصادر مفقودة، فبعض هؤلاء المؤرخون شهدوا ما جرى مع صلاح الدين عن قـرب ومشاركة أو مرافقة له، لذا كانوا الأقرب إلى الأحداث، ولأدرى بما جرى معه، والأكفأ مـن حيث المكانة العلمية لضبط أخباره في مؤلفات تناقلها الأجيال، مع اختلاف رؤيتهم بين مؤيد ومادح، ومعجب افتتن بالسلطان، وبين معارض مؤيد لسياسات منافسيه.

وهنا يمكننا ترتيب المصادر التي قررت صورة صلاح الدين عبر المراحل المختلفة لحياته:

أ- النصوص الأصلّية لعماد الدين الأصفهاني، الأجزاء الموجودة من كتاب البرق الشامي، الجزء الثالث (573- 1177/574- 1178)، والجزء الخـامس (578- 1182/579- 1183)، وابتداءا من سنة (1187/583) إلى سنة (1192/589)كتاب الفتح القسي.

ب- سيرة صلاح الدين الأيوبي التي وضعها بهاء الـدين بـن شـداد ابتـداءا مـن سـنة (1188/584).

جـ - وبالنسبة للسنوات الباقية أي من (1169/565) إلى (1176/572)، ومن منتصـف (1180/576) إلى (1182/578)، ومن منتصف (1184/580) إلى مطلـع (1187/583) تأتي الملخصات التي قام بها أبو شامة عن عماد الدين الأصفهاني، وأدرجها في كتابه "الروضتين" وملخصه "عيون الروضتين"، وتكمّلها المنتخبات من ابن أبي طيء.

د- "الكامل في التاريخ" لابن الأثير الجزري ابتداءا من بداية أمر صلاح الدين إلى وفاته، ومـع أنّ ابن الأثير عاصر مرحلة صلاح الدين إلاّ أنّه كان مناوئا له، ولم يذكر مصادره التي اعتمدها، ويبدو أن أصل رواياته كتابات العماد الأصفهاني.

هـ - "مضمار الحقائق وسرّ الخلائق" للمنصور محمد أحد الملوك الأيوبيين تناول فيه فترة مـن حياة صلاح الدين (575-1179/582- 1186) في شكل جزء من موسوعته الـتي ضـاع معظمها.

و- المؤلف المجهول صاحب كتاب " البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان" تناول فيه حياة صلاح الدين ككل منذ ولادته حتى وفاته، ولا يظهر من مختلف الأحداث التي رواها أنه كانت له رؤية خاصة لصلاح الدين، فقد كان ينظر إليه على أساس أنّه سلطان عادي، ولم يضف إلى ما كتبه معاصرو صلاح الدين شيئا يذكر يرتقي بالمؤلّف إلى مصاف المصادر المتخصصة في عـرض سـيرة صلاح الدين.

إن المادة الخبرية التاريخية التي نقلت سيرة صلاح الدين قويّة بما يكفي من حيث أسلوبها ومنهج ترتيبها، وتناولها لحياة الناصر، فأصحابها قد بلغوا من المراتب العلمية ما أهلهم إلى قيادة النخب الفكرية، وتبوء المكانة السياسية والمتمعية المرموقة، فجمعـوا بـين المكانـة العلميـة والمشاركة السياسية لينتجوا لنا مادة تاريخية متنوعة وثريّة أحاطت بالكثير من القضايا، وتطرقت لتفاصيل الحكم وشؤون السياسة، كل مؤرخ من موقعه، ومنهج كتابته، وإطلاعه على مختلف الأحداث.

إنّ ما أنجزته في هذه المذكرة ليس إلا محاولة لطرق فضاء تاريخي رحب وصعب، يختص بمراجعة الكتابات التاريخية ونقدها، وهو قابل لزيادات وإضافات تمدّد في مرحلته، وتوسـع في مصادره على مستويات مختلفة:

على مستوى المرحلة الزمنية يمكن إدراج مؤرخين لاتينيين عاصروا صلاح الدين ونقلوا صورته للعالم الغربي والعربي على حدّ سواء، كما يمكن تناول مؤرخي القرن (8هـ ـ/14م) بالدراسة، ممّا قد نجده عندهم من أخبار حول صلاح الدين لم يذكرها غيرهم.

وبخصوص المصادر يمكن تناول نماذج تاريخية أخرى في مراحل تالية لمرحلـة الدراسـة خاصة كتب التراجم والطبقات والبلدان وغيرها من النماذج التي تعددت ألوانا، كما يمكـن

التعمق أكثر في تحليل المادة التاريخية لهذه المصادر من خلال الاسترشاد بالمنـاهج والمقاربـات الحديثة، والدراسات المتخصصة.

وفي الأخير أسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، ويجعله في ميـزان حسناتي، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آلـه وصـحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

ببليـوغـرافيـا المصــادر
والمـراجــع
والـدوريـات

أولاً: المصادر:

- أ-

ابن الأثير. عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (تـ 630 هـ)

1) **الكامل** في **التاريخ،** تحقيق عمر عبد السلام تدميري، ط 4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1424-2004. (8 ج)

الأصفهاني. عماد الدين الكاتب

2) **خريدة القصر وجريدة العصر،**

الجزء 01: الـمع العراقي,

3) **الفتح القسّي** في **الفتح القدسيّ،** تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، ط1، دار الكتـب العلمية، 1424، 2003.

4) **البرق الشامي،** تحقيق فالح حسين، ط1، عمّان: مؤسسة عبد الحميد شـومان، 1987، (ج2).

ت

ابن تغري بردى: جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (تـ 874 هـ)

5) **النجوم الزاهرة** في **ملوك مصر والقاهرة،** ج 4، تحقيق إبراهيم علي طرخان، القـاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي.

ج

ابن جبير. أبو الحسين محمّد بن أحمد الكناني الأندلسي (تـ 614- 1186)

6) الرحلـة، طبعة الكترونية، مركز ودود للمخطوطات، ومكتبة المصطفى.

www.wadod.com . www.al-mostafa.com

ح

حاجي خليفة. مصصطفى بن عبد الله الحنفي القسطنطيني (تـ1067 هـ)

7) **كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون،** بيروت: دار إحياء التراث العربي. (2ج)

الحموي. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ـ 626 هـ)
8) **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،** تحقيق إحسان عبـاس، ط1، بـيروت: دار الغـرب الإسلامي، 1993. (7 ج)
9) **معجم البلدان،** تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ط 1، بيروت: دار الكتـب العلميـة، 1410-1990.

خ

ابن الخطيب. لسان الدين السلماني الغرناطي (ت ـ 776 هـ)
10) **الإحاطة** في **أخبار غرناطة،** تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة: مكتبة الخـانجي 1339 - 1973. (4 ج)
ابن خلدون. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت ـ 808 هـ)
11) **العبر وديوان المبتدأ والخبر** في **تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشـأن الأكبر،** تحقيق خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، 1421 - 2001. (8 ج)
ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ـ 681 هـ).
12) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر. (-ج)

ذ

الذهبي. شمس الدين محمد بن أحمد (ت ـ 748 هـ)
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1413 - 1993. (أجزاء متفرقة)
13) **تذكرة الحفاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية. (4 ج)
14) **ذيل تاريخ الإسلام،** تحقيق مازن بـاوزير، ط 1، الريـاض: دار المغـني، 1419-1998.
15) **ذيل العبر** في **خبر من غبر،** تحقيق محمد زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلميـة، 1405 - 1985.
16) **سير أعلام النبلاء،** تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط 2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404 - 1984. (أجزاء متفرقة)

17) **العبر** في **خبر من غبر**، تحقيق محمد زغلـول، ط1، بـيروت: دار الكتـب العلميـة، 1405- 1985. (3 ج)
18) **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، تحقيق بشار عواد معروف وآخـرين، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404- 1984.
(19

ش

أبو شامة. شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي الدمشقي (تـ 665 هـ)
20) **الذيل على الروضتين: أو تراجم القرنين السادس والسابع**، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط2، بيروت: دار الجيل، 1974.
21) **الروضتين** في **أخبار الدولتين**، تحقيق محّمد حلمي محمد أحمد، القـاهرة، مطبعـة دار الكتب المصرية، 1998. (ج2)
ابن شاهنشاه. محّمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (617 هـ)
22) **مضمار الحقائق وسرّ الخلائق**، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، 1401.
ابن شداد. عز الدين محّمد بن علي (684هـ)
23) **الأعلاق الخطيرة** في **ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق يحي زكريا عّبـارة، دمشـق: منشورات وزارة الثقافة، 1991. (ج2)
ابن شداد. باء الدين أبو المحاسن (تـ 632 هـ)
24) **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفّية**، تحقيق جمال الدين الشّيال، ط1، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.

ع

ابن العديم. كمال الدين عمر بن أحمد (660 هـ)
25) **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكّار، ط 1، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1418- 1997.
26) **بغية الطلب** في **تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكّار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1988، (ج2).

ابن عساكر.

27) **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكـر، 1415 -1995.

28) **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وآخـرين، دمشـق: دار الفكـر، 1404 -1984.

ابن العماد. أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (تـ 1089 هـ)

29) **شذرات الذهب** في **أخبار من ذهب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ȟ

ابن الغزي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (تـ 1167 هـ)

30) **ديوان الإسلام**، تحقيق سيد كسروي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلميـة، 1411- 1990.

8

أبو الفداء. الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن شاهنشاه (تـ 732 هـ)

31) **المختصر** في **أخبار البشر**. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417- 1997.

32) **تقوĆ البلدان**، نشره رينود والبارون دي سلان، بـاريس: دار الطباعـة السـلطانية، 1840.

ق

ابن القلانسي. أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (تـ 555 هـ)

33) **تاريخ دمشق** (360-555هـ). ط1، دمشق، دار حسّان، 1403-1983.

القلقشندي.

34) **صبح الأعشى** في **صناعة الإنشا**..........................

ك

الكتبي. محمد بن شاكر (تـ 764 هـ)

35) **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة.

ابن كثير. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي (تـ 774 هـ)

36) **البداية والنهاية**، بيروت: مكتبة المعارف.

ل

مجهول.

37) **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**. تحقيق ودراسة أحمد عـزاوي، ط 1، القنيطـرة- المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب جامعة ابن طفيل، 1416- 1995.

المقري. أبو العباس أحمد القرشي التلمساني (تـ 1041 هـ)

38) **نفح الطيب** في **غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صـادر، 1388- 1968. (7 ج)

المنذري. زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (تـ 656 هـ)

39) **التكملة لوفيات النقلة**، تحقيق بشار عواد معروف، ط4، بيروت: مؤسسة الرسـالة، 1408- 1988.

م

مجهول (نسبه البعض لعماد الدين الأصفهاني الكاتب)

البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق عبد السلام تـدمري، ط1، بـيروت: المكتبة العصرية، 1423- 2002.

ن

النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (733هـ)

40) **نهاية الأرب** في **فنون الأدب**، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

و

ابن واصل. جمال الدين محمد بن سالم الحموي (697هـ)

41) **مفرج الكروب** في **أخبار** بني **أيوب**.

الجزء، 1، 2، 3: تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: دار الفكر العربي.

الجزء 5، 4: تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة: مطبعة دار الكتب، 1972.

ي

ابن أيبك الدواداري. أبو بكر بن عبد الله

42) ك الدرر وجامع الغرر ج7، **الدرّ المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب**، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، 1391، 1972.
اليافعي. عبد الله بن أسعد اليمني المكي (تـ ـ ـ 768هـ)
43) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمـان**، القـاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1337، 1993.
اليونيني.
44) **ذيل مرآة الزمان**، نسخة الكترونية، مكتبة المصطفى.

ثانيا: المراجع

بدوي.أحمد أحمد
45) **صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه**، ط2، القاهرة: دار القلم، 1960.
حسن عبد الوهاب حسن
46) **مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصـليبية**، القـاهرة، دار المعرفـة الجامعية، 1997.
حميدة. عبد الرحمان
47) **أعلام الجغرافيين العرب، ومقتطفات من آثارهم**، دمشق: دار الفكر، 1984.
حمادة. محمد ماهر
48) **دراسة وثقية التاريخ الإسلامي ومصادره** (من عهد بني أمّية حـتى الفـتح العثمـاني لسورية ومصر)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988.
الدفاع. علي بن عبد الله
49) **رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية**، مكتبة التوبة، 1993.
سعداوي. نظير حسان
50) **المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي**، مصر: مطبعة لجنة البيان العربي، 1962.
طقوش. محمد سهيل

51) **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، بيروت: دار النفائس، 1999.

عاشور. سعيد عبد الفتاح

52) **أضواء جديدة على الحروب الصليبية،** القاهرة: دار الكتب القلم، 1964.

ع

عمر. محمد زيان

53) **مدخل إلى علم التاريخ**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.

عاصي. حسن

54) **مؤرخو العرب والإسلام** (المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991.

عشري.عثمان عبد الحميد

55) **الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية**، (491/1097-691/1290) الاسكندرية: المكتبة التاريخية، 1983.

كحالة. رضا

56) **معجم المؤلفين**، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414- 1993. (4 ج)

قلعجي. قدري

57) **صلاح الدين الأيوبي**،(قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر)، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1992.

محمد عمار. جمال فوزي

58) **التاريخ والمؤرخون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (521-660)**، ط 1، القاهرة: دار القاهرة، 2001.

محمود. إسماعيل

59) **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي** (الفكر التاريخي- طور الإزدهار) مصر: مؤسسة الغنتشار العربي، 2000.

مصطفى. شاكر

60) **التاريخ العربي والمؤرخون (**دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسـلام**)**، بيروت: دار العلم للملايين، 1987، (ج 4)

المطوي. محمد العروسي

61) **الحروب الصليبية** في **المشرق والمغرب**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.

ي

يسرى. عبد الغني عبد الله

62) **معجم المؤرخين المسلمين حتى ق 12 هـ**، ط 1، بـيروت: دار الكتـب العلميـة، 1411- 1991.

63)

ثالثا: المراجع المعرّبة

بروكلمان. كارل

64) **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة عبد الحليم النجار، ط3، القاهرة: دار المعارف.

روزنتال. فرانز

65) **علم التاريخ عند المسلمين**،ترجمة: صالح أحمد العلي، بـيروت: مؤسسـة الرسـالة، 1403-1983.

شاندور. ألبير

66) **صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى** في **الإسلام،** ترجمة: سعيد أبو الحسن، (ت) نـديم مرعشلي، دمشق: طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1993.

الصوري. وليم

67) **الحروب الصليبية (**1184/1094)، ترجمة حسن حبشي، القاهرة: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، 1198.

هاملتون. جب

68) **صلاح الدين**- دراسات في التاريخ الإسلامي- ترجمة يوسف أيبش، بيروت، بيسـان للنشر والتوزيع والإعلام، 1996.

كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش
69) **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان الدين هاشم، بـيروت، دار الغرب الإسلامي، 1408- 1987.

رابعا: المراجع باللغات الأجنبية: فرنسية- إنجليزية

Françoise Micheau,
« Les croisades vues par les historiens arabes d'hier et d'aujourd'hui », rééd. *Les relations des pays d'Islam avec le monde latin du milieu du X^e siècle au milieu du XIII^e siècle*, Paris, E. J. Marseille, p. 52.

Claude Cahen,
«Une chronique syrienne du VI/ XIIème siècle», *Bulletin d'études orientales*,. VII-VIII , (1937-38), p. 115-158.

Sir hamilton gibb,
The life of saladin, from the zorks of ' imad ad-din and bahaa' ad-din, oxford,1973,p.01.

خامسا: الرسائل الجامعية

الحريري. سلطان عبد الرؤوف
- **أدب الرسائل في العصر الايوبي (القاضي الفاضل نموذجـا)**. دكتـوراه في الأدب، جامعة دمشق.

سادسا: مقالات

بواعنة. لؤي إبراهيم
- **يحي بن أبي طيء مؤرخا**، المجلة الاردنية للتاريخ والآثار، عدد 2، مارس، 2009.

زيان. غانم عمر

- **بعض مظاهر الحياة الاجتماعية بمصر زمن صلاح الدين الأيوبي** في **ضوء رحلة ابــن جبير**، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة القاهرة، مايو، 1969، مج 31، الجــزء، 1، 2، ص 75.

علاوة. عمارة

- **الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة** في **نقاش تاريخي**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، عدد 4، أكتوبر، 2004. ص 31- 75.

فرحان. محمد جلبوب

- **منهجية ابن الأثير** في **كتابه الكامل** في **التاريخ**، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 12، أيار، 1981، ص149- 158.

الهيب. فوزي

- **دراسة لمنهج ابن شداد** في **كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، الاحــد 08 تموز، 2008.

ملخّDŽ البحـث

باللغة العربية

إنّ سيرة صلاح الدين على اختلاف الرؤى التي نُظِرَ إليه من خلالها من مؤرخين تحكمت فيهم المذهبية، والاتجاهات السياسية، وغيرها من القضايا ذات العلاقة والنسب، من السّير المؤثرة في تاريخنا وجب الاقتداء بها، وبحث سرّ تفوقها وتميّزها نتيجة ما قدّمت للأمة، في وقت عجزت الخلافة العباسية بمقوماتها ومواردها أن تصنع ما صنعه صلاح الدين على الرغم من صعوبة المهمّة وثقلها، خاصة في بداية أمره، لكن طموحه وبعد النظر مكّناه من بلوغ مراده، وحقق ما لفت انتباه الكتّاب والمؤرخين ليخطّوا سيرته وانجازاته، فكسب من الشهرة والعالمية ما جعل أبناء أمته يعملون على امتثال مواقفه وحسن صنيعه.

على الرغم من هذه الشهرة لا يوصف صلاح الدين بظاهرة فردية، وشخصية عبقرية ظهرت فجأة على مسرح الأحداث، بل كان عيّنة لقادة قاوموا الغزو الصليبي، وثمرة عمل جماعي سبق جيله، وإن كانت طرائق الكتابة التاريخية حوله مختلفة من مؤرخ لآخر ممّن خطّوا سيرته، إلا أنّهم أجمعوا في الغالب على صورة واحدة، هي صورة القائد المقتدر الكفء، الجدير بإدارة شؤون البلاد والعباد على تنوع ضروبها وتعدّد مجالاتها، عند كل من كاتبه العماد الأصفهاني، ووزيره الأوّل القاضي الفاضل، وقاضي عسكره بهاء الدين بن شداد، وأبي شامة من خلال جمعه لمقتطفات المصادر المفقودة خاصة روايات ابن أبي طيء، وابن الأثير الجزري الذي خالف ما ذهب إليه أقرانه خاصة من الناحية العسكريّة بسبب الخلفية المبنية على ولائه السياسي للزنكيين، غير أنّ ذلك لم يمنعه من التذكير بفضائل صلاح الدين.

وفي كل الأحوال صوّرت شخصيّة صلاح الدين - مع تقارب الصور- في ظل حقيقة مبالغ فيها بعض الشيء، من المؤرخين المرافقين له على وجه الخصوص، اقتربوا بمبالغتهم هذه من الصناعة والانحراف عن طريق الحقيقة، ذلك أن الأهواء وطبيعة الظروف آنذاك أسهما وأثرا أثرا بالغا في صياغة الأحداث وطريقة تناولها، وبالتالي في كيفية تصوير ملامح الشخصية الأيوبية.

هذا التحيّز أملته طبيعة المؤلفات البلاطية، وما ميّز أصحابها من السهر والاجتهاد في تخليد مآثر أصحاب البلاط، وتسجيل أمجادهم، وما يعنيه ذلك من غض للطرف عن كل ما يشوّه صورة السيد مهما كانت مكانته، ووسِمت أغلب الكتابات من هذا النوع بسمةٍ سياسية ومذهبية واستهدفت التبرير السياسي لأعمال الحاكم، وإثبات مشروعية وجوده، والدفاع عن إيديولوجياته.

كتابات المؤرخين الذين لم يرافقوا صلاح الدين على اختلافهم، وعاصروا فتـرة مـن حياته كالمؤرخ الأيوبي المنصور محمّد الذي أشاد بجهود والده بصفته واحدا من المقدمين عنـد صلاح الدين، والكاتب المهول صاحب "البستان الجامع لتواريخ أهل الزمان"، وما تلا هؤلاء في فترات زمنية مختلفة عاشوها، وتحدثوا فيها عن حياة صلاح الدين يستأنس بها، كما لا يمكننا الاستغناء عنها، لكن في عمومها لم تقدم مادة قوّية تداخلت فيها مع كتابات معاصري صلاح الدين من المؤرخين، لأنّ قيمة أي مصدر تاريخي يقررها قدمه وقربه من الحوادث التي يصفها، أو استخدامه لكتب مفقودة قديمة، أو قريبة من المعاصرة.

إنّ الخصائص والمميزات التي طبعت الكتابة التاريخية العربية عن صلاح الدين في القرنين (6-7هـ/12-13م) وقوتها جعلها ترقى إلى مستوى كثرة تناولها من طرف الدارسين المحدثين، وتحليل أحداثها التي رسمت صورة صلاح الدين، وأبدته على ذلك القدر من التبجيل والتخليد.

ملخّDŽ البحـث

باللغة الفرنسية

La vie de Saladin, nonobstant l'angle de vue selon lequel les différents historiens l'ont regardée, lesquels historiens étaient animés par des idéologies, des affinités politiques et autres questions ayant trait aux relations de famille, la vie de Saladin reste parmi les plus touchantes dans notre histoire qu'il devient nécessaire de la prendre pour modèle et rechercher les raisons du succès qui l'a accompagnée, notamment en raison de son apport à la Oumma alors que le califat abbasside , avec ses fondements et ressources s'était montré impuissant à rivaliser avec Saladin, bien que la mission dévolue à ce dernier fût des plus âpres. Mais l'ambition de Saladin et sa vison lui avaient permis d'arriver à ses fins et réaliser des exploits qui ont suscité l'intérêt des historiens qui ont rédigé sa biographie qui devint célèbre dans le monde entier

Malgré cette célébrité, Saladin ne peut être considéré comme un cas particulier, et un génie apparu d'un coup sur la scène des évènements, mais il était un échantillon des chefs qui avaient combattu les Croisés, et le fruit d'un travail collectif. En dépit de quelques différences notées chez les biographes de Saladin, il y a cependant une unanimité sur son image de chef compétent et capable de diriger la nation musulmane, ainsi que l'attestent les écrits de son secrétaire Imad Eddine El-Isphahani et son premier ministre El Fadhel,et son chef militaire Bahadine ibn Chadad, et Abi Chama qui recueillit les extraits disparus, notamment les récits de Ibn Tay et Ibn Alathir Aljazri qui, mu par son soutien au Zenguides , contredit ses compères notamment sur le plan militaire tout en n'omettant pas de mentionner les vertus de Saladin.

D'une manière générale, il faut admettre qu'une part d'exagération a été observée dans la relation de la vie de Saladin, ce qui a écarté ses biographes de la vérité, car les passions et les circonstances de l'époque avaient influé grandement sur la rédaction des différentes biographies de Saladin, d'où le mythe qui entoure ce personnage.

Ce parti pris était dicté par les circonstances de la cour dont les reçus s'étaient ingéniés à glorifier l'œuvre des rois, en omettant tout ce qui pouvait entacher leur aura. La plupart de ces écrits portaient un cachet politique et idéologique qui visait à légitimer les actes du sultan.

Les écrits des biographes qui n'ont pas accompagné Saladin tout en étant contemporains d'une époque de sa vie comme l'historien Almansour Mohamed qui loua les efforts de son père qui était

considéré comme un favori de Saladin, en plus de l'écrivain inconnu de « Le Jardin complet des dates des hommes », ne sont pas négligeables mais dans l'ensemble ils n'ont pas apporté une matière riche , car la valeur de tout écrit historique est tributaire de la proximité ou l'éloignement de l'historien de la scène des évènements ainsi que son recours à des livres anciens et disparus ou des livres plus proches de l'actualité.

Les caractéristiques de l'historiographie de Saladin au cours des siècles 6-7 de l'hégire (12-13 JC) et sa force l'ont hissé à un niveau très abordé par les chercheurs contemporains qui analysèrent les faits qui ont dessiné les contours du personnage de Saladin comme il est apparu dans ces écrits, plein de gloire et de charisme.

République algérienne démocratique populaire
Ministère de l'enseignement supérieur et la recherche scientifique
Université d'Alger -I-
Faculté des sciences islamiques
Classe de la langue et de la civilisation arabo-islamique.

Saladin dans l'historiographie Arabe aux siècles 6-7de l'hégire (12-13 JC)

Mémoire de Magistère en Sciences Islamiques

Option: Histoire et Civilisation

Membres du Jury

1-P/Dr. Mohamed Elamin Belkhaith…..…Président
2- P/Dr. Alloua Amara……….………..Prometteur
3- P/Dr. Bachar Kouidar…………………..Membre
4-P/Dr. Toufik mazari abdesamad ……….Membre

Sous la direction de :
Allaoua Amara

Présenté par :
Aouad Elmenouar.

Année universitaire :
2011/2012 - 1432/143
République algérienne démocratique populaire

Ministère de l’enseignement supérieur et la recherche scientifique
Université d’Alger -I-
Faculté des sciences islamiques
Classe de la langue et de la civilisation arabo-islamique.

Saladin dans l’historiographie Arabe aux siècles 6-7de l’hégire (12-13 JC)

Mémoire de Magistère en Sciences Islamiques
Option: Histoire et Civilisation

Sous la direction de :
Allaoua Amara

Présenté par :
Aouad Elmenouar.

Année universitaire :
2011/2012 - 1432/143